الفنون الأدبية عند العرب

١١

# فن المديح

أحمد أبو حاقة

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

# الفنون الأدبية عند العرب

# ١١

فن المديح

أحمد أبو حاقة

# فن المديح

## وتطوره في الشعر العربي

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الطبعة الاولى

آذار (مارس) ١٩٦٢

# فن المديح

إذا كان لعاطفة الإعجاب مشاركة في إثارة الانفعالات التي تبعث على نظم الشعر، وأهمية في صدق الشعور، والإخلاص في التعبير عما يعتمل في خواطر الشعراء، فان هذه العاطفة، هي في فن المديح أوفر، وبه ألصق، حتى ليغدو هـــذا الفن وليد الإعجاب بجمله ؛ إن عبّر، فانمـــا يعبر عن شعور تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة، ملك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الاكبار والاحترام لذاك الفرد، أو تلك الجماعة أو الهيئة .

والمديح تعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمـــة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشمائل .

ولعلنا لا نكون مخطئين اذا قلنا : ان الإعجاب بالخيّر من الصفات، والفاضل من الأعمال، والعظيم من الرجال، خاصة إنسانية تجدها لدى جميع الشعوب في مختلف العصور . بل تجدها

في قرارة كل نفس انسانية مهما تباينت نزعاتها ، ومهما افترقت أساليب عيشها ونظمها ، ومثلها العليا ، وغاياتها في الوجود .

لذلك ، لم يكن فن المديح ظاهرة وليدة الأمس القريب ، ولا هو مقتصر على جيل دون جيل ؛ فمنذ ان وعى الانسان ذاته ، وأدرك بعضاً من مقومات وجوده ، ثم عرف السبيل الى تحقيق ما اعتبره غاية له ، منذ ذلك اليوم ، والانسان يقدر الأعمال العظيمة، والبطولات الخارقة ، والتصرفات المستحسنة لديه ، ويثني على أصحابها ، فيتحدث عنهم حديث الممجّد ، ويصور مآتيهم تصويراً مثالياً فنياً ، فاذا البطولة أكثر مما هي عليه في الواقع ، واذا العمل الفاضل أكثر فضيلة وأعظم قدراً .

ولا تظنن أن المبالغة في وصف أعمال العظماء، هي نوع من التجني على الحقيقة ؛ ولكن التجني هو ان تسند الفضل الى من ليس عنده ذرة من فضل ، وان تنعت بالعظمة من هو موطن الخسّة ، ومعدن السّفه . وانا لنذهب واثقين ، الى أن المبالغة في تعظيم العظماء وتضخيم المآتي الجليلة هما نوع من رقي الفن ، وتحقق لغايته ، واستجابة لطبيعة العمل الفني . أليس الفن الجميل ، ارتفاعاً بالجمال الى ما فوق الجمال ، وشداً بالشيء نحو مثله الأعلى، وارتساماً لما يصبو اليه الانسان ، أو ما يودّ أن يتحقق لديه ؟

ناهيك بأن تضخيم العمل العظيم ، وتصوير المحاسن بأحسن مما هي ، هو فضيلة بحد ذاته من فضائل الشعراء التواقين دائماً الى السير بالناس نحو الأمثل من الأمور . وإن شاعر المديح، إذ يسمو بالصفات التي يمتدحها الى أكثر مما هي ، لا يكون بذلك

قد خالف الاصول الفنية أو خرج على مـألوف الذوق وقواعد الجمالية .

والذي ينبغي أن يذكر هنا ، أن فن المديح هو من أقـدم الفنون الادبية ، عرفه البدائيون يوم رفعوا صلواتهم الى أربابهم ، وأثنوا على اصنامهم ، وتغنوا بامجاد آلهتهم . وعرفوه يوم وضعوا أنفسهم تحت وصاية زعمائهم وأبطـالهم ، وامتدحوا هؤلاء الأبطال وتحدثوا عن أعمـالهم ومآتيهم الكبرى ، وحاولوا أن يعترفوا بما لهم من آلاء وما كان لهم من فضل في نصرة أبنـاء قومهم ، وتبديد القلق والخوف من نفوسهم والقضاء على المخاطر التي كانت تحدق بهم .

وعرفه المتحضرون أيضاً ، فامتدحوا الملوك والأمراء والعظماء من أهل الشرف والمكانة العليا والمزايا المستحبـة ، كما امتدحوا العلماء والمفكرين والمخترعـين والأدباء والشعراء ، إمّا إعجاباً وتقديراً خالصاً من كل غاية شخصية ، واعترافاً مجرداً بما هو جدير بالإكبار ، وإما سعياً وراء مكسب وتقرباً وطلباً للرفعة . وما نظن أن أمة من الامم قد جهلت هذا الفن الأدبي لا في القديم ولا في الحديث ، وإن اختلفت الأساليب وتباينت الغـايات وتعددت الوجوه التي برزت فيها المدائح .

على أن شعر المديح ينضوي أكثر ما ينضوي تحت الغنائية ، وإن كانت هنالك مجالات لا تمنع من أن يتخذ القالب التمثيلي أو القالب الملحمي ، لأنه في أساسه قائم على مشاعر ذاتية ، وعلى مواقف تتأثر بأهواء الفرد وميوله وعواطفه ، وتصور انفعالات

الشاعر الخاصة ، وخطراته الوجدانية .

و«الأنا» في شعر المديح ذات طغيان شديد ، هي التي تمد الشاعر بالصور والاحاسيس ، وتحرك منه الفؤاد ، وتستثير فيه النزعات ، وتوقظ كوامن النفس ، وتحمله على ألوان من السلوك تتفق وما قد تهيأ له .

والمديح بحكم طبيعته ، وبكونه يلقى على مسامع الممدوحين ، واليهم يتوجّه بالخطاب ، لا بد أن يعتمد ، كما تعتمد أغراض الشعر الغنائي كلها على العناية بالتعبير ، وصقل الألفاظ ، وحسن اختيارها ، والحرص على تآلفها ، وتوفير الانسجام بين النغمات التي تصّاعد منها ، وإقامة التكافؤ والتوافق بين ما يذهب اليه الشاعر من ناح ، وما يصدر عنه من ناح ثان ، وما يرضي الممدوح من ناح ثالث ، ويرضي الذوق والآداب العامة من ناح رابع .

وإذا كان الشعر الغنائي يفترض في أساسه قصر النَفَس ، وانصباب الحس والشعور والدفق العاطفي ، في أبيات قليلة منحوتة نحتاً دقيقاً ، بحيث يكون الشاعر قد وعى وعياً كاملاً كل حرف من حروفها ، وتعمّد وضعه في مكانه ، فان شعر المديح هو من أكثر الأغراض الغنائية تطلّباً لمثل هذا القصر في النفثات ، ولمثل هذا الوعي ، نظراً الى ضيق الوقت لدى الممدوحين والى سرعة مللهم وسآمتهم ، إذا طال عليهم القول ، ولو كان فيه من الجودة شيء كثير ، ونظراً إلى أن قيمة هذا الشعر عند الممدوح ، تتوقف الى حد بعيد ، على الأثر الآني الذي يتركه فيه ، مما يحتم على الشاعر الذي يلقيه بين يديه ، أن

يجتهد ما أمكنه في جعـــل هذا الأثر على أكثر ما يستطيع من الاتساع والعمق والقوة ، سواء توسل بحسن القائه أو بجمال الصور التي ابتدعها ، أو المعاني التي ابتكرها .

والذي لا يجوز اغفاله هنا ، أن المـــديح يمكن ان يصاغ بقوالب النثر كما يمكن أن يصاغ بقوالب الشعر ، ولعل ما قيل من المنثور في المدائح أكثر مما قيل من منظومها ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا المنثور كما حفظ لنا المدائح المنظومة ، وذلك لأن الشعر بفضل ما فيه من الموسيقى ، ومن الرشاقة ، ومن تقسيم الكلام على أبعاد متساوية ، وقواف وأوزان ، وصور مستحبة ، وخاصة في شعر العرب ، وبفضل ما ذهب اليه هؤلاء العرب من اهتمام بالشعر ، وإقبال عليه ، وجعله تعبيراً عاماً عن حياتهم في اكثر من عصر ، وتخصيص رواة له يحفظونه ويروونه للناس ، ويتناقلونه خلفاً عن سلف ، من دون ما قيل من كلام منثور ، بفضل ذلك كله ، حفظ أكثر الشعر على العموم وأهمل اكثر النثر ، فبقيت المدائح المنظومة ، وزال المديح المنثور إلا أقلّه .

جاء في «نهاية الأرب» للنويري أن ضرار بن ضمرة الكنـــاني دخل على معاوية بن أبي سفيان ؛ فقال له معاوية : صف لي علياً ، فقال : أو تعفيني ؟ فقال : لا أعفيك .

قال : أما إذْ لا بد ، «فانه كان بعيد بعيد المدى ، شديـــد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويـأنس بالليل وظلمته . كان والله عزيز العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفّـيه

ويخاطب نفسه . يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن. كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه . وكان مع تقرّبه الينا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة له . فان ابتسم فعن مثل لؤلؤ منظوم . يعظم أهل الدين ويحب المساكين . لايطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . »

من الواضح أن هذا الكلام ، إن انتسب الى فن من فنون الأدب ، فإلى فن المديح ، وإنه لآية في البلاغة وحسن التعبير ، فيه من الصفاء والروعة ومتانة التركيب وصحته ، وايجاز العبارة ، ووضوحها والعناية بموسيقى اللفظة ، والذوق في التأليف بين أجزاء الكلام ما يجعل هذا القول يضاهي أسمى ما بلغت اليه أساليب التعبير العربي . ناهيك بما في هذا المقطع من فكر رزين ، ومنطق سليم ، وفهم صحيح للرجولة ولصفات الحاكم الصالح ، والانسان الفذّ . كما أن فيه خلقاً نبيلاً ، وتشريعاً دقيقاً للعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الحاكم والمحكوم . وهو مديح موفق ، ينطق عن واقع الامام علي ، وإن جنح به نحو المثالية كأنه يبيّت في خفاياه ، أن يلقن ابن أبي سفيان دروساً في العدل والعظمة والرجولة والتقى .

هذه عيّنة من عينات المديح المنثور . ونحن لا نراها أقل قيمة من المدائح المنظومة . بل نجد فيها فوق ذلك ما يجعلها موازية لخير قصائد المديح إن من حيث الشكل ، أو من حيث المحتوى . وكم من رسول دخل على الأمراء فامتدحهم بالنثر ، وكم من رؤساء الوفود قد خطبوا في حضرات الخلفاء والملوك والعظماء ،

فتناولوهم بالمدح أيضاً . حكي أن رجلاً من ولد يحصب بن مالك يدعى ذافائش ، قد فاخر النعمان بن المنذر ملك الحيرة ذات مرة وفي أثناء ذلك ، دخل على النعمان فاعل بن عمرو بن عدي اللخمي ، فحياه بتحية الملوك ثم قال له :

« أيفاخرك ذو فائش وأنت سائس العرب ، وعروة الحسب والأدب . لأمسك أيمن من يومه ، ولعبدك أكرم من قومه ، ولقفاك أحسن من وجهه ، وليسارك أجود من يمينه ، ولظنك أصدق من يقينه ولوعدك أثلج من رفده ، ولخالك أشرف من جده ، ولنفسك أمنع من جنده ، وليومك أزهر من دهره ، ولفترك أبسط من شبره .

ثم قال :

أخلاق مجدك جلّت ما لها خطر
في البأس والجود بين الحلم والخفر
متوّج بالمعالي فوق مفرقه
وفي الوغى ضيغم في صورة القمر
إذا دهى الخطب جلاّه بصارمه
كما يجلّى زمان المحل بالمطر

فتهلل وجه النعمان سروراً ، ثم أمر أن يحشى فوه درّاً ، وكسي أثواب الرضا ، وكانت جباب أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان هكذا فليمدح الملوك .

في هذا النموذج ، مزج بين الشعر والنثر ، إن دل على شيء فانما يدل على أن كلا الاسلوبين صالح للمديح ، وعلى أن النثر لم

يكن مستكرهاً لدى الممدوحين ، فها هو النعمان يصرخ : « هكذا فليمدح الملوك » واكبر الظن ان عاهل الحيرة ، قد رنّحه الكلام المنثور اكثر مما رنّحته الابيات المنظومة ، لأن في القسم النثري جمعاً بين تعظيم الملك والتعريض بخصمه ، في حين ان الاشعار قد اقتصرت على الاشادة بالنعمان وحده ، وإن اشتملت على عدد كبير من الفضائل التي نسبتها اليه ، كالمجد والبأس والجود والحلم والحياء والعلى والشجاعة والمضاء وماالى ذلك .

ولعل من المستحسن أن نقارن بين مديحين ، قيلا في رجل واحد لغرض واحد تقريباً أحدهما منثور كتبه محمد بن مالك القرطبي ، والثاني منظوم للشاعر أبي تمام . أما الممدوح فهو الخليفة العباسي المعتصم بالله .

قال محمد بن مالك القرطبي : « ما رأيت وجهاً أسمح ، ولا حلماً أرجح ولا بشراً أبدى ، ولا كفاً أندى ، ولا غرة أجمل ، ولا فضيلة أكمل ، ولا خلقاً أصفى ، ولا وعداً أوفى ، ولا ثوباً أطهر ، ولا سمتاً أوفر ، ولا أصلاً أطيب ، ولا رأياً اصوب ، ولا لفظاً أعذب ، ولا عرضاً أنقى ولا بناء ابقى مما خص الله به ثالث القمرين وسراج الخافقين ، وعماد الثقلين ، المعتصم بالله . »

وقال ابو تمام :

بيمن أبي إسحاق طالت يد العلى    وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من أي النواحي أتيته    فلجته المعروف والجود ساحله
تعوّد بسط الكف حتى لو انه    أراد انقباضاً لم تطعه أنامله .
ولو لم يكن في كفه غير نفسه    لجاد بها فليتق الله سائله .

فمن الواضح أن القرطبي أراد أن يحشد في مديحه عدداً من الفضائل فراح يذكرها واحدة تلو اخرى ، حتى يخرج بصورة للمعتصم متعددة الوجوه ، شاملة للخصائص التي تجعل من المرء رجلاً عظيماً ؛ وليست هذه هي المرة الاولى التي يعمد فيها ناثر الى التفصيل والى تعداد الوجوه ، فعقلية الناثرين عقلية تحليلية، تعمد الى إظهار الجزئيات ، في حين إن عقلية الشعراء تركيبية، تعنى بالشمول ، كما فعل ابو تمام حين ركّز كلامه على شيمة الكرم في ممدوحه ، محيطاً بمعناها ومظاهرها ، لينتهي من بعد الى القول ، تنويهاً بقمة ما يصل اليه كرم الناس .

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتّق الله سائله

أما ظاهرة السجع في المقطع النثري ، فلا تدخل في شيء ههنا ، إلا من حيث أنها تمثل تياراً إنشائياً عربياً في ذلك العصر ساد الترسّل ومختلف انواع الكتابات والخطب . وكذلك قل عن ظاهرتي الايجاز والتقطع في الجمل ، والتقسيم على أبعاد متساوية، وغير ذلك مما انطبعت به أساليب النثر في ذلك الزمن .

وبعد ، اذا كانت خصائص المديح لا تقتصر على قالب معين من القوالب الكلامية ولا تنحصر في نطاق واحد ، فان هنالك حقيقة لا يمكن التغاضي عنها وهي ان الشعر ، بقالبه الغنائي المحض ، قد يكون أكثر ملاءمة لهذا الفن لما فيه من نغم مؤثر ، وسهولة تساعده على أن يعلق في الأذهان ؛ ولما فيه من عناية بالالفاظ ونحت لها ، وغلو في الخيال ومبالغة في التصوير وأثر حسن في النفوس .

# المَديح في الشِّعر العَرَبي

ليس من المغالاة في شيء أن نقول : إن المديح يعتبر في شعر العرب ، أبرز الفنون الشعرية على الاطلاق ، رافق قيثارة الشعر العربي منذ وجودها الأول ، فكان وتراً مرنان الصوت فيها . وعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية في لسان الضاد ، ومن التبديل الذي أصاب صناعة النظم ومفاهيمه ومقاييسه ، وعلى الرغم من التطور العقلي المتسع الذي عرفه العرب في عصور الازدهار ، فان المديح لم يغب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر ، ولم يكن ليضعف أيضاً ، بل ظل هو الأصل ، وسائر الفنون الشعرية هي الفروع ؛ يقبل عليه الشعراء إقبالهم على شيء لم يكن ليملّ ، ويتعهدونه بالعناية ، ويصرفون الى المدائح جل اهتمامهم . وكأنما بات مستقراً في أذهانهم أن الله قد خلق الشاعر ليكون مدّاحاً ، وأن الشعر هو قبل كل شيء مهنة لحمتها المديح ، وسداها الغزل ، وكل ما دون ذلك ، ألوان ثانوية تسير في ركاب هذين الغرضين ، بل تسير كلها في ركاب غرض واحد هو المدح .

من هنا كان اتجاه الشعراء جميعهم نحو المديح ، يفتحون اعينهم عليه ويغمضونها عليه ، ويقفون عبقرياتهم على صناعته ، ويعتبرونه باب الرزق الأوحد وسبيل الغنم . لذلك بات عليك من العسير ، ان تجد شاعراً عربياًواحداً من العباقرة أو من غير العباقرة ، لم يصطنع المديح إلا ما ندر ، حتى امتلأت الدواوين بهذا الفن ، وغـــدت قصائده تشكل القسم الأوفى في نتـاج الشعراء .

واذا كان لكل ادب من أداب الامم ميزة تميز بها ، وفن اهتم به من دون سائر الفنون ، فان ميزة الشعر العربي هي المديح ، حتى ليكاد هذا المديح أن يطغى على كل ما جاء من مدائح لدى الامم جمعاء .

وأكبر الظن ،أن الشعر العربي ، لم ينشأ فيـه المديح بدافع التكسب ، بادىء البدء ، ولم يكن المـادحون الاولون يتوخون التزلف والربح ويقصدون الى غاية شخصية يصيبونها بواسطـة شعرهم ؛ وإنما نشأ فن المديح عند العرب إعجاباً بالفضيلة، وثناء على صاحبها وحباً بالجليل من الاعمال ، واهتزازاً أمام الاريحية وأمام الشجاعة وإكباراً للمروءة ، وتقديراً للنبل ، وحثّاً على كل ما من شأنه أن يسير بالانسان نحو الأفضل من الاوضاع،وأن يحقق ما ترنو اليه المجتمعات من كمال تنشده .

والذى لا مراء فيه ان طبيعة الحياة العربية في العصر الجاهلي والنظم المعيشية التي كانت سائدة آنذاك ، هي التي ساعدت على شيوع مثل هذا الفن وعلى انتشاره . وهي التي دفعت بالشعراء

الى اتباع هذا الدرب ، وحملت الممدوحين على أن يقرّوا عيناً بذلك . وأن يجدوا فيه ما يناسب أهواءهم . فطاب لهم سماع شعر يمجدهم ويبجّلهم ، ويتحدث عن مآتيهم ، ويكبرهم في أعين الناس ، ويقر بزعامتهم وكفاءاتهم في الاضطلاع بمتطلباتها . والانسان مفطور على حب الاطراء مهما يكن نصيبه من الفهم والعظمة . ومفطور أيضاً على المجاملة ، وذلك رغبة في معاشرة الناس ، والتقرب منهم واكتساب ودهم ، كأنه قد وعى في ضميره أن لا حياة له الا في المجتمع وان الطبيعة قد فرضت عليه فرضاً أن يعيش مع الناس شاء أم أبى . والعيش مع الناس يقتضي مرونة وليناً ومعاملة حسنة ، وظرفاً ومودة وتغاضياً عن أشياء كثيرة ، وتحمّلا لبعض التوافه ، ومؤانسة ، ومناصحة ، وعملاً على إرضاء الآخرين واجتذاب ودهم . واذا صح ذلك بالنسبة الى الأفراد العاديين ، والى أيّ انسان كان ، فحريّ به ان يكون صحيحاً مئة بالمئة بالنسبة الى العظماء من الناس ، لما يتمتعون به من جاه ، ولما يملكونه من سلطة ومن مقدرة على مساعدة الآخرين ، وعلى حل مشكلاتهم ودفع الضرّ عنهم ، والاخذ بناصرهم إبان ساعات الحرج . بالاضافة الى هذه العوامل العامة كلها ، عرفت حياة العرب في الصحراء عوامل اخرى خاصة كانت خير مشجع على انتشار فن المديح ، وهي في مجموعها تعود الى تأثير البيئة الصحراوية المجدبة ، وما نشأ عنها من مؤسسات وانظمة بدوية ، اجتماعية وسياسية واقتصادية . فلقد عاش العرب – قبل الاسلام – في معظمهم داخل اطار الجزيرة ،

وجعلها أرض قاحلة ، قليلة الماء ، قليلة النبات ، قليلة الخير ، مما فرض على البدوي أن يعيش عيشة خشنة قاسية ، وأن يقضي عمره كله في العمل المضني من أجل الحصول على ما يقيم به أود حياته . هذا النظام من العيش ، نفح المرء بالنفحة الفردية ، وجعله ذاتياً في تصرفاته وفي مشاعره ، شديد اليقظة والالتفات الى كل ما يمسّ فرديته ، مرهف الحساسية ، سريع التأثر بما يمتّ الى شخصه بصلة .

من هنا كان البدوي معتداً بنفسه ، صلفاً بها ، غيوراً على شرفه وعرضه وماله وحماه ، وعلى ضيفه ومن يستجير به ، حريصاً على الظهور أمام الناس بمظهر الرجل المحترم ، والبطل الشجاع والكريم الأبي ، يسره كثيراً أن يقال عنه إنه عظيم ، وأن يتمدح بين القوم ، ويثنى على خصاله وفعاله . وقد تمثلت هذه النزعة في عدد كبير من فرسان العرب وكرمائهم وسمحائهم ، منهم حاتم الطائي ، وعنترة بن شداد ، وطرفة ابن العبد ، وهرم بن سنان ، ومهلهل بن ربيعة .. الخ ..

فبسبب هذه الفردية الطاغية ، والأثرة ، وحب الذات ، كان العرب يضحون ، ويغامرون ، ويبذلون الكثير ، ويؤوون الاضياف وينجدون الملهوف حتى يلحقهم الثناء ، ويتحدث عنهم الناس وما كان واحد من الكرماء أو من العظماء يشتهر تبعاً لمديح يقال فيه حتى يخف الاشراف الى الاتصال به ، ومصاهرته والاعتزاز بالتقرب منه ، وما حكاية الاعشى والمحلق عنا ببعيدة .[١]

---

١ – انظر الحكاية في فصل تال .

اما من حيث النظام الاجتماعي ، فقد كان من نتائج الحياة في الصحراء ، والبدائية في العيش أن تأسس المجتمع على النظـــام القبلي . هذا النظام يتخذ من القرابة الدموية عصباً له ، فلا يتسع كيان القبيلة الى أبعد مما يتسع له عدد الأفراد الذين ينتمون الى صلب واحد .

والقبيلة وحدة سياسية واجتماعية ، بمعنى أنها تشكل كلاً لا يتجزّأ ، يتعاون أبناؤها الى أبعد حدود التعاون ، ويشتركون معاً في السرّاء والضرّاء ، فهم متكافلون في كل حـــال ، ينصر الواحد منهم أخاه ظالماً كان او مظلوماً .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم     في النائبات على ما قال برهانا

واذا كان الجميع يسعون في نصرة الفرد من غير أن يسائلوه، فالفرد كذلك يتبع خطى المجموع من غير أن يناقش .

وما انا إلاّ من غزيّة إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشـــد

هذا النظام، مضافاً الى جدب الصحراء وقلة خيرها ، فرض على العرب حياة الغزو والغارة ، وحياة الحرب الدائمة ، فما من قبيلة إلا وكان لها أعداء تغير عليهم ، ويغيرون عليها ! وما من قبيلة الا وكان لها أحلاف كذلك . واذا لم تجد قبيلة ما اعداء لها تغزوهم ، فانها تغزو أحلافها ؛ وقد يتغازى أبناؤها فيما بينهم على حد قول القطامي :

نغير من الضباب على حلال     وضبة ، انـه من حان حانا
واحيانا على بكر أخينـــا     اذا ما لم نجـــد الا أخانا

وفي كل هذه الأحوال ، كان للقبائل شيوخ يدبرون شؤونها، ويتولون قيادتها ، وتمثيلها بحكمة وشجاعة وعدل وإخلاص .

ولم يكن هؤلاء الشيوخ يتوارثون السيادة ، بل كانت القبيلة تحيا حياة ديموقراطية من حيث اختيار رؤسائها ، فلا يبلـــغ السيادة إلاّ كل رجل قد جمع في شخصه فضائل قبيلته ، وتميّز من الآخرين بحنكته وقوة شخصيته ، ورجحان عقله ، وطول تجربته لهذا ، لم يكن يتولى السيادة في القبائل ، إلاّ رجال ناضجون ، يعرفون كيف يسوسون الناس ، وكيف يسهرون على على مصالح قبائلهم .

وكانت العرب تأنف من الاستبداد ، وتتعلق بالحرية . لذلك كرهت أن تتوارث المشيخة في قبائلها ، وعملت جاهـــدة على إبعاد أبناء الرؤساء عن الرئاسة ، فما استثني من ذلك سوى أفراد قليلين فرضوا عظمتهم على قبائلهم ، لما كانوا يتمتعون به من قوة الشخصية ، فقيل فيهم : إنهم بلغوا السيادة كابراً عن كابر .

نظر الشعراء الى عظمة شيوخهم ، وأعجبهم منهم التسامح ، والحلم ، والحكمة والكرم والمروءة والاباء والشمم والأنفة والعدل والشجاعة والعفة وما الى ذلك من صفات مستحبـــة ، فكانت تثور قرائحهم لدى كل عمل من الأعمال يقوم به هؤلاء الشيوخ فيمدحونهم . ومما زادهم إقبالاً على مديح هؤلاء الزعماء ، ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر وتهاج . كل قبيلة كانت تجرد شاعرها للذود عنها ، وامتداح قوادها وأبطالهـــا وسمحائها ،

والتغني بمآثرهم فكأنما كانت القبيلة تكرم بكرم هؤلاء الأفذاذ ، وتصغر بصغرهم وتعز بعزتهم ، وتذل بذلهم .

والحق ان الشاعر العربي ، لم يكن يهتز ويعتز ببطل قبيلته إلا عندما يرى منه شيئاً عظيماً ، فكان يمتدحه لا من أجل التكسب ، بل أكباراً وإجلالاً وإعجاباً بما قام به .

مقابل هذا المديح القبلي ، كان هنالك هجاء للاعداء ، يتناول معايب القبيلة المهجوّة ، وزعماءها وفرسانها وقوادها ورجالها البارزين ، فيسفّههم ويحط من قدرهم .

وليس من المنتظر أن ينفر الافراد المنظورون ، المتمدح بفضائلهم ، من المديح ، فالواقع أنهم كانوا يسرون به . وكثيراً ما عملوا على دفع الشعراء الى امتداحهم بشتى الوسائل ، فعمدوا الى المكافآت المادية تارة ، والمكافآت المعنوية تارة اخرى . كما عمدوا الى الظهور بمظاهر العظمة والبطولة وتجاوز العادي والمألوف من أحوال البشر ليثيروا قرائح الشعراء فينظموا فيهم المدائح .

والذي جعل سادة القوم يتعلقون بالمديح ، ويسعون الى اجتذابه نحوهم ، ما كان للشعر عند العرب الجاهليين من أهمية ، وما كان للشعراء من مقام رفيع وكلمة مسموعة ، بحيث اذا قال الواحد منهم قولاً حفظوه عنه ، ورواه بعضهم لبعض .

وكثيراً ما كانوا يأخذون بقول الشاعر ويصدقون كلامه في شخص من الاشخاص ، خصوصاً اذا كان عنه بعيد النسب .

والذي يلاحظ كذلك أن بيت المديح ، أو بيت الهجاء ، اذا جاء على قسط من الروعة في معناه ، ومن الإحكام في سبكه ،

سار على كل لسان وشفة ، وردّده الكبار والصغار ، والنساء والرجال ، والعبيد والأحرار ، والقريب والبعيد ، فينجم عن ذلك شهرة يصيبها المادح ويصيبها الممدوح في آن معاً .

وقد يلحق الممدوح من جراء ذلك بطبقة العظماء ، ولو كان هو في الأصل وضيعاً كما جرى للمحلق ، ولبني أنف الناقة في الجاهلية ، وقد يهجى العظيم بشعر جيد يتناقله الناس ، فيحطّم تحطيماً ، كما فعل جرير بالراعي النميري ، وببني نمير جميعاً حتى اضطرهم الى تغيير أسمائهم والى الانتساب لغير قبيلتهم بعد ان قال فيها .

أنا البازي المدلُّ على نُميرٍ أُتحتُ من السماء لها انصبابا
فلا صلى الإله على نمير ولا سُقيتْ قبورهم السحابا
ولو وزنت حُلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا
فصبراً يا تيوس بني نمير فان الحرب موقدة شهابا
فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا .

هذا ، ولا يجوز أن نغفل عاملاً مهماً من عوامل انتشار المديح في بلاد العرب ، خلال الفترة الجاهلية ، هو المؤسسات الاجتماعية الصحراوية؛ ونعني بصورة خاصة منها مؤسسة الضيافة والثأر والنجدة . فلقد كان من طبيعة العيش في أرض الجزيرة أن يكثر الفقر ، وأن يتعرض البدو بنوع أخص ، لأزمات اقتصادية بسبب اعتمادهم على الطبيعة وأمطارها ونباتها. لذلك كان المعسر يقصد الموسر ، طالباً منه مساعدته .

ولم يكن أصحاب اليسار ليمتنعوا عن الاغاثة ، لا لأنهم كرماء فحسب ، فقد يكونون مضطرين الى فعل ذلك عملاً بقانون الصحراء . ولكن لأنهم معرضون أيضاً لأن تحل بهم الفاقة يوماً ؛ وعند ذلك لا بد لهم من طلاب المعونة من غيرهم . فما لم تكن لهم أيد على الآخرين فلن يلقوا ما يردّ عنهم خطوب الزمان . من هنا كانت مؤسسة الضيافة عند العرب ، وكان إكبارهم للكرم والكرماء .

هذا ، اذا كانت الفاقة فردية . أما اذا كانت جماعية ، فالطريقة الوحيدة لردّها هي الغزو الجماعي ، أو الترحال الى آفاق خصبة المرعى وفيرة الماء .

واذا كان لكل شعب من الشعوب عادة يعرف بها أكثر من سواه ، فالعرب يعرفون بالضيافة والكرم . اكثر مما يعرف بهما اي شعب في العالم . ولقد غالى قوم منهم في الجود وبسطة الكف حتى أصبحوا مضرباً للمثل ، وغدت أعمالهم كأنها اساطير ، وما حاتم الطائي ببعيد وما من عربي يجهل ذكره . ومثله هرم بن سنان وكعب بن مامة الإيادي الذي بلغ به الكرم مبلغاً جعله يجود بنفسه ليؤثر رفيقه بالماء في المفازة .

والمشهور عن حاتم ، أنه كان اذا اشتد البرد ، أمر غلامه بأن يوقد ناراً في يفاع من الارض لينظر اليها من ضلّ الطريق ، وهو يقول له :

أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا واقد ريح صرّ
عسى يرى نارك من يمرّ إنْ جَلَبَتْ ضيفاً فأنت حر

قالوا : ولم يكن حاتم ليمسك غير سلاحه وفرسه ، ثم جاد بفرسه في سنة أزمة .

قالت النوّار ، امرأة حاتم : «أصابتنا سنة اقشعرت لها الارض واغبرّ افق السماء ، وضنّت المراضع عن أولادها ، لا تبضّ بقطرة ، وايقنّا بالهلاك . فوالله ، اني لفي ليلة صُنَّبرة ، بعيدة ما بين الطرفين ، اذ تضاغى صبيتنا جوعاً : عبدالله وعدي وسفانة ؛ فقام حاتم الى الصبيين ، وقمت الى الصبيّة فوالله ما سكتوا الا بعد هدأة من الليل ؛ وأقبل يعلّلني ، فعرفت ما يريد ؛ فتناومت ؛ فلما تهوّرت النجوم ، اذا بشيء قد رفع كسر البيت . فقلت : من هذا؟ فولّى . ثم عاد آخر الليل . فقال حاتم : من هذا ؟ فقالت جارتك فلانة ؛ أتتك من عند صبية يتعاوون عوى الذئاب ؛ فما وجدت معوّلاً إلاّ عليك أبا عدي ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت المرأة تحمل اثنين ، ويمشي بجانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها . فقام الى فرسه ، فوجأ لبّته بمدية فخرّ . ثم كشط عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، وقال : شأنك . فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل . ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول : هبوا ، عليكم بالنار والتفع بثوبه ناحية ينظر الينا . لا والله إن ذاق منه مضغة ، وإنه لأحوج اليه منا ، فأصبحنا ، وما في الأرض إلاّ عظم أو حافر . »

وغير خفي ما في هذه القصة من تصوير لمفهوم الجود عند العرب ، حتى ان الواحد منهم ليجعل الناس شركاء له في ماله عند اشتداد الخطوب . إزاء هذي التصرفات ، لم يكن بد من

ظهور الثناء وانتشار فن المديح الذي يخلد ما فيها من أعمال عظيمة .

ومما يلفت النظر في هذه الظاهرة ، أن أجواد العرب كانوا في تنافس وتبار . وكان الواحد منهم حريصاً على أن يظل هو رأس الكرم ، وأن يكون حديث الناس . وكأننا بالمديح ليس سوى اعتراف بجميل قد أوليه الشاعر ، أو أداء لواجب لزمه بعد أن غمرته نعمة الممدوح . جـــاء في نهاية الأرب ، ان والد حاتم الطائي ، قد بعثــه ذات يوم مع الإبــل ووهب له جارية وفرساً وفلوهـــا . فذهب . وبينا هو كذلك ، إذ بصر بركب على الطريق ، فأتاهم ، فقــالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال : تسألونــني عن القرى وقد ترون الإبل . وكان الذين بصر بهم : عبيد بن الابرص وبشر بن أبي خــازم ، والنابغة الذبياني . وكانوا يريــدون النعمان . فنحر لهم ثلاثة من الإبل فقال عبيد : انما أردنا اللبن ، وكانت تكفينا بكرة أن كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً . فقال حاتم : قد عرفت . ولكن رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة . فظننت أن البلد غـــير واحد ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه . فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضـــله . فقال حاتم : أردت ان أحسن اليكم فصار لكم الفضل عليّ . واني أعاهــد الله أن أضرب عراقيب أبلي عن آخرها او تقدموا اليها فتقسموها . ففعلوا فأصاب كل واحد تسعةً وثلاثين بعيراً ، ومضوا على سفرهم الى النعمان . وان أبا حاتم سمع بما فعل؛ فقال : أين الإبل ؟ فقال

يا أبت ، طوقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثني به علينا عوضاً من إبلك . فعندما سمع أبوه ذلك قال : أبإبلي فعلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : والله لا أساكنك ابداً . فخرج أبوه بأهله ، وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوه . قال : فبينما حاتم يوماً نائم ؛ اذ انتبه وحوله مئتي بعير ، تجول وتحطم بعضها بعضاً . فساقها الى قومه ؛ فقالوا يا حاتم أبق على نفسك فقد رزقت مالاً ولا تعودن الى ما كنت فيه من الاسراف . قال : فانها نهب بينكم . فانتهبت .

ثم اقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتماً فقالوا له : إنا تركنا قومنا يثنون عليك خيراً . وقد أرسلوا اليك برسالة ، قال وما هي ؟ فأنشده الأسديون شعراً لعبيد ، وأنشده الليثيون شعراً للنابغة . ثم قالوا : إنا لنستحي ان نسألك شيئاً ، وان لنا حاجة . قال وما هي ؟ قالوا : صاحب لنا راجل . فقال حاتم خذوا فرسي هذه ،فأحملوا عليها صاحبكم فأخذوها ، وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت فاتّبعته الجارية لتردّه فقال حاتم : ما لحقكم من شيء فهو لكم . فذهبوا بالفرس والفلو والجارية . »

اذا أمعنّا النظر في هذه القصة ــ سواء صحت او لم تصحّ ــ نستنتج الأمور الآتية :

١ ــ ان القرى شيء منتشر في بلاد العرب ، وانه مؤسسة

اجتماعية على جانب كبير من خطر الشأن .

٢ - ان الشعراء كانوا يردون الجميل بشعر يمدحون فيه صاحب الجميل .

٣ - ان الشعر كان ذا أهمية كبرى عند العرب ، اذا أثنى على أنسان رفعه .

٤ - ان الشعر كان يحفظ ويروى ويتناشده عامة الناس .

٥ - ان الاجواد لم يكونوا يتحرجون من الاشادة بهم ، بل كانوا يسعون الى حسن الاحدوثة ، وكان الواحد منهم يحب ان يستعيض عن ماله ثناء حسناً بين القبائل . وقد اعتبر حاتم ان بيتاً من الشعر يثنى فيه عليه وعلى أبيه لأفضل من مئات الابل .

٦ - ان في مؤسسة الكرم لدى العرب الجاهليين نزعة اشتراكية بحيث لم يكن الواحد منهم يتحرج من أن يجود بكل ما عنده ، فيوزعه على المعوزين اعتباراً منه انهم في حاجة آنية اليه ، وان من الافضل عدم تجميده ، وما دام الانسان يعمل ، أو ما دام ذا أيد على الناس ، فليطمئن الى أنه لن يموت جوعاً . من هنا كان حاتم لا يبقي على شيء عنده ، ولا يخشى أن تغدر به الأيام .

هذا ما يختص بالجود وقرى الاضياف . وهو الى ذلك جزء قليل من سلسلة اعتبارات معنوية كان العرب يقيمون لها وزناً كثيراً ،من أبرز تلك الاعتبارات المروءة وما تشتمل عليه من

شجاعة وحمية ونجدة للمستغيث ، وحماية للجـــار ، وذود عن العرض ، ودفع للعار ، وأخذ بالثأر ، ومنها الحلم ، والصبر على الشدائد ، ونصرة الحق ، والعفة والاباء ، وغير ذلك مما كان الشعراء ينفعلون به ، ولا سيما اذا كان يخصهم في شيء ، فيندفعون الى المديـح اكباراً لاصحاب الفضائل وإقراراً بمعروفهم .

# المديح مدرسة اخلاقية

إذا كان فن المديح معاينة للفضيلة ، وذكراً للمحاسن ، وتمجيداً للبطولة وتغنّياً بالمآتي العظام ، فأحرى به أن يكون مدرسة اخلاقية يتخرج فيها الناشئة على الشجاعة والكرم والاباء والانفة وحب المجد ، والطموح الى المعالي ، والعدل والحلم والمروءة وغير ذلك مما يصحّ أن يمتدح به العظماء من رجالات القوم .

والذي لا ريب فيه ، أن الشعراء الذين يعلقون الاهمية الكبرى على مثل هذه الصفات ، لا يمكن أن يكونوا شاذين في ذلك عن الرأي العام السائد في مجتمعاتهم ؛ ولا يمكنهم أن يمتدحوا امرءاً إلا بما تواطأ الناس على اعتباره فضيلة ومظهراً من مظاهر العظمة .

والذي لا ريب فيه كذلك ، أن إقدام الشعراء على مثل هذا العمل يشكل مساهمة فعّالة من جانبهم في بلورة المثل العليا وحض الناس على الاتجاه نحوها ، وتشجيعهم على احتمال كل ما

تتطلبه من عناء وشدة وصبر وحزم . وهم عندما يسمون ممدوحاً ينسبون اليه مثل هذه الفضائل ، إنما يجعلونه مثـــلا يحتذى ، ويقدمون الى الآخرين برهاناً محسوساً على صدق ما يذهبون اليه؛ كما أنهم يدفعون بطريقة غير مباشرة ، ومـــن باب حبّ التشبّه بأصحاب العظمة ، كل من في نفسه شيء مـــن طموح وغـــرام بالفضيلة ، الى ان يعمل على بلوغ مراتب الشرف والمجد ، واللحاق بركب المشاهير من اهلها .

ناهيك بأن شعر المديح ، حين يلح على ذكر المحاسن ويفتنّ في تصويرها ، إنما يصور المثل الاعلى في القوم ، ويعرض نماذج من الرجل الكامل الذي تكونت مزاياه بفعل الحياة الاجتماعيـــة والخلقية ، وتبعاً لذوق الناس ، وعاداتهم وتقاليدهم وألوان تفكيرهم ، ومثلهم العليا وغاياتهم في الوجود .

وغير خفي أن لكل عصر نموذجاً من الرجل الذي يعتبره القوم كاملاً . وفي هذا النموذج تتمثل حضارة القوم ومدى رقيهم العقلي والفني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ومـــا الى ذلك من مظاهر العيش ، وبموجبه يربي الناس أبناءهم ، وعلى خطاه يسيرون ليجعلوا منهم أشباهاً لذلك الشخص الذي جمع في ذاته فضائل قومه ، وأضحى مضرب المثل بينهم .

من هنا كان شعر المديح ذا فوائد تاريخية جمـــة تضاف الى فوائده الفنية ، فهو علاوة على ما يحتويه مـــن روعة التصوير وجمال التعبير ، ورهافة الحسّ ، وعمق الشعور ، وسعة الخيال ، وإثارة العواطف وتحريك الوجدان ، وإقامة المشاركة بين الشاعر

وبين من يقرأ شعره أو يسمعه ، فانه يطلعنا على أساليب العيش لدى القوم ، وعلى عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم العامة ، ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كما يطلعنا على أخبار العظماء وأعمالهم ، ويؤرخ للأحداث الكبرى التي اشترك فيهـــا هؤلاء العظماء ، فهو من هذا القبيل ، صورة للعصر ، يشبع في نفوسنا توقها الى الاطلاع على ما كان في العصور الغابرة ، ومعرفة أحوال القوم ، وطرق تفكيرهم ، واتجاهاتهم في الحياة . وسوف يتضح لنا ذلك حين نعرض لمدائح الشعراء في مختلف العصور ، ونربط بينها وبين أحداث الحياة .

# معاني المدح

جاء في عمدة ابن رشيق [1] وفي نقد الشعر لقدامة بن جعفر [2] «ان الفضائل التي يمتدح بها الناس من حيث هم ناس، لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات، على ما عليه أهل الالباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي أربع: العقل والعفـّة والعدل والشجاعة.» ولكل من هذه الفضائل الرئيسية فروع ثانوية تتفرع عنها.

«فثقابة المعرفة والبيان والسياسة والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري هذا المجرى إنما هي داخلة في باب العقل.

والقناعة، وقلة الشهوة وطهارة الإزار، داخلة في باب العفـّة.

والحماية والأخذ بالثأر، والدفع عن الجار، والنكاية في العدو، وقتل الأقران والمهابة، والسير في المهامه والقفار

---

١ — ص ١٠٤.

٢ — ص ٣١.

الموحشة ، وما شاكل هذا ، هو من أقسام الشجاعة .

والسماحة ، والتغابن والانظلام ، والتبرع بالنائل ، والاجابة للسائل ، وقرى الأضياف ، وما جانس هذه الأشياء ، هي من أقسام العدل . »

هذه هي الفضائل البسيطة ؛ ولقد نظر النقاد في فضائل أخرى مركبة من هذه ؛ جمعها قدامة في ست [1] . قال :

« يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، الصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد .

وعن تركيب العقل مع السخاء ، البرّ وإنجاز الوعد ، وما أشبه ذلك وعن تركيب العقل مع العفّة ، التنزّه والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك .

وعن تركيب الشجاعة مع السخاء ، الإتلاف والإخلاف وما جانس ذلك .

وعن تركيب الشجاعة مع العفّة ، إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم . وعن تركيب السخاء مع العفّة ، الاسعاف بالقوت ، والايثار على النفس .

وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع المتقدم ذكرها ، وسط بين طرفين مذمومين . » ا . هـ

والذي يرسل نظره في هذه الفضائل ، متفحصاً مصادرها ، مميزاً أنواعها ، يتبين انها نابعة من صميم الحياة العربية الأصيلة ، وانها

---

١ — نقد الشعر ص ٣٢ .

مجموعة ما يميز الشخصية العربية من سواها ، وما كان يشترطه العرب في شيخ القبيلة من مزايا عقلية وخلقية .

أضف انها جميعاً صفات وليدة العصامية والسلوك الشخصي ليس فيها ما يرثه المرء أو مـا يكسبه عن غير إرادة منه وعزم واع وسعي مبني على تصميم وتصوّر سابـق . هي حقـّاً مزايا الرجولة الصحيحة، ومقياس العظمة ، وهي كلها فضائل معنوية، ترتبط بدخائـل النفس ، ولا تتصل بالمظهر الخارجي في كثير أو قليل .

ومن الملاحظ أن الناقد قد استبعد الغنى والجاه من الفضائل التي يصح أن يمتدح بها الانسان ، مهما يكن هذا الغنى متسعاً ، ومهما يكن الجاه عريضاً؛كما استبعد نبل الأصل وشرف النسب ، في الوقت الذي كان الناس أثناءه يقيمون وزناً كبيراً لهذه المظاهر. والحق أنها نظرة واعية صادقة الى مقاييس العظمة، هذه العظمة التي ينبغي أن تستمد من أعمال الانسان ومن ذاته ، لا من أبيه وجده وأمه ، وابناء عشيرته. فما قيمة امرىء كان أهله أشرافاً، فاضحى هو موطناً للخسة ، ومستقراً للغضاضة ؟ رحم الله أبا الطيب المتنبي حين قال :

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الى جـد همام

أما كثرة المال فليست بصانعة في يوم من الأيام رجلاً . قد تساعد المرء على كسب الثنـاء ، ولكنها لن تكون بحد ذاتها موضوعاً لهذا الثناء . والحري أن يفهم من امتـداح الشخص

بكثرة المال، وسعة الثراء، تجريد هذا المرء من الفضائل المعنوية، وهجاؤه في معرض الثناء عليه وما شعر طرفة ببعيد حين هجا صهره بسعة غناه فقال :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما

وما قيل عن الغنى وعن المجد الموروث يمكن ان يقال عن جمال الطلعة ووسامة الخلق. مع أن هنالك شعراء كثيرين تفننوا بجمال ممدوحيهم المادي ، ومحاسن وجوههم . والعبرة في عدم امتداح الشخص بجمال هيئته ، هي كون الرجولة لا تستمد من الخلقة بمثل ما تستمد من الخُلُق .وان الفضائل المعنوية كثيراً ما تغطي على الفضائل المادية فتحجبها . وبعد ، فالنعومة والرقة وجمال الوجوه صفات أقرب الى الطبيعة النسوية والى التخنث منها الى الرجولة المكتملة .

وقد يتغاضى عن امتداح الرجل بجلال المظهر ، وهيبة الشخصية المادية . ولكن لا يجوز أن يتغاضى أبداً عن امتداحه بما هو من محاسن النساء وخصائص طبيعتهن ، والا انقلب المديح الى تغزّل ، وفي ذلك ما فيه من سوء نوايا المادحين .

والذي ينبغي ذكره هنا ان الشاعر لا يجوز له امتداح الناس بما ليس فيهم ، أو على الأصح بما هم مشهورون بنقيضه . وإلا تحول المديح الى نوع من السخرية والهجاء . ومثل ذلك التجاوز بالممدوح الى ما هو منه بعيد . قال ابن رشيق : « واذا كان الممدوح ملكاً لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب؛ وذلك محمود ، وسواه المذموم . وان كان سوقة فاياك والتجاوز

به خطته ، فإنه من تجاوز خطته، كان كمن نقصه منها. وكذلك لا يجب ان يقصر عما يستحق ، ولا ان يعطيه صفة غـــيره ، فيصف الكاتب بالشجاعة ، والقاضي بالحمية والمهابة ... ولا يجوز أن يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء وإن كان فضيلة . وذلك مثل قول البحتري يمدح المعتز بالله :

لا العذل يردعه ولا التعنيف عن كرم يصدّه .

فمن ذا يعنف الخليفة على الكرم ويصده . هذا بالهجاء أولى منه بالمدح. وعِيب على الأخطل قوله في مدح عبد الملك بن مروان:

وقد جعل الله الخلافة منهم لأبيض لا عاري الخوان ولا جدب

وقالوا : لو مدح بها حرسيّاً لعبد الملك لكان قد قصر به . والذي يقصد من ذلك أن يراعي المادح احوال الممدوح ، وأن يجعل لكل مقام مقالاً ، فيخيط الأثواب على قـــدر لابسيها ، بحيث لا يكون في كلامـــه إفراط ولا تفريط .

# التكسب بالمديح

ذكرنا في كلامنا السابق أن المديح في شعر العرب إنما نشأ إعجاباً بالفضيلة وثناء على صاحبها . وان الغاية منه لم تكن في البدء سوى غاية خلقية، تتمثل في توق الانسان الى الحياة الفضلى، وبلوغ ما ارتسمه من مثل أعلى له ، وحث الآخرين على التحلي بما يراه صفات خيّرة . واكبر الظن ان المادحين الأولين ، كانوا يرون امتداح العظماء نوعاً من الواجب الأدبي نحوهم ، واعترافاً بفضلهم ، نظراً لما قدموه من خدمات بين ايدي قبائلهم . واذا لم يكن الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون إذاً وليد شعور داخلي من لدن الشاعر بضرورة الاقتراب من الأعمال العظيمة التي يحققها الممدوح ، وذلك من اجل إقامة اتصال بين الشاعر وبينها لأنها تنقصه ، ولانه يشعر بحاجته الى سد هذا النقص . فمنطقه النفساني يحمله على الاشادة بالفضائل وبأصحابها ، ليظهر امام الناس بأنه هو متصف بها أيضاً ، أو على الاقل ، هو يسعى اليها ويرجو ان يكون له مثلها في يوم من الايام . فالرغبة في التشبه

بالعظماء قد تكون باعثاً على المديح . وهي في هذه الحال ، كما هي في الحال الاولى ، رغبة صادقة تشع على فن المديح ، فتبعث فيه حرارتها ، حتى لا تقتصر على المشاركة بين المادح والممدوح ، بل تتعداهما الى القارىء ايضاً ، وهذا هو سر خلودها أو يكاد .

من هنا يتضح لنا ان الباعث على المديح هو في الاساس باعث داخلي معنوي سامي الغاية . ولكن انحراف رهط من الشعراء ، ورهط من الممدوحين قو تحوّل بهذا الشعر نحو الكسب ، وجعله نوعاً من التجارة الرخيصة بحيث لعب هؤلاء الاشخاص أخطر دور في تقرير مصير الشعر العربي . قال ابن رشيق : « كانت العرب لا تتكسب بالشعر وانما يصنع احدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على اداء حقها الا بالشكر اعظاماً لها . » .

فالظاهر من كلام هذا الرجل ، ان المديح إذا غشيه النفع المادي فانما يكون هذا النفع سابقاً له . فهو إذن اعتراف بجميل وليس استدراراً لاحسان أو تزلفاً أو ملقاً ، فالاريحية هي التي تبعثه ، من غير ان يكون هو باعثاً على اريحية مصطنعة .

والظاهر كذلك ، ان قيمة الشعر المادح لم تكن تقدر بالعطية المادية ، وان المديح كان يقال في المواطن التي لا تستطيع الماديات ان تفيها حقها ، فإعظاماً للأيدي البيضاء وامعاناً في شكرها وتقديرها ، واعتباراً بأنها أكبر من ان تكافأ بمكافأة مادية ، كان الشاعر العربي يعمد الى امتداح صاحبها من غير ان يبتغي جزاء أو معروفاً . على نحو ما قال السعد بن الضباب :

سأجزيك الذي دافعت عني وما يجزيك عني غير شكري

ولقد مر بنا كيف أن بيت الشعر كان الناس يأخذون به ، ويتناقلونه فيرفع قوماً اذا مدحهم ويخفضهم اذا هجاهم . قال امرؤ القيس يمدح بني تيم قوم المعلى ، الذي احسن اليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بني ابيه :

أقر حشا امريء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

فقيل لبني تيم «مصابيح الظلام» منذ ذلك اليوم لبيت امرىء القيس . اما كيف تحول الشعر الى أداة للتكسب ، فأكبر الظن أن هذا التحول لم يحدث في فترة وجيزة ، ولم يكن معقولاً ان ينقلب امره انقلاباً مفاجئاً من معلول الى علة . فبعد ان كان إعظاماً من أجل الإعظام ، او اعظاماً من اجل الشكر وعرفان الجميل ، لذّ لجماعة من الممدوحين ان يُقال فيهم ما يرضي كبرياءهم وما يرضي غرورهم ويستجيب لنزوات الأنانية لديهم . فأعجبوا بالثناء وطاب لهم ان يسمعوه كل يوم فعمدوا الى الاعطيات يقدمونها للشعراء بكثرة حاثّين قرائحهم على قول الشعر والتغني بأعمال الممدوح .

والراجح عندنا أن الدافع الأبرز الذي حدا بالعظماء الى استخدام الشعر هو دافع سياسي قبل كل شيء ، يشهد مرة اخرى على أن السياسة ما داخلت شيئاً الا أفسدته . فرجال السياسة لهم دائماً من يناصرهم ولهم من يعاديهم . وهم في حرص شديد على الاحتفاظ بالمناصرين ، وعلى اكتساب المعادين . واذا لم يتيسر لهم اكتسابهم في جانبهم ، عمدوا الى إيذائهم والكيد

لهم . وفي كل حال يبتغون الظهور امام الجموع بمظاهر العظمة والكرم والعدل والحكمة والمروءة وما الى ذلك من صفات يكبرها الانسان ويكبر اصحابها ، غايتهم من ذلك أن تكون لهم امتيازات على القوم ، وان يُقَرّ لهم بالزعامة . ولقد شعر زعماء العرب بأهمية الشعر في ارضهم ، وادركوا إقبال الناس على حفظه وعلى قرضه ، كما التفتوا الى مكانة الشاعر في قومه ، يوم كان الذائد عن قبيلته ، الناطق باسمها ، الممثل لها ، الامين على مصالحها ، يرعاها ويرعى احلافها بعين ساهرة ، ويعمل على حل مشكلاتها ، وينوب عنها لدى الملوك وغير الملوك ، ويهاجم اعداءها مهاجمات عنيفة ، ويحبط اقوالهم ، ويرد حججهم ، ويكشف عن عيوبهم ليمسخهم في أعين الآخرين . لهذا كان الشاعر محترم الجانب ، عزيزاً في قومه ، اذا قال قولاً كان لهذا القول قيمة .

استغلالاً لهذه القيمة اعتمد رجال السياسة على الشعراء في بلوغ مآربهم ، فسخروهم لها ، واشتروا اقوالهم وضمائرهم ايضاً بأعطيات جزيلة ، وذاق الشعراء حلاوة العطاء ، فشغلتهم عن كل شيء آخر ، وهان في اعينهم أن يثني الواحد منهم على امير من الأمراء ببضعة ابيات من الشعر ليتقاضى لقاءها مبلغاً من المال يسد به حاجات كثيرة . ويزعم المؤرخون أن اول شاعر عربي كرّس الشعر للتكسب هو النابغة الذبياني . فابن رشيق يقول : «كانت العرب لا تتكسب بالشعر ... حتى نشأ النابغة الذبياني ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان

ابن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع بمن حوله من عشيرته او من سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالاً جسيماً حتى كان اكله وشربه في صحاف من الذهب والفضة ، وأوانيه من عطاء الملوك» .

لن نناقش في هذا المقام ، صاحب كتاب العمدة في رأيه حول خضوع النابغة للملك النعمان ، وسقوط منزلته ، ولكننا نتساءل فقط عما اذا كان النابغة فعلاً هو اول من قبل الصلة من الملوك على الشعر . ألم يكن هنالك شعراء قبل النابغة يحيون في كنف الملوك ؟؟

على انه لا يسعنا الا" الاعتراف بأن النابغة الذبياني وهو واحد من شيوخ الشعراء المنظورين الذين كان يقتدى بهم ، قد أثر بمسلكه في الناشئين من اهل الشعر ، فمهّد لهم سبيل التكسب بعد ان اختطّه قوم من الاقدمين . والذي لا ريب فيه ان صغار الشعراء كانوا ينظرون الى النابغة وكأنه المثل الاعلى ، وكانوا يرون بأعينهم اعطيات الملوك له والتجلة التي كان يحاط بها ، فسال لعابهم على ما رأوه ، وراحوا يعملون جاهدين على بلوغ شيء مما بلغه النابغة . واكبر الظن ان عظمة النابغة هي التي جعلت النقاد يلقون على عاتقه تبعة الانحراف بالشعر نحو التكسب . بل إن هذه التهمة نفسها فيها بعض الدليل على مكانة النابغة واهميته في تاريخ الشعر العربي لانها تجعله استاذاً للأجيال التي عقبته .

ومهما يكن من امر ، فان التكسب بالمديح ظهر منذ

الجاهلية . فعرفه زهير، والمتلمس، وطرفة ، والأعشى ، والمنخل اليشكري ، والحطيئة ، ومن لف لفهم ؛ ولكن هؤلاء كانوا بجملهم على شيء من عفة النفس ، يغلب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر ، وقلة التعرض به لما في ايدي الناس ، إلا فيما لا يزري بقدر ولا مروءة، يفترق عنهم في ذلك الاعشى الذي قيل عنه إنه كان صريح السؤال في شعره ، شديد التكسب ، بلغ به حرصه على الكسب مبلغاً اصبح معه يجاعل الحاجب ، ويدس الندماء ، كي يذكروه لدى النعمان، ولما جاء الاسلام خفت الشعر بصورة عامة ، وخصوصاً فن المديح ، اللهم الا شعر الكافرين الذين أرادوا ايذاء محمد ، فاضطر محمد الى الرد عليهم بسلاح مماثل لسلاحهم ، فكان حسان بن ثابت شاعر النبي يهجو كل من يتعرض للنبي بأذية ، ويمدح محمداً ورسالته متغنياً بصفاته النبيلة ، مظهراً محاسن الدين الجديد، وما فيه من خير للناس وقضاء على الرذيلة.

ولكنها كلمة حق ، تلك التي قالها رسول الله « إذ ارأيتم المداحين فأحثوا في وجوههم التراب » والمقصود أولئك المخادعون الدجالون الذين كانوا يزورون الحقائق ، ويمدحون الناس بما ليس فيهم والمرجّح أن النبي ، وهو الداعية الى الصدق والفضيلة والتواضع وعزة النفس ، واكتساب الرزق بأشرف الطرق ، وابعدها عن المعصية ، لم يكن يحب المديح المبني على المبالغة والمداهنة أو المقول من اجل التكسب ، ولم يكن يحترم الشعراء المتكسبين كما أنه لم يكن يرضى من أمثال كعب بن زهير وحسان ابن ثابت والعباس بن عبد المطلب ، أن يمتدحوه الا بما هو

يتصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه من فضائل النفس ، او بما هو في صالح الدين ، وصالح الرسالة التي نذر محمد نفسه لأدائها .

فالمديح في نظر النبي مقبول ، ما دام يرمي الى غاية سامية ، وما دام لا ينجم عنه الا الخير . أما اذا تحول الى نفاق ، فأقل ما يستحقه المدّاح هو أن يحثى في وجهه التراب .

ولعل منزلة الشاعر المدّاح لم تنتظر ظهـــور الاسلام حتى تتدهور بل تدهورت قبل ذلك منذ الجاهلية ، وبصورة خاصة في أواخرها حتى أصبح الخطيب أعلى مقاماً من الشاعر ، بعد أن كان الشاعر أرفع مقاماً منه . يقول صاحب العمدة :

« كانـــ الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب ، لحاجتهم الى الشعر في تخليد المآثر وشدة العارضة وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته . فلما تكسبوا به ، وجعلوه طعمة ، وتولوا به الأعراض وتناولوها ، صارت الخطابة فوقه . وعلى هذا المنهاج كانوا ، حتى فشت فيهم الضراعـــة ، وتطعموا أموال الناس ، وجشعوا فخشعوا ، وأطمأنت بهم دار الذلة ، إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها حتى قبض نقي العرض مصون الوجه » .

اذا قلنا أن الشعر قد خفت في أيام النبي وأيام الراشدين ، فليس معنى ذلك انه قد زال من الوجود . فالمستعرض لتاريخ الشعر العربي يقع على أشعار غير قليلة نظمت في الاغراض الدينية

وفي الأغراض السياسية وخصوصاً مـــا كان في مدح الرسول . وجدير بالذكر أن محمداً كان يعوّل الى حد كبير على هذه الأشعار، ولعله كان يمد شعراءه ببعض معانيهم ، ولكن هل كان يدفع لهم الجوائز مقابل ذلك ؟

كلا ، لم يكن أولئك الشعراء ليقولوا شعرهم بدافع التكسب بل كانوا ينظمونه بدافع من إيمانهم الوثيـق ، ويعتبرون أن من واجبهم إتيان ذلك . والذي لا ريب فيه أن المتكسبين في زمن النبي وخلفائه الراشدين كانوا محتقرين من القوم ، وأن المفهـــوم الشائع بينهم يذهب الى أن قيمة الشعر هي قيمة معنوية لا يجوز أن تقدر بالمال . فبيت الشعر لدى عمر بن الخطاب أعظم من أن توازيه جائزة مالية . يدلك على ذلـك ما ذكر عنه من أنه لقي ذات يوم ابنة الشاعر زهير بن أبي سلمى ، فسألها ، ما فعلت بحلل هرم بن سنان التي كساها أباك؟ فقالت : لقد أبلاها الدهر قال : لكن ما كساه أبوك هرماً لم يبله الدهر .

وفي ذات يوم قال عمر لبعض ولد هرم : أنشدني مـــا قال فيكم زهير ، فأنشده فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنا كنـا نعطيه فنجزل . قال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

ومما ينبغي الالتفات اليه ، أن الفرق بعيد بين صلة يصل بها الاشراف والامراء والحكام ذوي الفضل والعلم والادب، اعترافاً بفضلهم وتقديراً لمواهبهم ، وبين جائزة تكون ثمناً لشعر كاذب،

ليس لها من مبرر سوى أن الشاعر قد مدح صاحب العطية من غير أن يكون بينهما أية علاقة من صداقة أو تعاون أو برّ أو غير ذلك .

« فعبدالله بن عمر على جلالته ، والحسن البصري ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدني وجملةمن اهل العلم غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوك . وقد سئل عثمان بن عفان عن مال السلطان فقال : لحم طير زكي . والشعراء في قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين وأهل الفتيا لما جرت به العادة قبل الاسلام وبعده » .

ما إن ولّى عهد الراشدين ، حتى عادت الخصومات بين العرب الى شبه ما كانت عليه في الجاهلية . فاذا هنالك احزاب أربعة تتحارب على صعيد السيف وعلى صعيد اللسان . وقد يكون لحروب اللسان أثر اشد خطراً من حروب الدم ، على نحو ما جاء في قول الشاعر :

جراحات السنان لها التئام وما يلتام ما جرح اللسان

وكان لكل حزب شعراء ينطقون باسمه ويمدحون زعماءه ، ويروّجون لسياستهم ، ويهجون خصومه ويفندون مزاعمهم .

بفعل هذه الاحداث تحوّل المديح من جديد الى اداة للتكسب ، وخاصة على ايدي الخلفاء الأمويين وعلى أيدي الشعراء الذين كان البلاط في بلاد الشام يجذبهم اليه بسخائه ودهاء ساكنيه وحنكتهم السياسية ، فينسابون نحوه من بلاد العراق

ومن ارض الجزيرة العربية ، ومن تخوم الشام .

ولقد كان الأمويون يصطنعون شعراء خاصين بهم ، يقفون شعرهم على السياسة الأموية ويخدمونها بكل اخلاص كالأخطل التغلبي وأبي العباس الأعمى . وكانوا ايضاً يشترون اشعاراً اضافية من جرير ومن الفرزدق ومن راعي الإبل ومن لف لفهم من شعراء العصر ، وذلك كي يتسع امامهم مجال تأليف القلوب ، وإضعاف المعارضة ، وإشاعة الطمأنينة والاستقرار في نفوس الناس جميعاً.

ولقد طاب ذلك للشعراء فسعوا الى اغتنام الفرص ، وراحوا يريقون ماء الوجه في سبيل الحصول على الجوائز ؛ ولم يكن بد حينئذ من ان تؤدي هذه الظواهر الى نتائج سيئة في حياة الأدب العربي ، فأعقمت عبقريات الشعراء ، وحددت من انطلاقهم وقيدت الشعر بقيود لم يستطع ان يتخلص منها طوال ازمنته . ونشأ عن ذلك ايضاً أن عاش الشعراء أيامهم على هامش الحياة ، عيشة الطفيليات على جذوع النبات واوراقه ، يرددون معاني كادت أن تكون رواسم ، ويتجهون جميعاً نحو طريق واحد ضيق ، يتزاحمون فيه ويتمرغون في غباره واوحاله ، يتسكعون على ابواب أولي الأمر ، ويستعملون الرياء والكذب والمبالغات التي تتجاوز حد المعقول ، فتخدش الذوق الفني ، وتصفع الاخلاص والفضيلة صفعاً قوياً ، وتمسخ مواقف الثناء مهزلة اخلاقية وانسانية مؤلمة .

وليت الامر قد وقف عند هذا الحد ، ذلك ان رهطاً من

الشعراء قد جعلوا المال غايتهم أينما وجد هذا المال وبأية طريقة اكتسب.

فلم يعد هنالك من تفريق بين أشراف وسوقة . ولم يعد يعني المادحين ان يكون الممدوح فاضلاً او غير فاضل . بل جل مناهم أن يجود عليهم بمال ينفقونه في قضاء حاجتهم ، او يبددونه في المواخير واسواق الخمر ، ومكانس الريب والفسق والفجور ، حتى جاء شعرهم مشبعاً بالرياء والمنافقة فكان لطخة في جبين الشعر العربي .

على ان جماعة من ذوي النفوس الكبيرة ، كانوا يشعرون بغضاضة المديح ، فيأنفون منه كجميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة وابن ميّادة ، والعباس بن الاحنف وآخرين كانوا يترفعون عن امتداح السوقة ، ويرون ان الأخذ ممن دون الملوك هو عار شنيع ، فضلاً عن العامة واطراف الناس .

قال ذو الرمة يهجو مروان بن أبي حفصة بأنه قبل الصلة من عامة الناس ويفتخر عليه بأنه لم يكن يقبل الا صلة الملك الاعظم وحده :

عطايا امير المؤمنين ولم تكن ... مقسمة من هؤلا وأو لائكا
وما نلت حتى شبت الا عطية ... تقوم بها مصرورة في ردائكا.

وعلى كل حال ، فان باب التكسب لم يقفل عند هذا الحد ، بل استمر الشعراء يبيعون شعرهم بيعاً رخيصاً ، حتى انزلقوا في مهاوي الحطّة . وفقد الشعر على ايديهم معانيه الانسانية السامية ، فضلوا سواء السبيل ، وانقلب الامر عندهم في المديح

الى عكس ما كان المديح قد نشأ من اجله ، ولم يعد هذا الشعر مدرسة اخلاقية كما عهدناه من قبل ، يتخرج فيهـــا الناشئة على حب الفضيلة والعـدل والتوق الى المثـــل العليا وانما اصبح وسيـلة من وسائل الدعاوة الفـــارغة ، ومسرحاً للنفـــاق والخسة وذل النفوس ، وعاملاً على التضليل ومشجعـــاً للفساد والظلم والفوضى . وبذلك فقد الشاعر مكانته كرجل عبقري ممتاز ، واصبح مضرباً للمثل في الصغار والقماءة ودناوة النفس ، كما فقد رسالته الاساسية التي يجب عليه ألاّ يفرّط بها مهما يكلفه ذلك . هذه الرسالة هي التي تجعله اميناً على القيم الانسانية حافظاً لها ، يرعى العدالة والفضيلة والحق بعين ساهرة وعـزم ثابت ، وحيثما رأى اعوجاجاً شعر ان من واجبه تقويمه ، وحيثما لمح ظلماً نصّب نفسه عدواً له ولصاحبه ، نصيراً لكل ما هو خـــيّر مستحب . ولعل التدهور الخلقي في الاعصر العباسية الاخيرة ، والانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، والركود الفكري وجمود القرائح ، هي التي ساعدت على مثل هذا التدهور في شعر المديح ، وحولته الى مبالغات فجة مستكرهة ، والى كذب صريح واضح ، وخداع يرضى به الممدوح تغطية لخداعه الاكبر ولجرائمه وآثامه التي كان يرتكبها .

انظر الى ابن هانىء كيف يمتدح الخليفة الفاطمي الذي سمى نفسه معزّاً لدين الله ، فبالغ في مديحه حتى جاوز الحدود المقبولة ، واضفى عليه من صفات النبي محمد ، بل من صفات الله ايضاً ما هو عنه بعيد كل البعد ، بحيث خدش الذوق ، وجرّح عزّة النفس ،

وتجنى على الانسانية .

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والاخبار

أما ترى في هذا المديح مسخاً للمعزّ ؟ كل شيء جاوز حده، انقلب الى ضده . لو قارن الناس بين ما كان عليه المعز في واقعه وبين ما نمته به ابن هانىء، لسخرو من الرجلين معاً. هم يسخرون من الممدوح لانه يرضى ان يقال فيه مثل ذلك ، ويزداد تهكمهم به لو رأوه يصدق ما قيل فيه ، وهناك الطامة الكبرى .

واما المادح فيسخرون منه ويذمونه لدناءته وصغر نفسه وتذلله امام الممدوح ، كما يسخرون منه لخداعه وتجنّيه على المكارم . وهل يضحي غريباً بعد ذلك ان يتحكم المعزّ برقاب الناس، وان ينفذ مآربه الدنيئة على حسابهم وعلى حساب كرامتهم ما دامت رعيته تفعل فعل ابن هانىء . ألا رحمك الله يا ابا الطيب لقولك الصادق الحكيم :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام .

فلو كان ابو العتاهية مثلاً ذا نفس أبية ؛ لما قال للفضل بن الربيع يوم أهداه ابو العتاهية نعلاً ، وارفقها بشعر مادح :

نعل بعثت بها لتلبسها تمشي بها قدم الى المجد
لو كان يصلح ان أشركها خدي جعلت شراكها خدي

ترى هل يرضى إنسان كريم بأن يجعل من خده نعلاً لممدوح ؟

تباً لهؤلاء الشعراء المتزلفين ، المتذللين . تباً لهم حين يكذبون وحين يصدقون ، وحين يسألون فيلحفون ويصرّحون بطلب المال ؛ كما فعل بشار بن برد إذ قال .

فان تعطني أفرغ عليك مدائحي          وان تأب لم يضرب على سداد
ركابي على حرف وقلبي مشيّع          ومالي بأرض الباخلين بلاد .

فهو يمدح الامير اذا أغدق الأمير عليه عطاءه ،أما اذا أقصر عن صلته ، فانه تاركه الى بلاد أخرى يجد فيها من يمن عليه . ولكن ماذا نقول لبشار سوى المثل العربي الشائع : « العتب على النظر » على الرغم من هذا فان بشاراً يظل ذا كرامة أمام الزعفراني الذي عبد ممدوحه وسجد له وجعله صنماً في آن معاً .

انت الذي دنت بالسجود له          حتى لقد قيل ربه صنم

انه حقاً لأمر مضحك مبك ، وشر المصيبة ما يضحك . أية قيمة فنية أدبية لمديح الصابىء في عضد الدولة :

صل يا ذا العلا لربك وانحر          كل ضد وشانيء لك أبتر
أنت أعلى من أن تكون أضاحيك          قروما من الجمال تعفر
بل قروماً من الملوك ذوي السؤدد          تيجانها أمامك تنثر .
كلما خر ساجداً لك رأس          منهم قال سيفك: الله اكبر .

أليس تجنيّاً على القرآن ، وكفراً بمعطياته ان يجعل عضد الدولة مكان النبي محمد ـ أليس تدنيساً للقرآن ان يستغل في المديح الكاذب .

وما قولك بهذه الأضحيات من الملوك ، يسجدون للممدوح فتفصل رؤوسهم عن أجسادهم باسم الله الاكبر ؟ كذب وتدجيل وتغاض عن سيئات الحكام والامراء والقواد ، أين نقد الملوك ، ومراقبة سياستهم وأعمالهم ؟ أين المشعل الذي وضع أمانة في عنق الشاعر ليشعله ويهدي به الأمة الى سواء السبيل ؟ كل هذا بيع في سوق الكساد لقاء مبلغ من المال لو وزن مقابل حرف لشال عليه الحرف في الميزان .

على أن رهطاً من الشعراء العباقرة حفظوا لنفوسهم كرامتها ، وللخلق النبيل قدره . فلم يتبذّلوا مثل هذا التبذل بل نظموا شعراً هو رغم تكسبهم به شريف ، عظيم القيمة ، فيه تفنن وإبداع وذوق وفيه معان انسانية وشمول ، ورقي بصناعة الحرف العربي . وهذا الشعر هو الذي نعلق عليه الاهمية في دراستنا لفن المديح .

# المديح في الجاهلية

كان المديح في العصر الجاهلي واحداً من الفنون الشعرية البارزة ، من غير أن يطغى على سائر الفنون ، وكان ذا ألوان متعددة ، تتراوح بين مدح الشاعر لزعماء قبيلته ، وفرسانها وسمحائها ، ومدحه لمن يصطنعه ويحسن اليه سواء أمدّه بمال او ساعده في مهمة ، أو أكرمه ، او من يصطنع قبيلته ، فينصرها على أعدائها، أو يهبها أرضاً أو ماء ، أو يصلح بينها وبين أعدائها فيحقن دماء شبانها ، او يؤوي قوماً منها ، ويحميهم ويؤمن لهم ما هم اليه محتاجون . ومن مدائح الجاهلية ، ما نظمه أصحابه في تمجيد الاحلاف الذين كانت قبائلهم تحرص على إبقاء التحالف بينها وبينهم ، وذلك دعماً لقوتها ، وتهديداً لاعدائها ، او تأميناً لجوانب هذه القبائل التي لو تصدع التحالف بينها وبينهم لجعلهم ذلك اعداء لها ولجرّ عليها الاذية . وقد يوجه المديح الى ملك من الملوك او زعيم من الزعماء ، رجاء اكتسابه في جانب قبيلة الشاعر ، او رجاء الافراج عن جماعة من قبيلته قبض عليهم لذنب قد أتوه ، فكان المديح شفاعة لهم .

وقد ينظم الشاعر أبياتاً يمدح بها رجلاً غريباً عنه إذا رأى في هذا الرجل ما هو جدير بالاكبار كعمل من اعمال المروءة ، او سخاء او شجاعة او حكمة او غير ذلك .

على أن هنالك جانباً من جوانب المديح قد أصبح أبرز من سواه في الجاهلية ، هو مدح الملوك من غساسنة ومناذرة ومدح أجواد العرب . والذي غلب على هذا الجانب هو طابع التكسب. فكان الشعراء يقصدون البلاطات ويتصلون بأربابها فيمتدحونهم ويعظمونهم ويجعلونهم نهاية الكرم ونهاية النبل ونهاية النخوة والشجاعة ، كما يتحدثون عن سعة جاههم وشمول سلطتهم وعظمة أعمالهم وقوة جيوشهم ، وعن عدلهم وإذلالهم للاعداء وعن عيشهم المرفّه واخلاقهم الفاضلة وسعي الجموع في خدمتهم واكتساب رضاهم .

واذا كان الممدوح غير ملك ، وصفوه بما يتناسب ومقامه من غير أن يهملوا صفتين أساسيتين هما خلاصة المثل العليا في الجاهلية : المروءة والكرم .

وأكبر الظن ان المديح المتكسب جاء في الجاهلية نتيجة لتطور أصاب المجتمع الجاهلي ، وعلاقة الفرد بالآخرين في داخل قبيلته وفي خارجها .

ففي المرحلة التي كانت الروح القبلية فيها طاغية ، والتصرف الجماعي ابرز من التصرفات الفردية ، وتعلق الفرد بأبناء قبيلته ككل لا يتجزأ ، هو أساس في حياة هذا الفرد ، كان المديح بعيداً عن التكسب . لأن التكسب عمل ذاتي صرف ، والذاتية

في مثل هذه الظروف ضعيفة جداً بحيث يسخّر كل ما لدى الفرد من إمكان في خدمة المجموع ، ولهذا كان مجمل ما يملكه الفرد من طاقة شعرية ، تستنفده القبيلة ويقال في صالحها .

ومع الزمن ، كانت حياة الجاهليين تتطور ، وكان الشعور القبلي يضعف شيئاً فشيئاً بفعل التحضّر الذي شوهدت بوادره في مدن الحجاز ومدن اليمن ، وفي العراق وفي الشام حيث اخذ العربي يتهيأ لحياة أوسع نطاقاً من حياة القبيلة ، وأكثر اهتماماً بالفرد كفرد وأرحب مجالاً للذاتية . من هنا سمح للشاعر بأن يتحدث باسمه الخاص ، وبأن يصرف جانباً من اهتمامه الى حياته الشخصية من غير أن ينسى قبيلته نسياناً كلياً .

ولعل المرحلة الوسطى بين الشعور الجماعي والشعور الفردي ، أو بين المديح في خدمة القبيلة والمديح في خدمة الذات الفردية ، إنما يكمن في فن الفخر الذي هو بدء الشعور بالذات ، فمن الفخر بالقبيلة انتقل الشاعر الى الفخر بنفسه ثم الى استخدام المديح في أغراض نفسه .

وقد يكون تطـّلب الفرد المزيد من الحرية قد ساعده على بعض التفـّلت من قيود قبيلته . فوجد الشعراء أنفسهم أمام فن قد أتقنوه من قبل يوم كرسوه لخدمة القبيلة ، فلماذا لا يستخدمونه الآن في خدمة ذواتهم ؟

ولقد استغـّلوا المثل العليا في مجتمعهم والفضائل التي كان يقدسها هذا المجتمع والنظام الذي يسوده ، والعادات والتقاليد الشائعة فيه ، وظروف الامراء والملوك ، لكي يكسبوا بشعرهم

مالاً وفيراً ، وزادهم في ذلك ما كانت عليه الاحوال السياسية في بلاد العرب .

## كيف كانت تلك الاحوال السياسية ؟

من يرجع الى التاريخ الجاهلي ، يجد أن الارض العربية كانت تعرف آنذاك اربع دول هي : دولة اللخميين في الحيرة ، ودولة الغساسنة في الشام ، ودولة كندة في الحجاز ، ودولة التبابعة في اليمن .

أما الدوله اليمنية ، فكانت تمثل نزعة العرب الجنوبيين خير تمثيل ، من حيث عداؤها للاحباش ، ونقمتها على احتلالهم لجزء غير قليل من ارضها ، وكان من ابرزهم حسّان تبّع وذويزن وابنه الملك سيف . ولقد كانت الدولة البيزنطية تعطف على الحبش وتساعدهم على البقاء في بلاد اليمن . كما كانت دولة الفرس تعطف على التبابعة وتساعدهم على طرد الأحباش من ارضهم . ولكن الشعراء الذين حفظت آثارهم لم يكونوا يترددون كثيراً على بلاط اليمن وهم بعد في معظمهم من اهالي الشمال ، بحيث يندر أن تجد بينهم من يمتدح التبابعة في شعره . ولعل السبب في ذلك عائد الى اختلاف اللهجة بين الشماليين والجنوبيين من ناح ، والى العصبيات القحطانية والعدنانية التي كانت منتشرة بين العرب آنذاك من ناح ثان .

وأما دولة كندة ، فكانت تبسط نفوذها على عدد من القبائل الضاربة في بطاح نجد . ملوكها من اليمنيين الذين نزحوا الى

الحجاز بعد خراب السدّ .

ولقد كانت هذه الدولة مستقلّة بالمعنى الصحيح ، لا تخضع لنفوذ فارس ولا لنفوذ بيزنطي ولا لنفوذ حبشي . غير انها كانت ضعيفة بسبب فقرها وبسبب ما كانت تلقاه من عصيان القبائل التي تحكمها ، حتى ثارت قبيلة أسد وطوّحت بملكها حجر الكندي ، والد امريء القيس الشاعر بتحريض من المناذرة .

وعبثاً حاول امرؤ القيس أن يستعيد ملك أبيه لأن القبائل قد تكتلت ضده ، ولم يكن تكتلها نتيجة لتحريض اللخميين فحسب ، بل كانت نتيجة للحكم السيىء الذي كان لملوك كندة فيهم . ولما نفض يديه من المساعدات العربية اتجه نظره نحو القسطنطينية بإرشاد من الغساسنة علّ ملك بيزنطة يساعده على استرجاع ملكه لما كان للبيزنطيين من رغبة في اكتساب النفوذ بأرض العرب ، وسعي الى الاستيلاء عليها . ولكن امرأ القيس مات من غير ان يحقق امنيته .

أما شعراء المديح ، فلم يشتهر عنهم أنهم مدحوا ملوك كندة ، ولم يصلنا كثير من الأخبار عن هؤلاء الملوك ، إما لأن حكمهم لم يطل ، وإما لأن القبائل كانت تكرههم ، وإما لفقرهم وضعف نفوذهم ، او لعداء المناذرة لهم ، وجمعهم الشعراء في بلاط الحيرة لإبعادهم عن كل من يخاصمهم .

والحق ، أن الدولة التي كان لها التأثير الاعظم في توجيه الشعر العربي نحو المديح إنما هي دولة المناذرة . هذه الدولة أنشأها الفرس في العراق لغرضين :

أولهما حماية الممتلكات الفارسية في العراق من البدو القاطنين على تخومها ، ومن البيزنطيين المستقرين في بلاد الشام ؛ وثانيهما أنْ تكون هذه الدولة منطلقاً للتوسع الفارسي في بلاد العرب ، وعاملاً على توثيق العلاقات بين العرب والفرس . وقد جعلوا ملوكها من بني لخم ، وهم عرب يمانية قدموا العراق بعد خراب السدّ فاستقروا فيه . ولكثرة ما شاع بينهم اسم المنذر ، سمّوا بالمناذرة .

كان هؤلاء الملوك بطبيعة مراكزهم ، وبفعل الغاية التي من أجلها انشئت دولتهم ، يرغبون في توثيق علاقاتهم بجميع العرب ؛ ويودّون لو يحكمّون في جميع الشؤون العربية . لذلك حرصوا على حسن معاملة القبائل ، وخصوصاً تلك التي كانت تضرب بجوارها في شمالي شرقي الجزيرة . وقد عرفت دولتهم ملوكاً اقتبسوا نظام الحياة الفارسية وحافظوا على بعض التقاليد العربية المستحسنة ، وأحبوا أن يظهروا بمظهر الملوك العظام ، فعمدوا إلى الاغراق في الترف والوجاهة ، فكان ذلك يبهر أعين الشعراء .

ومما زاد هؤلاء الشعراء اتجاهاً نحو بلاد الحيرة ما سار عليه ملوكها من مسالك العظمة . فحشدوا الشعراء في بلاطاتهم ، ووظفوا لهم معاشات ضخمة ، فشجعوا بذلك الشعر عامة ، وخصوصاً شعر المديح المتكسب . ولقد عرف بلاطهم المنخّل اليشكري ، والمثقب العبدي ، والنابغة الذبياني والأعشى ، والمتلمس ، وطرفة بن العبد ، وغيرهم كثيرين ممن لو أردنا تسميتهم

لاقتضى ذلك منـّا زمنا .

وكأنما التفت هؤلاء الملوك الى أهمية الشعر في حياة العرب ، فحاولوا أن يسخروه لأغراضهم ، فاذا الثناء ينثال عليهم من كل ناح ، واذا الاشعار التي تمدحهم تطير على ألسنة الناس . وهذا ما كان يهمّ ملوك الحيرة حتى يدخلوا قلوب العرب ، وحتى يصبحوا الزعماء الحقيقيين لهذه الأمة .

وإذا علمنا أن الشاعر في ذلـــك العصر كان ممثّل قومه ، والناطق بلسانهم ، أدركنا أهمية وجود الشعراء في بلاط الحيرة ، ومدى ما تذهب اليه سياسة اللخميين . فرضا الشاعر عن الممدوح ، يعني رضا القبيلة كلها عنه . ورضا الممدوح عن الشاعر يعني رضاه عن القبيلة كلها .

وكأننا بالملوك المناذرة كانوا في قرارات أنفسهم يودون التخلص من حكم فارس ، وإن ظاهروهم في العلن . لذلك سعوا الى تركيز ملكهم على أسس من القوة الشعبية العربية حتى يكون لهم في يوم من الأيام إمكان انتهــاز الفرصة اذا سنحت ليستقلوا عن العجم .

والذي نذهب اليه ، ان فكرة جمع الشمل العربي في عصر الجاهلية ، كانت واردة في أذهان بعض الساسة . وان الشعراء الجاهليين الذين كانوا يتخذون المديح حرفة ، هم في الواقع الدعاة الى شيء من ذلك . وإذا شئت فقل ، هم الذين تبلورت في تفكيرهم هذه الظاهرة بعض التبلور . وما إجماعهم كلهم على مزايا واحدة كانت تعتبر جديرة بالمديح والاكبار سوى دليل على بـــدء في

توحيد المثل العليا والاهداف والقيم المستحبّة تحت ظل الملوك اللخميين . أما الغساسنة ، فملوك دولة في الشام ، انشأها الروم البيزنطيون مزاحمة للفرس ، ولنفس الغاية التي انشئت من اجلها دولة المناذرة . واذا كان الغساسنة قد احتفظوا أكثر من ملوك الحيرة بمظاهر البداوة ، إلا انهم في السياسة البيزنطية كانوا أكثر انغماساً من اولئك في السياسة الفارسية . على ان الشعراء كانوا يقصدونهم كما كانوا يقصدون المناذرة وان بدا اهتمام الغساسنة بالشعر أضعف واحتفالهم بالشعراء أقل .

وكان بينهم وبين الحيرة عداوة تبعاً للعداوة بين الفرس والروم فظهرت آثار هذه العداوة في تنافس المملكتين ، كل منهما تريد ان تحشد الشعراء عندها ، لاستخدامهم في التغني بها وبفضائلها .

والحق يقال ؛ ان الذي كان يمدح به المناذرة كان الغساسنة يمدحون به ايضاً . اللهم الا ان مديح ملوك الشام كان كثير الحديث عن شجاعتهم وفروسيتهم وخوضهم للمعارك ، والانتصار على الاعداء مما يدل على انهم كانوا محاربين ، وكانوا يذهبون بأنفسهم الى ساحات الوغى . وفيما يلي ، سنعرض الواناً من مديح الجاهلية مبينين اتجاهاته وقيمه وارتباطه باحداث العصر والبيئة لنتخلص من بعد الى استنتاج المثل الأعلى للعربي في ذلك الزمن .

### أ – في خدمة القبيلة :

تحت هذا العنوان ، سنعرض لأشعار في المدح نظمها أصحابها خدمة لقبائلهم دون ان يكون لهم مآرب شخصية خاصة . هذا المديح كان بمثابة واجب يضطلع به الشاعر لانه كان لسان قبيلته وحامي حماها ، وممثلها في المحافل . وكثيراً ما كان يلقى هذا الشعر على أثر جميل يسديه بعضهم الى أبناء القبيلة التي ينتسب الشاعر اليها ، فيعمد هذا الى شكره والثناء عليه اعترافاً بما بدر منه واكباراً للعمل الفاضل .

مثل هذا جرى لدريد بن الصمة . ودريد «هو سيد بني جشم بن بكر ، وفارسهم وقائدهم . وكان مظفَّراً ميمون النقيبة . غزا نحو مئة غزاة ما أخفق في واحدة منها » (عن ابي عبيدة).

ومفاد الخبر ، ان أنس بن مدركة الخثعمي وأحلافه من بني الحارث بن كعب قد أغاروا على قوم دريد فأسروا وسبوا واستاقوا اموالاً لاحد جيران دريد وخلفوا كل ذلك بنجران ، وعجز دريد عن ردّ ذلك بالقوة فلجأ الى السؤال ومدح القوم مدحاً حملهم على ردّ السبايا وفك الاسرى وإعادة الأموال . ومما قاله في ذلك :

بني الدّيّانِ رُدّوا مالَ جاري
وأسرَى في كُبولِهِمِ الثّقالِ .
ورُدُّوا السَّبْيَ إن شئتُم بِمَنٍّ
وَإن شِئتُمْ مُفادَاةً بِمَالِ .

فأنتم أهلُ عائدةٍ وفضلٍ
وأيدٍ في مواهبكم طوالِ
متى ما تمنعوا شيئاً فليست
حبائلُ أخذِه غيرَ السؤالِ
وحربُكُم بني الديّانِ حربٌ
يغصُّ المرءُ منها بالزلالِ
وجارتُكُم بني الديّانِ بسلٌ
وجارُكُم يُعدُّ مع العيالِ
بني الديّانِ إنَّ بني زيادٍ
هُمُ أهلُ التكرُّمِ والفعالِ
فأولوني بني الديّانِ خيراً
أُقِرَّ لكم به أخرى الليالي.

وغير خفي ان في هذه الأبيات شيئاً من ذل السؤال، ولكنه ليس ذلاً فردياً ولا هو عيب من عيوب شيخ القبيلة دريد بن الصمة . هو نوع من المهادنة والمسالمة وحل الامور بالحسنى .

ولرب قائل يقول عن دريد : « مرغم أخاك لا بطل » . فلو استطاع استرداد ما خسرته قبيلته بالقوة لما تأخر عن ذلك. وماذا يهمنا من ذاك ؟

أوَ ليس من الحكمة والدهاء أن يعمد بطل كدريد بن الصمة الى هذه الطريقة ليخدم قبيلته التي جعلت نفسها تحت وصايته ؟

إننا نرى في هذا الشعر نفساً هادئة وتفكيراً مرناً ، وتصرّفاً

يؤدي الى كسب الاصدقاء ، ولو فهم من ظـــاهره إقرار من الشاعر بعجز قبيلته عن استرداد ما سلبته . وفيه أيضاً صورة للفضائل التي كانت تقدس آنذاك كالتكرّم والشجاعة وقـــوة المراس ، ونكاية الاعداء ، وحماية الجار ، والذود عن العرض .

والثابت أن دريداً قد نجح في سؤاله، فرد اليه أسرى قبيلته واموالها، وزيد أيضاً من عطاء يزيد بن عبدالمدان سيدّ نجران. فقال في ذلك يمدحه :

مَدَحتُ يَزِيدَ بنَ عَبدِ المُدَانِ
فَأكرِم بِهِ مِنْ فَتَىً مُمْتَدَحْ
إذا المَـــدحُ زانَ فَتَى مَعشَرٍ
فإنّ يَزيـــدَ يَزينُ المِـــدَحْ
حَلَلتُ بِـــهِ دُونَ أصحابهِ
فـأوْرَى زِنادِيَ لمَّا قَــدَحْ
وَردَّ النســـاءَ بأطهارِهـــا
وَلوْ كانَ غَيرُ يزيدٍ فَضَحْ
وَفكَّ الرِّجَالَ وكلُّ امرِيءٍ
إذا أَصْلَحَ اللهُ يَوماً صَلُحْ
وَقلْتُ لهُ بَعدَ عَتقِ النِّساءِ
وَفكِّ الرِّجـــالِ ورَدِّ اللِّقحْ
أجِرْ لي فَوَارِسَ مِنْ عامِرٍ
فَأكرِمْ بِنفْحَتِـــهِ إذ نَفَحْ

وَما زِلْتُ أَعْرِفُ في وَجْهِهِ
بِوَقتِ السُّؤالِ ظُهُورَ الفَرَحْ
رأيْتُ أبا النَّضْرِ في مَذْحَجٍ
بِمَنْزِلَةِ الفَجْرِ حِينَ اتَّضَحْ
إذا قارَعُوا عَنهُ لَمْ يَقْرَعُوا
وإن قَدَّمُوهُ لِكَبْشٍ نَطَحْ
وإن حَضَرَ النَّاسُ لَمْ يُخْزِهِمْ
وَإن وَازَنُوهُ بِقِرْنٍ نَجَحْ
فَذَاكَ فَتاها وَذُو فَضْلِها
وإنْ نابِحٌ بِفِجارٍ نَبَحْ

هذا مديح غير متكسب . ولكنه شكر على مأثرة . الغاية منه جماعية وليست فردية . فيه يعدّد الشاعر النعم التي أولاه إياها الممدوح ، والمكارم التي يتصف بها . وهو شعر سهل تبدو عليه مظاهر الطبعية ، ومظاهر السذاجة لا سذاجة المادح وحده ، ولا سذاجة الممدوح معه فحسب ، بل سذاجة ، المجتمع الذي يضمها معاً . فالحياة الفطرية تشيع فيها مثل هذه العادات وتشيع فيها المقايضة حتى فيما يتعلق بالمعنويات .

### ٢ — في خدمة السلام :

كان المجتمع الجاهلي يعيش في نظام القبيلة . وكانت القبائل تتحارب فيما بينها لأسباب مختلفة ، اقتصادية في معظمها او او سياسية او غير ذلك . وقد كانت الحروب تطول حتى تبلغ

عشرات السنين أحياناً ، فتأتي على الحرث والنسل ولا يجني أصحابها مني سوى الويلات مهما تكن مكاسبهم بعد ذلك .

من هذه الحروب ، كانت حرب داحس والغبراء ، او حرب السباق . وقعت بين قبيلتي عبس وذبيان ، وتعقدت حتى شملت غيرهما من القبائل ، كبني أسد ، وبني تميم ، وبني عامر . في هذه الحرب سقط قتلى كثيرون وانتهبت اموال وانتهكت حرمات ودام الخصام نحواً من اربعين سنة . وفي كل سنة كان الضحايا يتزايدون ، وشقة النزاع تتسع ، حتى قدر لهذه الحرب من وضع حدّاً لها وأصلح بين الطرفين المتخاصمين ، وتحمّل الديات كلها في شخصي هرم بن سنان والحارث بن عوف .

وكان زهير على ما يبدو واحداً من السعاة لقطع دابر الحرب ولعله اشترك في المفاوضات التي جرت بين الطرفين . وهذا ما يدل على رجحان عقله وميله الى الاصلاح وحبه للخير العام . وبعد ان تمّ الصلح بين المتحاربين ، نظم زهير قصيدة مطولة عدّت من المعلقات السبع ؛ وفيها تحدث عن الحرب ومساوئها، وعن المصلحين وما بدر منهما من تكرّم وتضحية واستعداد لفض المنازعات، حرصاً على السلام ورغبة في دوام العلاقات حسنة بين الجميع ، وحقناً للدماء ، وإشفاقاً على اولئك الذين كان الضرر يمسهم بسبب الحرب القائمة — ومما جاء في شعر زهير قوله :

سَعَى سَاعِيا غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعدَمَا
تَبَزَّلَ مَا بَينَ العَشِيرَةِ بالدَّمِ [1]

فأقسَمتُ بالبيتِ الذي طافَ حَوْلَهُ
رِجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيشٍ وَجُرْهُمِ [2]

يميناً لَنِعمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما
على كُلِّ حالٍ من سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ [3]

تداركْتُما عبساً وَذُبْيانَ بَعدَمَا
تَفانَوْا وَدَقُّوا بينهُمْ عِطرَ مَنشِمِ [4]

وَقَدْ قُلْتُما إن نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الأمرِ نَسلَمِ [5]

فأصبَحْتُما مِنها على خَيرِ مَوْطِنٍ
بَعيدَيْنِ فِيهَا عن عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ [6]

---

١ – الساعيان بالصلح هما هرم بن سنان والحرث بن عوف من بني غيظ بن مرة من ذبيان ، تبزّل : تشقق وتقطع . بالدم : بالقتال الدامي .

٢ – البيت : الكعبة (بيت الله) . بنو جرهم : ولاة الكعبة قبل قريش .

٣ – السحيل : الخيط الضعيف ، والمبرم : الخيط المتين. وهما استعارتان للضعف والقوة .

٤ – تفانوا : افنى بعضهم بعضاً في القتال ، منشم : امرأة عطارة كانت تبيع الحناء المدقوق ليوضع للموتى . والمثل يقال عند الحديث عن الموتى الكثيرين .

٥ – نسلم من الأمر : اي من الحرب الخطيرة .

٦ – العقوق : مقابلة معروف الوالدين والاقارب بالجزاء السيىء .

عَظيمينِ في عُليا مَعَدٍّ ـ هُديتُما ـ
وَمَنْ يَستَبِحْ كَنزاً من المجدِ يَعظُمِ ١

تُعَفّى الكُلومُ بالمئينَ فأصبَحَتْ
يُنَجِّمُها مَنْ لَيسَ فيها بِمُجرِمِ ٢

يُنَجِّمُها قومٌ لِقومٍ غَرامَةً
وَلَمْ يُهَريقُوا بَيْنَهم مِلءَ مِحْجَمِ ٣

فاصبَحَ يَجْري فيهِمُ من تِلادِكُمْ
مَغانِمُ شَتّى مِنْ إفالِ مُزَنَّمِ ٤

ألا أبلِغِ الأحْلافَ عَنّي رِسالةً
وَذُبْيانَ هَل أقسَمْتُمُ كلَّ مُقسَمِ ٥

فَلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في صدورِكُمْ
لِيَخفَى وَمَهْمَا يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ .

---

١ ـ عليا معدّ : زعماؤها وهم بنو قريش ـ هديتما : دعاء لهما بالهداية . استباح الأمر : وجده مباحاً .

٢ ـ تعفى : تمحى . الكلوم: الجروح ـ بالمئين : اي بالمئات من الابل ـ ينجمها : يدفعها بالتقسيط .

٣ ـ المحجم : كأس من الزجاج يستخدمه الحجام في عمله.

٤ ـ التلاد : المال الموروث . الإفال : جمع أفيل وهو الفصيل الصغير . المزنم : الذي قد زنمه صاحبه اي جعل في إذنه علامة تدل على انه من كرام الآبل .

٥ ـ الاحلاف : هم بنو أسد وبنو غطفان وبنو تميم وطيء . والمقسم : اليمين المعظمة .

وَمَا الحَرْبُ إلا مَا عَلِمتُم وَذُقتُمُ
وَمَا هُوَ عنهَا بالحديثِ المُرَجَّمِ [1]

مَتى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوهَا ذَمِيمةً
وَتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ [2]

لعَمرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيهِم رِماحُهُمْ
دَمَ ابنِ نَهِيكٍ أَوْ قَتيلَ المُثَلَّمِ [3]

وَلا شارَكَتْ في الموتِ في دمِ نَوفَلٍ
وَلا وَهَبٍ منهم ولا ابنِ المُخَزَّمِ [4]

فَكُلاً أراهُمُ أصْبَحُوا يَعقِلُونَهُمْ
عُلالَةَ ألفٍ بعدَ ألفٍ مُصَتَّمِ [5]

تُساقُ الى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرامَةً
صَحيحاتِ مالٍ طالعاتٍ بِمَخْزَمِ [6]

لحيٍّ حِلالٍ يَعْصِمُ النَّاسَ أمرُهُمْ
إذا طَرَقَتْ إحدى الليالي بِمُعْظَمِ

كِرامٍ فَلاذُو الضِّغْنِ يُدْرِكُ وِتْرَهُ
ولا الجارِمُ الجَاني عليهِم بِمُسْلَمِ [7]

---

١ – ذقتم : عرفتم وجربتم . والمرجم : المظنون من غير تحقيق .
٢ – تضرى الحرب : تقوى وتشتد . تضرم : تشتعل نيرانها .
٣ – ٤ – الاسماء هنا لأشخاص من بني عبس قتلهم الذبيانيون واحلافهم .
٥ – يعقلونهم : يدفعون دياتهم . العلالة : عطية بعد عطية . المصتم : الكامل التام .
٦ – المخرم : الثنية في الجبل .
٧ – الوتر : الثأر – الجارم : صاحب الجرم – المذنب .

مديح رزين رصين ، يسوقه شيخ حكيم من شيوخ الجاهلية، فلا يبالغ فيه ولا يتجنى على الحقيقة ولا على الفضيلة . لم يكن زهير ابن أبي سلمى ليمدح امرءاً الا بما فيه ولم يكن من اولئك الشعراء الذين يبذلون ماء المحيّا رغبة في النوال ، وان كان قد تكسب بعض التكسب . ففي الأبيات التي بين ايدينا ، ترى الضمير الحي يحدو بزهير الى امتداح هرم بن سنان والحارث بن عوف، وكلاهما من ذبيان ، لانهما كانا وسيطي خير، وكانا من أكثر الناس مروءة وأشدهم غيرة على السلام وأجزلهم أريحية وتمسكاً بالمثل العليا وحباً بالناس . حقنا دماء القوم ، وجادا بالكثير فكانا نعم السيدان في أحوال الرخاء واحوال الشدة . تداركا عبساً وذبيان بعد معارك قد طال أمدها ، وفناء دب في القبيلتين من جراء عداء استحكم بينهما وتعقد، فسعيا الى السلام بمال ومعروف درّا عليهما حسن الاحدوثة في القوم، وزاداهما شرفاً ورفعة .

وكأنهما قد استباحا من المجد كنزاً حين شفيا كلوم الموتورين من القبيلتين . والذي يزيد الرجلين عظمة أنهما تحملا الديات من غير أن تكون لهما أدنى مشاركة في إراقة الدماء أو أيّ تشجيع عليها. ولكثرة ما قدماه من إبل عقال أضحى لدى الفئتين قطعان وفيرة جداً من كرائم النوق والإفال المزنم .

وانها لالتفاتة بليغة جداً تلوح من زهير الى قبيلتي عبس وذبيان ، فيلومهما على ما بدر منهما من سيىء الفعل ، ويحاول ان يذكرهما بويلات الحرب وشرورها والشؤم الذي تجره على المتحاربين، بحيث تتضاعف المصائب ، ويزداد عدد الأشقياء

وتضعف المحبة ويسود الخصام .

ثم يعود زهير ليلح في امتداح الرجلين ، مظهراً ما لديهما من كرم ، وما هما عليه من حسن العريكة ، وعزة النفس ، وحماية الجار ، ومساعدة كل محتاج ، وحب الحياة الصافية الخالية من كل مكدّر .

وما نظن ان زهيراً كان في هذا المديح ذا مآرب شخصية . وما نظنه قد تكسب هذه المرة، وان كان هرم قد أكرم زهيراً كثيراً ، حتى لقد قيل عنه : انه أقسم بألا يسلم عليه زهير مرة ، إلا وصله بصرة من مال . ويقال : إن زهيراً كان كلما رأى هرماً في مجلس قال: السلام عليكم جميعاً ما عدا هرماً، وخيركم استثنيت .

والحق ان زهيراً قد نظم في هرم باقة من أجود الشعر ، خلدت هرماً مدى الدهر . ولذا ، لم يكن اعتباطاً قول عمر بن الخطاب حين سأل ابنة زهير : ماذا فعلت بحلل هرم التي كساها أباك ؟ فقالت لقد أبلاها الدهر . قال :،

ولكن ما كساه ابوك هرماً لم يبله الدهر .

ولعل من المفيد ان نورد في هذا المقام ما قاله زهير في قوم هرم :

لَوْ كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ النَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
قَوْمٌ سِنانٌ أبوهُمُ حِينَ تَنْسِبُهُمْ
طابُوا وَطابَ من الأولادِ ما وَلَدُوا

إنسٌ إذا أمِنُوا جِنٌّ إذا فَزِعُوا
مُرَزَّأُونَ بَهاليلٌ إذا جَهِدُوا
مُحَسَّدُونَ على ما كان مِنْ نِعَمٍ
لا يَنْزِعُ اللهُ عنهُم ما لَهُ حُسِدُوا

ومما قاله في هرم نفسه :

بَلِ اذكُرَن خيرَ قيْسٍ كلّها حسباً
وخيرها نائلاً وخيرها خُلُقا [١]

القائدَ الخيلَ منكوباً دَوابِرُها
قد أُحكِمَت حكماتِ القِدِّ والأَبَقا [٢]

غزت سِمَاناً فآبت ضُمَّراً خُدُجاً
مِن بعدِ ما جَنَّبُوها بُدَّناً عُقُقا . [٣]

حتى يَؤُوبَ بها عُوجاً مُعطّلةً
تشكو الدَّوابرَ والأنساءَ والصَّفقا [٤]

---

١ — النائل : العطاء .

٢ — الدوابر : القسم الخلفي من الحوافر — أحكمت : شدت الحكمات على انوفها — القد : الجلد . والأبق : القنب ،

٣ — الخدج : التي تلد ابناءها قبل تمام مدة الحمل ،لشدة التعب. جنبوها : قادوها . البدن : الضخام العقق: التي ظهر حملها .

٤ — يؤوب : يرجع . العوج : التي هزلت فأعوج جسدها . معطلة : بلا أرسان : الصفق : جمع صفاق وهو جلد يلي البطن دون الجلد الاعلى .

يطلُبُ شأوَ امرأينِ قدَّمـــا حَسَناً
نالا الملوكَ وبَزّا هـــذهِ السُّوقا [1]

هُوَ الجوادُ فإنْ يَلحقْ بِشأوِهِمَا
على تكاليفـــهِ فمثلُهُ لَحِقَـــا . [2]

أوْ يَسبِقاه على مـــا كانَ من مَهَلٍ
فِمثْلُ ما قدَّمـــا من صالحٍ سَبقا

أغرُّ أبيَضُ فيّاضٌ يُفكِّكُ عـــن
أيدي العُناةِ وعَنْ أعناقِها الرِّبَقا [3]

وذاكَ أحزَمُهُم رأيـــاً إذا نبأٌ
مِنَ الحوادِثِ غادى الناسَ أو طَرقَـا [4]

فضلَ الجيادِ على الخيلِ البطـــاءِ فلا
يُعطي بذلـكَ ممنوناً ولا نزِقـــا [5]

قد جَعلَ المبْتغُونَ الخيرَ مِن هَرِمٍ
والسائلونَ إلى أبوابهِ طُرُقـــاً

---

١ – الشأو : الغاية . والمرءان : هما والد الممدوح وجده . بز : غلب . السوق : الاواسط من الناس .

٢ – على تكاليفه: بالرغم مما فيه من مشقة .

٣ – العناة : الأسرى . الربق : الاغلال ذات الحلق .

٤ – غادى الناس : اتاهم عند الصباح . طرق : أتى في الليل .

٥ – فضل هرم على الناس كفضل الجيـــاد على الخيول البطيئة . الممنون : الذي فيه منة ومباهاة . والنزق : الذي يبطيء بعد الجري .

إنْ تلقَ يوماً على عِلاّتهِ هَرِماً
تلقَ السّماحةَ منه والنّدى خُلُقا [١]

وليسَ مانِعَ ذي قُرْبى وذي رَحِمٍ
يوماً ولا مُعدِماً من خابطٍ ورقا [٢]

ليثٌ بعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا
ما كذَّبَ الليثُ عن أقرانهِ صدَقا [٣]

هذا وليسَ كمن يَعْيا بِخطّتهِ
وَسطَ النّدِيِّ إذا ما ناطِقٌ نطَقا [٤]

لو نالَ حيٌّ من الدُّنيا بِمنزلةٍ
وسطَ السماءِ لنالتْ كفُّهُ الأفقا .

أرأيت كيف يمتدح زهير هرماً، فيتحدث عن نسبه الشريف وعن سعة جاهه وعن حسن خلقه ، يتحدث عن فروسيته وعن قيادته للخيل محكمة الشدّ قوية عتية ، يغزو بها عققاً سماناً لكثرة الخير في دياره ، ولسعة مرابعه وخصبها ، فتأوب ضمراً منهكة لكثرة ما جرّدت للحرب واستخدمت

---

١ – على علاته : اي على قلة ماله .

٢ – المعدم : المانع . الخابط : الذي يطلب المعروف . والورق هو المعروف هنا يشبه طالب المعروف بخابط الشجر الذي يريد ورقه .

٣ – عثر : اسم مكان ولعله مأسدة . كذب الليث : لم يصدق الحملة .

٤ – الندي : مجلس القوم. ويريد في هذا البيت ان الممدوح بليغ القول في المجالس.

في ساح المعارك . يعود بها عوجاً معطلة من الارسان اذ لم تعد في حاجة الى هذه الارسان بعد ما بلغ منها الهزال والضعف مبلغها ، وبعد ان اصبحت تشكو العياء في الدوابر وعروق الفخذ وأماكن الاحزمة في الصدور . هذا الرجل يسعى الى حسن الاحدوثة ، ويسير على آثار رجلين عظيمين قد سبقاه من قبل ، هما جده وابوه ، بلغا مقام الملوك ، وبزّا أوساط الناس ، وأشرافهم . ومن كان هذا شأنه من التكرم فانه لجدير بالوصول الى ما وصل اليه هذان الرجلان وان كانت دون ذلك عقبات ومتاعب كثيرة .

ان هرماً لرجل أغر أبيض فيّاض بالمعروف ، يفك الأسرى ويخلصهم من أصفاد الحديد . وهو الى ذلك ذو مروءة وذو رأي حكيم ، اذا نزل بالقوم امر جلل في الليل او في النهار رأيته اول من ينبري الى مساعدتهم دونما تذمر او تلكؤ .

فضله في الناس كفضل الجياد الكرام على سائر الخيل البطيئة ؛ كل ذي حاجة اليه يتوجه فلا يضن عليه وانما يتلقاه ببشر وسماحة وندى على الرغم من قلة ماله ، الذي جاد به فلم يبق لديه منه الا جزء ضئيل . انه وصول للرحم ، ومطعم للناس وشجاع في الحروب وخطيب مفوه ، وذكي رفيع القدر .

تلك كانت مزايا الرجل الفاضل في الجاهلية ، أضفاها زهير على ممدوحه من غير ما مبالغة أو تدجيل ، لهذا حفظ الناس شعره ومنحوه التقدير .

**أعشى قيس :**

هو صناجة العرب طاف ديارهم كلها في داخل الجزيرة وفي خارجها ، ووصل الى بلاد الفرس فمدح ملكهم ، فأثابه وأجزل عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب واقتداء بهم فيه » ولقد تحدث هو عن تجواله في البلاد ، وضربه في الآفاق طلباً للمال وتكسباً بشعره فقال :

تَقُولُ ابنَتي حينَ جَدَّ الرَّحيلُ
أرانا سَواءً ومَن قَد يَتِمْ [١]
فيا أبَتا لا تَرِمْ عِنْدنا
فإنّا نَخافُ بأن نُختَرَمْ [٢]
أرانا إذا أضمرَتكَ البلادُ
نُجفى وَتُقْطَعُ مِنا الرَّحِمْ [٣]
« أفي الطَّرْفِ خفتِ عليَّ الرَّدى
وَكَمْ مِن رَدٍ أهلَهُ لم يَرِمْ [٤]
وَقدْ طُفتُ للمالِ آفاقَهُ
عُمانَ فَحِمصَ فأورى شَلِمْ

١ — يتم : مات ابوه فصار يتيما .

٢ — فعل مضارع مجزوم من رام يريم بمعنى برح — نختزم : نهلك .

٣ — اضمرتك : البلاد غيبتك وجعلتك خفياً .

٤ — الطرف : نهاية الشيء ؛ ردٍ : من اصابه الردى اي الموت .

أَتَيتُ النَّجاشِيَّ في أرْضِــهِ
وأرْضَ النَّبـيطِ وَأرْضَ العَجَم[1]
فَنَجْرانَ فالسَّرْوَ مِنْ حِميرٍ
فأيَّ مَرام لَهُ لمْ أرُم . [2]
وَمِنْ بَعدِ ذاكَ الى حَضرَموْتَ
فاوْفَيتُ همِّي وحِيناً أُهمّ

هذه أبيات من قصيدة مدح بها عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وهو أمير وفارس وشاعر من اهل الجاهلية ، يعترف فيها الأعشى بانه كان بائعاً متجولاً للشعر ، يتخذه متجراً ليؤمن لابنائه وسائل العيش . ولعله كان يغني شعره حتى سمي صناجة العرب . والذي يتضح من الابيات التي بين أيدينا ان الشاعر لم يكن يكتفي بالمديح ليثير أريحية الممدوح وكرمه ، بل كان يعمد الى وسائل اخرى للتأثير كهذا العرض لما دار بينه وبين ابنته من حديث عاطفي يجعل الانسان يشفق على الشاعر ، ويبذل له مالاً نظراً لما وراءه من عيال تريد ان تعيش. وانها لصورة جميلة جداً ، صورة الفتاة متعلقة بأبيها ترجوه ألا يتركها وأخوتها لانهم يشعرون في غيابه بانهم واليتامى سواء ، ولانهم يقلقون لما يصيب أباهم في تسفاره خشية شر ينزل به . وما أُحيلى هذا التعبير من ميمون بن قيس: « أرانا اذا أضمرتك البلاد

١ – النجاشي : لقب لملك الحبش .

٢ – مضارع مجزوم من رام الشيء يرومه أي يقصده ويرغب فيه .

نخفى وتقطع منـا الرحم » . ففيه حسن الاستعارة وفيه رقـة العاطفة بجعل الأعشى المعول الوحيد لاولاده .

وغير خفي ما في تعداد البلدان التي قصدها الأعشى طلبـاً للمال ، من صراحـة وعدم تحرّج من اتخاذ الشعر وسيلة الكسب .

على أن الاعشى قد بلغ من الشهرة في الجاهلية بحيث اذا قال بيتاً من الشعر تغنت به العرب في بواديها وفي حواضرها ، واذا مدح انساناً رفعه الى أعلى الرتب ، ولو كان في حقيقته غير ذي مجد ، كما جرى للمحلق .

تحدث صاحب الاغاني عن الاعشى قال : « ذكر لي بن محمد النوفلي أن أباه حدثه عن بعض الكلابيين قال : كان لابي المحلق شرف ، فمات وقد أتلف ماله ، وبقي المحلق وثلاث أخوات له؛ ولم يترك لهم الا ناقة واحدة ، وحلتي برود جيدة كان يسد بها الحقوق ، فأقبل الاعشى من بعض أسفـاره يريد منزله باليمامـة فنزل الماء الذي به المحلق ، فقراه أهل الماء ، فاحسنوا قراه . فاقبلت عمة المحلق فقالت : يا ابن اخي ، هـذا الاعشى قد نزل بمائنا ، وقد قراه اهل الماء . والعرب تزعم انه لم يمدح قومـاً إلا رفعهم ، ولم يهج قوماً إلا وضعهم . فانظر ما أقول لك ، واحتل في زق من خمر من عند بعض التجار ، فارسل اليه بهذه الناقـة والزق وبردتي ابيك . فوالله لـئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفه ، ونظر الى عطفيه في البردتـين ، ليقولن فيك شعراً يرفعك به .

قال : ما أملك غير هذه الناقة وأنا أتوقع رسلها . فأقبل يدخل ويخرج ويهمّ ولا يفعل . فكلما دخل على عمته حضّته ، حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجل ومضى . قالت : والله ، أحسن ما كان القرى ، تتبعه ذلك مع غلام ابيك . ( مولى له اسود شيخ ) فحيثما لحقه اخبره عنك انك كنت غائباً عن الماء عند نزوله اياه ، وانت ، لما وردت الماء وعلمت انه كان به كرهت ان يفوتك قراه . فان هذا احسن لموقعه عنده . فلم تزل تحضه حتى أتى بعض التجار ، فكلمه ان يقرضه زق خمر واتاه بمن يضمن ذلك عنه ، فأعطاه ، فوجه بالناقة والخمر والبردين مع مولى ابيه فخرج يتبعه . فكلما مرّ بماء قيل : ارتحل ، امس عنه ، حتى صار الى منزل الاعشى بمنفوحة اليمامة . فوجد عنده عدة من الفتيان قد غدّاهم بغير لحم ، وصب لهم فضيخاً فهم يشربون منه ، اذ قرع الباب فقال : انظروا من هذا . فخرجوا ، فاذا رسول المحلق يقول كذا وكذا . فدخلوا عليه وقالوا : هذا رسول المحلق الكلابي أتاك بكميت وكيت . فقال : ويحكم ، أعرابي ، والذي ارسل اليّ لا قدر له .

والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولن فيه شعراً لم أقل قط مثله . فواثبه الفتيان وقالوا : غبت عنا فاطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحماً وسقيتنا الفضيخ ، واللحم والخمر ببابك . لا نرضى بذا منك . فقال : ائذنوا له . فدخل ، فأدى الرسالة ، وقد أناخ الجزور بالباب ، ووضع الزق والبردين بين يديه ، قال : أقره السلام وقل له : وصلتك رحم ، سيأتيك

ثناؤنا . وقام الفتيان الى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن كبدها ، وجلدها عن سنامها ثم جاؤوا بهما . فاقبلوا يشوون ، وصبوا الخمر فشربوا ، واكل معهم وشرب ، ولبس البردين ونظر الى عطفيه فيهما وأنشأ يقول :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ! الى آخر القصيدة

قال : فسار الشعر، وشاع في العرب ، فما أتت على المحلق سنة حتى زوج اخواته الثلاث كل واحدة على مئة ناقة فأيسر وشرف. ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

لَعَمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ
الى ضوءِ نارٍ في يَفاعٍ تَحرّقُ [١]
تُشَبُّ لِمقرُورَينِ يَصطَلِيانِها
وباتَ على النارِ النّدَى والمُحلّق [٢]
رَضيعَيْ لِبانِ ثديِ أمٍّ تعاهدا
بأسحَمَ داجٍ : عَوْضَ لا نَتفَرّقُ [٣]
يَداكَ يَدا صِدْقٍ فكَفٌّ مُفيدةٌ
وكفٌّ إذا ما ضُنَّ بالزّاد تُنفِقُ [٤]

---

١ – اليفاع : الارض المرتفعة .
٢ – المقرور : من اصابه البرد . يصطلي : يستدفيء . الندى : الكرم .
٣ – الأسحم والداجي : الأسود ؛ عوض لا نتفرق أي لا نتفرق ابداً .
٤ – ضنّ بالزاد: ازداد التباخل به .

ترى الُجود يجري ظاهراً فوق وجههِ
كما زانَ مَتنَ الِهندُوانيِّ رونقُ ١

وأَما إذا ما أَوّبَ المحلُ سَرحهُمْ
ولاح لهم من العشيّات سملَقُ ٢

نفى الذمَّ عن آلِ المحلّقِ جَفنةٌ
كجابيةِ الشيخ العِراقيِّ تَفْهَقُ ٣

يروحُ فتى صِدقٍ ويَغدُو عليهمِ
بملءِ جَفانٍ مِنْ سَدِيفٍ يُدَفَّقُ ٤

ترى القومَ فيها شارعينَ ودونهُمْ
من القوم ولدانٌ من النسلِ درْدَقُ ٥

طويلُ اليدين رهْطُهُ غيرُ ثِنيةٍ
أَشمُّ كريمٌ جارُهُ لا يُرَهَّقُ ٦

كذلك فأفعل ما حييتَ اليهمِ
وأقدمْ إذا ما أَعيُنُ القومِ تَبرُقُ

---

١ – الهندواني : السيف المصنوع في بلاد الهند ، وهو من اجود انواع السيوف .

٢ – أوّب : رجع بعد غياب طويل ، السرح : المواشي التي تسرح في المراعي . السملق ! القاحل .

٣ – الجابية : الحوض الضجم . الشيخ العراقي : قصد به كسرى. تفهق : تفيض .

٤ – السديف : الشحم .

٥ – الدردق : الاطفال .

٦ – الثنية : ما كان دون السيد ؛ يرهق : يضايقه الدائنون بالمطالبة.

أبا مِسمَعٍ سارَ الذي قد صَنَعتُمُ
فأنجدَ أقوامٌ بــذاكَ وأعرَقوا [1]
وإنَّ عِتاقَ العيسِ سوفَ يَزُورُكُمْ
ثَناءٌ على أعجــازِهِنَّ مُعَلَّقُ [2]
به تُنفَضُ الأحلاسُ في كل منزلٍ
وتُعقَدُ اطرافُ الجبالِ وتُطلَقُ. [3]

صورة رائعة يطلع بها الأعشى على الناس ليريهم عيوناً كثيرة تتجه نحو مرتفع من الأرض شبت فوقه نار تتلألأ في الظــلام وحول النار اثنان يضرمانها ويدعوان الأضياف: الندى والمحلق.

هما رفيقا صبا، بل رضيعا لبان من ثدي ام واحدة، تحالفا وتعاهدا بألا يفرق بينهما مفرق، حتى بات المحلق من أكرم الناس خلقاً وأسماهم يداً، يلتمع الجود في وجهه، فيزينه بوميض منه، كازان متن الهندواني رونق. اذا حلَّ القحط في القوم وأضحت الأرض قاعــاً صفصفاً، ترى المحلق يبسط لهم رزقه في جفان تتسع بقــدر الحوض وتتدفق، كجابية الشــيخ العراقي، يروح ويغد وفوقهــا فتى ذو مروءة حاملاً الى الناس كبارهم وصغارهم أجود القوت وأطيبه؛ وهم شارعون في هذه

١ — أنجد القوم: اتجهو نحو نجد. واعرقوا: اتجهو نحو العراق.

٢ — عتاق العيس: الابل الجيدة القوية. الاعجاز: جمع عجز وهو مؤخر الحيوان.

٣ — الاحلاس: جمع حلس، تجلل به الدابة تحت السرج. ويريــد بالبيت؛ ان جميل المحلق قد اصبح حديث الناس في الحل والترحال.

الجفان، يأكلون ويطعمون أطفالهم من خير رجل طويل اليدين، واسع الثراء ، قدير على تحصيل المال، رهطه من أشرف القوم ، صاحب شمم وكرم ،ولا ترهقه الديون،ولا يبيت جاره معوزاً.اذا برقت أعين القوم فالى المحلق تتوجه ، نعم ما تفعله أبا مسمع. لقد سارت الأخبار عنك الى نجد والى العراق ، ومع الركبان يحلّ في كل ارض ثناء الأعشى على ما بذلتموه في إكرامه ، وعلى الالسنة يطير ذكر المحلق .

**وفاء السموأل**

كان السموأل أميراً في تيماء ، وغنيّاً من أغنياء الجاهلية وشاعراً من شعرائها . وكان له قصر منيع محصّن اسمه « الأبلق الفرد » .

على أثر مقتل حجر الكندي ، والد امريء القيس الشاعر ، اتصل امرؤ القيس بالسموأل بعد أن نفض يده من مساعدات العرب له كي يستعيد حكمه . وكان السموأل على صلة بالغساسنة، ملوك الشام . فأشار على امريء القيس بطلب نجدة من الروم بعد وساطة من الغساسنة لما بينهم وبين البيزنطيين من ودّ وتحالف .

أخذ الشاعر الكندي برأي صديقه ، فجمع أهله ودروعه وأمواله ، لتكون وديعة في ذمة السموأل ، وتوجه نحو القسطنطينية .

على أن أعداءه من بني أسد ، ومن المناذرة ملوك الحيرة كانوا

يوجسون خيفة مما يدبره امرؤ القيس ؛ فجهزوا كتيبة من الفرسان وأرسلوها الى تيماء لتستولي على كل ما تركه امرؤ القيس لدى السموأل .

وجاء الجند يطلبون الى السموأل أن يسلمهم ودائع امريء القيس . فأقفل حصنه في وجههم ، ورد عليهم بأن الأمانات لا تسلّم إلا الى أصحابها . وعبثاً كانوا يحاولون أن يبلغوا مرامهم . وفيما هم حائرون طلع عليهم من البر شاب يافع ، هو ابن السموأل كان قد خرج الى الصيد قبل وصولهم ، وعاد من غير أن يدري بما يجتاح أباه من حرج ، فالقي القبض عليه واتخذ وسيلة للمساومة .

جيء بالغلام الى باب الحصن ، ونودي على السموأل ليرى منظراً مريعاً جداً ، ولده يتقلب بين أيدي الأعداء والسيف مصلت على عنقه ، وصاح قائد الجند بالسموأل : ادفع إليّ بدروع امرىء القيس وإلا ذبحت ولدك الآن امام عينيك .

ولم يكن السموأل ليجهل فظاظة القائد وقسوته وغدره ، فعزّ عليه أن تسفك دماء ولده ، وعزّ عليه من ناح آخر ان يغدر بصديقه ويخفر ذمته . وبعد إطراق وتفكير ، قرر أن يحافظ على مروءته ، وأن يفي بعهده لمن جعله موضعاً للامانة مهما يكلفه ذلك .

قتل نجل السموأل ، وعاد القاتلون الى ديارهم . أما الناس فراحوا يتناقلون أخبار الرجل ويجعلونه مضرب المثل في الوفاء والحفاظ على العهد .

وفي يوم من الأيام« كان عمرو بن ثعلبة القضاعي راجعاً من غزاة ، ومعه أسارى ، فلقي الأعشى ، وكان هذا قد هجاه وعمرو لا يعرفه فأخذه ونسبه فانتسب الى غير قومه فأوثقه. ثم سار حتى نزل على رجل يدعى شريحاً هو من ابناء السموأل ؛ فأكرمه شريح ، وأراد الأعشى أن يغتنم فرصة وجودهم لدى ابن السموأل، فنظم قصيدة وارسلها اليه يستجيره فيها، ويطلب أن يفك إساره. وتحرك شريح للمكرمة ، فقال لضيفه : «إني أحب أن تهب لي بعض أسراك هؤلاء ، فقال خذ أيهم شئت. قال أعطني هذا الأعمى . فقال ما تصنع بهذا الزّمِن ؟ لا ، بل خذ أسيراً فداؤه مئة من الابل . فأخذ شريح الأعشى واطلقه. أما القصيدة التي كانت سبباً في إطلاقه فعبارة عن مديح لشريح واشارة الى حادثة السموأل المشهورة قال فيها :

شُريح لا تترُكنّي بعد ما علقت
حبالك اليوم بعد القدّ أظفاري [١]

قد طُفتُ ما بين بانقيا إلى عدنٍ
وطال في العجم ترحالي وتسياري [٢]

فكان أوفاهمُ عهداً وامنعهُم
جاراً أبوك بعُرفٍ غيرِ إنكار

---

١ – القدّ ، سير من الجلد يقيد به الاسير .

٢ – بانقيا : مكان في العراق . عدن : مرفأ عربي على المحيط الهندي .

كالغيث ما استمطروه جاد وابله
وعند ذمته المستأسدُ الضاري

كن كالسموأل اذ طاف الهمامُ به
في جحفلٍ كهزيعِ الليل جرّار [١]

بالأبلقِ الفردِ من تيماءَ منزلهُ
حصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدّار [٢]

إذ سامهُ خُطتَيْ خسفٍ فقال له
« قل ما تشاءُ فإني سامعٌ حارِ » [٣]

فقال : « ثكلٌ وغدرٌ انت بينهما
فاختر » وما فيهما حظٌ لمختار

فشكّ غير قليلٍ ثم قال له
أُقتل أسيركَ إني مانعٌ جاري

إنّ له خلفاً إن كنتَ قاتلهُ
وإن قتلتَ كريماً غيرَ عُوّارِ [٤]

مالاً كثيراً وعِرضاً غير ذي دَنسٍ
وإخوةٌ مِثلهُ ليسوا بأشرار

---

١ — الهمام : القائد الشجاع ؛ الجحفل : الجيش ؛ هزيع الليل قطعة منه.
٢ — الأبلق الفرد : حصن السموأل وكان فيه احجار بيضاء .
٣ — سامه الامر : كلفه اياه — الخسف : المذلة . حار : أي حارث .
٤ — العوار : الضعيف الجبان .

جَروا على أدبٍ مني بلا نَزقٍ
ولا إذا شمّرت حَربٌ بأغمار [1]

وسوف يُعقبنيه إن ظفرت به
ربٌّ كريمٌ وبيضٌ ذاتُ أطهار [2]

لا سرُّهُنّ لدينا ضائعٌ مَذقٌ
وكاتماتٌ إذا استودعنَ أسراري [4]

فقال : تقدمة — إذا قام يقتلهُ —
أشرِفْ سمَوْألُ فانظر للدّم الجاري

أأقتلُ ابنك صبراً أو تجيءَ بها
طوعاً ؟ فأنكرَ هذا أيّ إنكار

فشدّ أوداجهُ والصدرُ في مَضضٍ
عليه مُنطوياً كالذّرْع بالنار [4]

واختارَ أدراعه ألا يُسبّ بها
ولم يكن عهدهُ فيها بختارِ [5]

وقال لا اشتري عاراً بمكرُمةٍ
واختارَ مكرمةَ الدنيا على العار

---

١ — النزق الطيش والسفه. أغمار : جمع غمر وهو الجاهل .
٢ — يعقبنيه : يرزقني عقباً له اي بدلا منه ؛ والبيض : النساء البيض.
٣ — المذق : ما ليس صافياً من الاشياء وهو اللبن المغشوش بالماء .
٤ — الأوداج : جمع ودج ؛ وهو عرق العنق . الذرع : ضيق النفس .
٥ — الختار : الغدار .

في هذه الأبيات نوع جديد من البطولة ، لا يقوم على الحرب والقتال ، بل يقوم على الخلق الكريم والوفاء بالعهد . هو نوع من الصراع بين العاطفة والواجب ، وتضحية كبرى في سبيل الفضيلة وشدٌّ نحو العلاء يقوم به السموأل ليضحي بطلاً مثالياً في حفظ الذمار .

وجه الأعشى هذا المديح الى ابن السموأل كما مر معنا ، طالباً اليه أن يتزيا بمثل فضل أبيه . فهو في الواقع مديح للأب ولكنه يشع على الابن أيضاً ، خصوصاً اذا عرفنا أن العرب في الجاهلية وبعد الجاهلية ، كانوا يتفاخرون بامجاد السلف من آبائهم وأجدادهم وذوي قرباهم وكان الواحد منهم بمثابة استمرار لأبيه ، يعمل على إحياء ذكره ، ويعتبر نفسه قطعة منه . من هنا كان ابن السموأل يعتبر ممدوحاً ، وكان الاعشى يعتبر مادحاً لشريح .

والذي قد شدّد الاعشى عليه ، هو فضيلة الوفاء وإجارة المستجير ، وحاول أن يوقظ في ذهن الممدوح حدثاً كان فيه شبه بموقف الأعشى ، وذلك لكي يثير مروءته ويحمله على افتدائه . وواقع الحال ، أن الاعشى قد نجح في محاولته وفك إساره ، ولكن نجاحه في الشعر وإجادته كان اكبر من نجاحه في الخلاص. فمما لا يقبل الريب ان قصيدة الأعشى في وفاء السموأل ، هي رائعة من روائع الشعر الجاهلي . رائعة في معانيها وفي المثل الاعلى الذي تصوره . في هذا الضرب من البطولة الخارقة الذي يجاوز كل عادي مألوف من بطولات البشر ، ويتراءى للسامع كأنه نسج خيال .

وفي القصيدة صور هي من أجمل ما يمكن ان تخطه يدا إنسان. إنها للوحة فنية غاية في الدقة والاتقان ، تلك التي ترينا الأب في مشهد مهيب ، رجل يطل على ابنه بين يدي عدوه ، فترتعد منه الفرائص ، فيضطرب القلب وتسودّ الدنيا أمام ناظريه ، وعدو غدار أثيم يستل سيفه ويضعه على عنق غلام بريء ، ما عرفت دنياه منه غير الطهارة والصفاء ، ثم يصيح بالسموأل قائلاً :

« أشرف سموأل فانظر للدم الجاري »

مع كل قطرة دم ، مع كل زفرة يصعدها الغلام ، مع الشهقة الأخيرة التي كانت آخر عهده بالحياة ، كان السموأل يشعر بالموت ، وقد اعتصر فؤاده ، وقبض على متنفسه ، ففارت الروح في هوة سحيقة ، وكانت اللعنات تنصب على ذلك القائد الظالم الذي فقد كل مظهر من مظاهر المروءة والشرف .

ناهيك بجمال القصة ورونق سبكها وحبكها ، والافتنان في سردها وإحكام العقدة فيها وإبراز المأساة بطريقه تجعل المرء يميل الى تحملها ، ويستهين بها من اجل مكرمة هي فوق كل اعتبار .

# النابغة الذبياني

ما حديثنا عن النابغة سوى حديث عن اسم ضخم ، كان مشغلة للشعراء الجاهليين ومشغلة لمختلف الأدباء والنقـــاد بعد الجاهلية بزمن .

عاش هذا الرجل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع القرن السادس الميلادي ، ومات قبيل البعثة النبوية . اما قبيلته فذبيان ، وهم فرع غطفـــاني من قيس عيلان ، واما مكانته بينهم ، فلم تكن لترتفع إلا بعد أن نبــغ في الشعر.

على أثر هذا النبوغ ، نال ابو أمامة بعضاً من الشهرة ، وتوجه عملاً بناموس الحياة الجاهلية الى خدمة قبيلته والدفاع عنهـا ، ونشر رأيها وتمثيلها في المحافل .

وزاد في أهمية عمله ، أن حرباً ضروساً قد نشبت بين قبيلته وقبيلة بني عبس ،هي حرب السباق،أو حرب داحس والغبراء، فانغمس النابغة الذبياني في سياسة القبيلة ، وراح يرعاها بعـين ساهرة ، ويردّ عنها مكايد الأعداء ، فيمتدح أحلافها ، ويشير الى ما بينهم وبين الذبيانيين من روابط وثيقة ، لا توهنهـــا

الدسائس ولا تغير منها محاولات الخائنين .

كان النابغة الذبياني رجلا رزينا راجح العقل ، متزن السلوك يميل الى الوقار والرصانة ، فلا يتبذل ولا يتهتك ولا يقبل على ملاهي العصر ومفاسده .

فأكسبته هذه الصفات مركزاً محترماً بين الناس ، زاد في رفعته ما عرف به النابغة من معدلة في الحكم ، ورأي سديد ، ومعرفة عميقة بالشعر وأصوله . لذلك وثقوا به وحكموه في أشعارهم كما حكموه في قضاياهم العامة .

ومما يذكرون ، ان العرب كانت تنصب له في المواسم قبة من أدم ، وكان الشعراء يقفون بين يديه ينشدونه أشعارهم لينظر فيها ويحكم للمجيدين . إن رجلاً كهذا عارفاً بالشعر وأصوله ، متضلعاً من بلاغة العرب ، متزن التفكير ، نابغة في فن القريض ، لا بد من أن يكون استاذاً لعدد من الشعراء ولا بد من أن يتهافت الناشئون على التتلمذ له ، يستمدون من شعره مدداً ومن رأيه هدياً ، ومن مكانته صيتاً ؛ ولكن النابغة ، بالرغم من كونه قدوة حسنة للشعراء ، قد كان لهم قدوة سيئة أيضاً ؛ ذلك أنه كان بين الأوائل في الشعراء الجاهليين الذين كرّسوا فن المديح صناعة يتكسب بها ، وسخروا الشعر لمآرب مادية خاصة ، فضعف فيه الجانب الانساني ، وانحطت قيمته ؛ فاصبح يقاس بمقاييس هزيلة ، وضل فيه الشعراء سبيل الابداع والتجديد ، فاذا المعاني رواسم تتكرر لدى كل شاعر ، واذا الشعر اسطوانات متشابهة ، تدور حول معان

جوفاء متكلفة مزورة . فقليلاً ما كان يظهر شاعر مجدد ، وقليلا ما كان مجال التجديد ينفتح ويتسع مداه . وحريّ بالملاحظة هنا أن التجديد — وإن حدث على فترات متباعدة في تاريخ الادب العربي — فانه لم يستحدث فنوناً جديدة . ولكنه كان يكتفي بتغير داخلي ضمن الاطار الأصيل الذي اختطه الاقدمون .

والذي يظهر في شعر المديح ، أن الاسلوب فقط هو الذي كان يميز شاعراً عن شاعر ، بالاضافة الى بضعة عناصر فردية شخصية تستمد من ذات الشاعر وظروف معيشته .

وما كان الامر ليقف عند هذا الحد ، فلقد انطبع الشعر التكسبي عند العرب بطابع التذلل والزلفى والانسحاق أمام الممدوحين . ورأى الناقدون والمؤرخون ان المسؤول عن هذه الظاهرة هوالنابغة الذبياني قبل أيّ انسان . هذا الشاعر الرصين المتّزن ، حملته ظروف العصر الى الحيرة والى بلاد الشام ،فدخل بلاط المناذرة ، وأقام فيه زمناً، كما اختلف الى بلاط الغساسنة ، ومدح الملوك من الفئتين فاكرموه ، وأجزلوا له العطاء حتى أثرى ؛ وشاع بين الشعراء أن نابغة ذبيان بات يأكل في صحاف من الذهب والفضة ، وبات نديماً للملوك مقرباً منهم ، كلمته مسموعة ، وإرادته نافذة ، وعيشه رغيد . كل هذا كان حلماًمن أحلام الشعراء ، وأماني في خواطرهم، يسيل لعابهم لدى ذكره . لذلك ساروا على خطى النابغة ، أملاً منهم أن يبلغوا ما بلغه ، ولم يتحرجوا ولم يشعروا بالغضاضة رغم ما أظهروه من ألوان

التسكع والصغار .

والذي يرجح عندنا ، أن شاعر ذبيان لم يكن يفكر أول الامر في أن يتخذ الشعر مهنة للتكسب ، ولم تكن دوافع المديح عنده إلا دوافع نبيلة، قصد منها مساعدة قومه ، وعرفان الجميل لكل من وجد عنده هذه المساعدة .

أمّا كنْه هذه المساعدة ، فيتجلى لنا في ثلاث نواح .

١ ـ ناحية قبلية محض ، حاول فيها ابو أمامه ان يوثق العلاقات بين ذبيان وأحلافها من أسد وتميم وسواهما . فعمد الى امتداح هؤلاء الأحلاف ، والى اظهار ما بينهم وبين قبيلة الشاعر من آصرات التعاون والقرابة . وهذا المديح ليس متكسباً في شيء ، ولا هو مصطنع ، بل انه وليد عاطفة صادقة ، ووليد إخلاص كان الشاعر يكنّه لقبيلته . أمــا ترى كيف تصدى لزرعة بن عمرو بن خويلد حين عمد هــذا الى تصديع الحلف الأسدي الذبياني والى إخراج بني اسد من هذا الحلف ؟ فلقد أظهر النابغة خطل زرعة وسفاهة رأيه، ثم تمدّح بالجموع التي تساند أهله في حربهم ضد بني عبس، فكانت سياسته القبلية عاملاً أساسياً في اتجاهه نحو هذا المديح . اما المعاني التي دارت مدائحه هذه حولها ، فالقوة والعزّة والحفاظ على العهد ، والسيادة والكرم ، وهي معان لا تتعلق بالأفراد فحسب ، ولكنها تنتظم المجموع لكون روح الجماعة هنا هي المعنية ، وهي المرتكز الاساسي في هذه المحالفات .

٢ ـ ناحية قبلية ملكية ( أو ذبيانية لخمية ) ، تختص

بعلاقات ذبيان مع المناذرة . فلقد جاء في كتب التاريخ ، أن كتيبة من فزارة كانت داخلة في جند الحيرة . واذا علمنا ان بني فزارة هم فرع من ذبيان ، أدركنا الصلة الوثيقة التي كانت بين المناذرة والذبيانيين ، حيث كان الملوك اللخميون يعطفون على قوم النابغة بعض العطف . ولكن الاحوال الاقتصادية كانت تضطر بني ذبيان كما تضطر أحلافهم الى الاغارة أحيانا على حمى المناذرة في حال نضوب الماء وجفاف المراعي وانحباس المطر ؛ مما يجعل جنود هؤلاء يأسرون بعض المعتدين ، فيتعيّن على النابغة الذبياني أن يتوسط لهم لدى ملوك الحيرة . وما كان هذا التوسط ليمر من غير قصائد في المديح تهزّ أريحية الملوك وتوافق رغباتهم فيحققون للشاعر رجاءه ، ويجيزونه شخصياً بجوائز مالية يستعين بها على مقتضيات الحياة .

### ٣ ـ ناحية ذبيانية غسانية :

واذا كانت غارات بني ذبيان وبني أسد على حمى الحيرة قليلة ، فانها لم تكن كذلك بالنسبة الى بلاد غسان . فالاماكن التي كان يقطنها الذبيانيون والأسديون متاخمة للأراضي الغسانية . فاذا ما أجدبت ارضهم امتدت أنظارهم الى الشمال ، وفكروا في التربع بحماه .

ومما زاد في تعديات ذبيان وأحلافهم على أرض غسان ، ان الكتيبة الفزارية كانت تشجع قبيلة الشاعر على الدخول في مرابع الشام نظراً لما بين الحيرة والشام من تنافس وعداء ،

وكثيراً ما اشتبك بنو ذبيان وأحلافهم مع الغساسنة فاستاق هؤلاء منهم الأسرى والابل ، وجاء النابغة يشفع لقومه ولمن يوالونهم فيفك الأسرى ويستعيد الأنعام .

ومما يذكر في هذا الصدد ، أن النعمان بن وائل بن الجلاح قائد الجنود الغسانيين أسر مرة قوماً من ذبيان ، ومنهم عقرب ابنة النابغة . فلما عرفها قال :

والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ولا أنفع لنا عند الملك ثم جهزها وخلّاها . وتزيد الرواية قائلة : « ثم قال : والله ما أرى النابغة الذبياني يرضى منا بهذا ، فأطلق له سبي غطفان جميعاً وأسراهم ، فمدحه النابغة .

من هنا يتضح ما كان للنابغة الذبياني من مركز في كل من البلاطين . غير أن هذا المركز قد تعزز في بلاط الحيرة بعد أن اعتلى عرشها الملك النعمان الثالث أبو قابوس بن المنذر الرابع كان هذا الرجل كثير الطموح ، كلفاً بالعظمة ومظاهر الأبهة ، يريد أن يكون أكبر رجل في بلاد العرب ، وأوسع الناس سلطة . فجمع الشعراء في بلاطه ، وكان على رأسهم النابغة الذبياني ، وأجازهم بمال كثير ، فكان ذلك بمثابة حاثّ للقرائح على قول المديح في النعمان . فانهالت عليه الأشعار من كل جانب ، وكانت قصائد النابغة في المقدمة . ولكي نقدر قيمة هذا العمل ، ينبغي ان نستعيد في أذهاننا حالة العرب آنذاك ، وكيف كانوا يعوّلون على بيت من الشعر ، والى أي مدى كان الشاعر يساهم في رفع من يمدحه وفي حط من يهجوه . اذا قدرّنا ذلك ، تبين لنا اهمية

ما كان ينظم في النعمان من شعر ، وكيف كان هذا الشعر يساهم في سعة نفوذ الملك وفي تعظيمه بين العرب .

ولكن حسن العلاقة بين الملك وشاعره النابغة لم يكن ليدوم. فلقد حدث ما عكر الصفو بينهما، فنشأ عن ذلك ان عزم النعمان على الفتك بشاعره. ولكنه هرب قبل ان تنفذ رغبة الملك وظل بعيداً عن بلاط الحيرة حتى سوّي الأمر وأصلح ما بين النعمان والنابغة ، فعاد ابو امامة الى بلاط الحيرة وأنشد ملكها أجمل قصائده واشهرها ، وفيها اعتذار الى المليك وامتداح له بأروع ما مدح به امرؤ في الجاهلية .

من هذه القصائد الاعتذارية سوف ندرس واحدة في هذا المقام ، وواحدة من مدائحه في الغساسنة لنتبين من خلالها خصائص النابغة في فن المديح .

### ١ ــ من مدح الغساسنة :

توجه النابغة في هذه القصيدة الى الملك الغساني عمرو بن الحارث الاصغر (٥٨٧ ــ ٥٩٧ ؟) وقد لجأ اليه بعد أن نقم عليه النعمان أبو قابوس :

كِليني لهمٍّ يا أميمةُ ، ناصبٍ
وليلٍ أُقاسيهِ بطيء الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ
وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ[1]

١ – آيب : راجع .

وصدرٍ أراح الليلُ عازِبَ همِّهِ
تضاعفَ فيه الحزنُ من كلِّ جانبِ [1]

عليَّ لعمروٍ نعمةٌ بعد نعمةٍ
لوالدهِ ليستْ بذاتِ عقاربِ [2]

حلفتُ يميناً غير ذي مَثنَوِيَّةٍ
ولا علم إلاَّ حسنُ ظنٍّ بصاحبِ [3]

لِئن كان للقبرين قبرٍ بجلَّقٍ
وقبرٍ بصيداءَ ، الذي عند حاربِ

وللحارثِ الجفنيِّ سيِّد قومهِ
لَيَلتَمِسَنْ بالجيشِ دار المحاربِ

وثقتُ له بالنصرِ إذ قيل قد غزت
كتائبُ من غسَّان غيرُ أشائبِ

بُنو عمهِ دُنيا وعمرو بن عامرٍ
اولئكَ قومٌ بأُسهم غيرُ كاذبِ

إذا ما غَزوا بالجيشِ حلق فوقهم
عصائبُ طير تَهتَدي بعصائب

---

١ — اراح : جعله يروح عند المساء ، العازب : البعيد
٢ — ليست بذات عقارب : لا يكدرها منّ
٣ — غير ذي مثنوية : لا يستثنى فيها شيء .

يُصانعْنَهُم حتى يُغِرن مَغارَهُم
من الضّارياتِ بالدّماءِ الدّواربِ [1]

تَراهُنَّ خَلفَ القومِ خُزْراً عيونُها
جُلوسَ الشّيوخِ في ثيابِ المرانبِ [2]

جَوانِحَ قد أيقنَّ أنّ قبيلَهُ
إذا ما التقى الجيشانِ أوّلُ غالبِ

لهنّ عليهم عادةٌ قد عرفنها
إذا عُرِّضَ الخطّيُّ فوق الكواثبِ [3]

على عارفاتٍ بالطّعانِ عَوابسٍ
بِهنَّ كُلومٌ بينَ دامٍ وجالبِ [4]

اذا استُنْزلوا عنهنّ للطعْنِ أرْقلوا
إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ [5]

فهم يَتساقَوْنَ المنيّةَ بينهم
بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضاربِ

---

١ – يصانعنهم : يحسن صحبتهم . الضاريات الدواوب . الخيول المجربة في الحرب .

٢ – خزراً عيونها : تنظر بمؤخر العين . ثياب المرانب : ما صنع من فرو الارنب .

٣ – الخطي الرمح المنسوب الى الخط : الكواثب : جمع كاثبة ؛ اعلى ظهر الفرس .

٤ – الجالب : الجرح الذي جفّ دمه .

٥ – أرقل : مشى بسرعة .

يَطيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قونسٍ
ويتبعُها منهم فَراشُ الحواجبِ [1]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم
بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومَ حليمةٍ
الى اليومِ قد جُرِّبْنَ كلَّ التجاربِ

تقُدُّ السّلوقيَّ المضاعف نسجُهُ
وتُوقِد بالصُّفَّاح نار الُحباحبِ [2]

بضربٍ يزيلُ الهام عن سكناتهِ
وطعْنٍ كإيزاغ المخاضِ الضَّواربِ [3]

لهم شيمةٌ لم يعطها الله غيرهم
من الجودِ والاحلامُ غيرُ عوازبِ

مجلّتُهم ذاتُ الاله ودينهم
قويمٌ ، فما يرجون ، خيرُ العواقب

رقاق النعالِ طَيّبٌ حجزاتهم
يُحَيّونَ بالرّيحانِ يوم السّباسبِ

---

١ – الفضاض : الشظايا المتفرقة . القونس اعلى البيضة .
٢ – السلوقي : الدرع المصنوعة في سلوق .
٣ – السكنات : مقر الرؤوس من الاعناق . الايزاغ : دفع الناقة ببولها . المخاض : النوق الحوامل .

تُحيّيهِمُ بيضُ الولائد بينهم
وأكسيةُ الإضريجِ فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها
بخالصةِ الأردان خُضرِ المناكب
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده
ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازبِ
حَبوتُ بها غسان اذ كنتُ لاحقاً
بأهلي وإذ أعيَتْ عليَّ مذاهبي

يطالعنا في هذا المديح كونه غير مبتدىء بالغزل ونعت الديار ، مع أن زي العصر كان يفرض ذلك . ولكن الموقف الذي وقفه الشاعر قد حال دون انطباق القاعدة عليه ، فخير ما يقدم به النابغة شعره ـ وهو هارب من الموت،ملهوف الى من يغيثه ـ أن يتحدث عن حاله ،وان يستنطق وجدانه ، فيصف ما كان يلم به حين وصل الى بلاد الغساسنة ، قاصداً حمايتهم له وكأنما يريد أن يقول : أيتها الحبيبة دعيني من الحب ومن ذكر الصبابات وأخبار الهوى ، فان في النفس ما يقض مضجعي وما يقلق مني الخواطر . كليني لهذا الهم الشديد ، ولليالي السوداء أقاسيها ، وهي تطول علي ، كأنما ليس لنجومها من مغيب .

ومن شكوى الهموم ينتقل الشاعر الى المديح ، فيذكر نعمة الملك ونعمة والده أيضاً ، وكرم النفس لديهما ، ثم يتحدث عن شجاعة الممدوح وعظمة جاهه وقوة جيشه وأيامه الغر وفرسانه الاماجد ، ولا يقتصر في المدح على عمرو بن الحارث الغساني وحده ،

بل يمدح الغساسنة جملة ويصف وقائعهم وأسلحتهم معرضاً بالمناذرة الذين انهزموا يوم حليمة في حربهم ضد بني غسان . وبعد أن يشبع الحروب والأسلحة الغسانية وصفاً ، يتناول أخلاق ملوك الشام وجودهم وعفتهم واستقامتهم في الدين ومخضل العيش عندهم ونعيم الحياة ، وما الى ذلك من صفات الأشراف وأهل النبل في الجاهلية . والحقيقة أن مديح النابغة هو خير ما يتوجه به الى الملوك في ذلك الحين ، وهو يدل على أن الشاعر كان عارفاً بأحوال الممدوحين معرفة تامة ، وعارفاً بما يرضي الغساسنة من جميل القول .

وما كان عبثاً أن يهتم أبو أمامة بحروب بني غسان ، لانهم قوم محاربون تميزوا عن المناذرة بوقائعهم الجليلة، وبحبهم للحرب، ومحافظتهم على صفات بدوية كان ملوك الحيرة قد أهملوها . ومما يسجل في هذه المدحة أيضاً تغني الذبياني بدين الغساسنة وبكتابهم المقدس ، فهم قوم نصارى متمسكون بأهداب الدين ، متعصبون لعقيدتهم ، مفاخرون بها .

ومديح النابغة يتسم بالجلال والاريستوقراطية وفخامة اللفظ ، والرصانة في التعبير ، والاتزان في الفكر ، وهو يعكس لنا أحوال الجاهليين الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية ، ويرينا صورة لهذا البدوي الذي زار الحواضر ، فتلون شعره بألوانها .

رقاق النعال طيب حجزاتهم ... يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الأضريج فوق المشاجب

**مدح النعمان ملك الحيرة والاعتذار اليه :**

يا دارَ ميَّةَ بالعلياءِ فالسَّنَـدِ
أقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ [1]

وقفتُ فيها أصيلاً كيْ أسائِلها
عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع من أحدِ [2]

إلاّ الأواريَّ لأيا ما أُبَيِّنُها
والنُّؤْيَ كالحوضِ بالمظلومة الجلدِ [3]

رُدَّتْ عليه أقاصيهِ ولبَّدهُ
ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثَّأد [4]

خلَّت سبيلَ أتيٍّ كان يحبسُهُ
ورفَّعتهُ الى السَّجفين فالنَّضَدِ [5]

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ [6]

---

١ – العلياء : المرتفع . السند : الوادي . أقوت بليت .
٢ – اصيلا : بعد العصر . عيت : عجزت .
٣ – الأواري : اطراف الحبال التي تشد الطنوب ، لأيا : بتعب. النؤي : حفرة حول الخيمة تمنع الماء من دخوله اليها . المظلومة . الارض الصلبة .
٤ – الوليدة : الفتية الصغيرة . المسحاة الرفش ، الثأد : الندى
٥ – الأتيّ : السيل ، السجفان : ستاران في طرف الخيمة .
٦ – أخنى عليها : أتى عليها ، افسدها . لبد : النسر السابع الذي رباه لقمان .

فعدِّ عمّا ترى إذْ لا ارتجـــاع له
وانمِ القتُود على عَيرانةٍ أُجدِ[1]

مقذُوفةٍ بدخيس النّحض بازِلُها
له صريفٌ صريفَ القَعو بالمسَدِ[2]

كأنّ رحلي وقد زال النهارُ بنا
يومَ الجليـل على مستأنسٍ وحدِ[3]

من وحش وجرة مَوشيٍّ أكارعـــهُ
طاوي المصير كسيفِ الصيقل الفردِ[4]

سرت عليــه من الجوزاء ســـاريةٌ
تُزجي الشمالُ عليــه جامد البردِ

فارتاع من صوت كلاّبٍ فبـات له
طوع الشـّوامت من خوف ومن صردِ[5]

فبثّهنّ عليــه ، واستمرّ بـــه
صُمعُ الكعوب بريئاتٌ من الحردِ[6]

---

١ — القتود : رحال النوق. عيرانة: ناقة كالعير . أجد قوية موثقة الخلق.
٢ — دخيس النحض : اللحم الكثير . البازل : النـــاب . القعو : بكرة الحبل ،
٣ — زال النهار : بلغ الظهر وقت زوال الظل ،
٤ — أكارعه : قوائمه . المصير : المعي ،
٥ — الجوزاء : نجم عال في السماء . سارية : عاصفة .
٦ — الكلاب : الصياد — الشوامت : القوائم — الصرد : البرد ،

وكان ضُمرانُ منه حيث يوزعـــهُ
طعن المعارك عند المحجر النَّجُد [١]
شكَّ الفريصة بالمدرى فأنفذهـــا
شكَّ المبيطر إذ يشفي من العَضدِ [٢]
كأنه خارجاً من لوح صفحتـــه
سفُّود شرْبٍ نسوه عند مُفتأدِ [٣]
فظلَّ يعجمُ أعلى الرَّوق مُنقبضاً
في حالك اللون صدقٍ غير ذي أودِ [٤]
لما رأى واشقٌ إقعاص صاحبـــه
ولا سبيل الى عقـــل ولا قودِ [٥]
قالت له النفس إني لا أرى طمعـــاً
فإنَّ مولاك لم يسلم ولم يصـــدِ

---

١ – ضمران : اسم كلب . يوزعه : يغريه . المحجر : الملجأ ، النجد : الشجاع .

٢ – الفريصة : عضلة الكتف ، المدرى : القرن ، العضـــد : مرض يعرج به الحيوان .

٣ – مفتأد: موقد النار .

٤ – يعجم : يعضّ . الروق : القـــرن . صدق : مستقيم ، أود : اعوجـــاج .

٥ – واشق : اسم كلب ثان . اقعاص : الموت السريـع . عقل : دية . القود :القصاص .

فتلك تُبلغني النعمان إن له
فضلاً على الناس في الأدنى وفي البُعد

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه
ولا أُحاشي من الأقوام من أَحد

إلا سليمان ، إذ قال الإله له
قم في البرية فاحددها عن الفندِ [1]

وخيّس الجن إني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصُّفّاح والعمدِ [2]

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته
كما أطاعك وادلُله على الرشدِ

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهى الظلوم ، ولا تقعد على ضمدِ [3]

إلا لمثلك أو من أنت سابقُهُ
سبق الجواد إذا استولى على الأمدِ

أعطى لِفارهةٍ حُلوٍ توابعها
من المواهب لا تُعطى على نكدِ [4]

---

١ – الفند : الفساد .
٢ – خيّس : ذلّل ، استخدم . الصفاح : الحجارة الكبيرة .
٣ – ضمد : الحقد والبغضاء .
٤ – الفارهة : الناقة الكريمة .

الواهب المئة المعكـــاء زيَّنها
سعدانُ تُوضِح في أوبارها اللبدِ [1]

والساحبـــات ذيول الرَّيط فنَّقها
بردُ الهواجر كالغزلان بالجردِ

والخيلَ تمزعُ غرباً في أعنَّتهـا
كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذي البردِ [2]

والأدْم قد خُيِّست فُتلاً مرافقها
مشدودةً برحــال الحيرة الُجدُدِ [3]

أُحــكم كحكم فتاة الحيِّ إذ نظرت
إلى حمــامٍ سراعٍ واردِ الثَّمدِ

يحفُّهُ جانــبا نيقٍ وتتبعهُ
مثل الزُجاجة لم تُكحل من الرَّمدِ [4]

قالت ؛ ألا ليتما هذا الحمـــام لنا
إلى حمامتنا ونصفه فقدِ

فحسَّبوهُ فألفــوهُ كما حسَبَت
تسعاً وتسعـــين لم تنقص ولم تزدِ

---

١ – المعكاء : السمينة . السعدان : نبات تسمن به الابل .
٢ – تمزع : تمرمراً سريعاً . غربا : ضامرة .
٣ – الأدم : جمع أدماء ، وهي الناقة البيضاء .
٤ – نيق : جبل .

فكمّلت مئةً فيهـــا حمامتُهـــا
وأسرعت حِسبةً في ذلــك العددِ

فلا لَعمرُ الذي مسّحتُ كعبتَــهُ
وما هُريق على الأنصاب من جسدِ [1]

والمؤمنِ العائـذاتِ الطّيرَ تمسحُها
رُكبانُ مكة بـين الغيل والسّعَدِ [2]

ما قلتُ من سيّىءٍ مما أُتيت به
إذاً فلا رفعت سوطي إلىّ يـدي

إذاً ، فعاقبني ربّي مُعاقبـــةً
قرّت بها عينُ من يأتيك بالفندِ [3]

هذا لِأبرأَ من قول قـــذفتُ به
طارت نوافـذهُ حرّاً على كبدي .

أُنبِئتُ أَنّ أبا قابوس أوعـــدني
ولا قرار عـــلى زأرٍ من الأسدِ

مهلاً فداءٌ لك الأقوامُ كلُّهمُ
وما أُثمّرُ من مـالٍ ومن ولدِ

---

١ – مسح الكعبة : طاف بها ولمسها تبركا . هريق وأريق الدم : أجري على الأرض .

٢ – العائذات : الملتجئات . ركبان مكه : الحجيج – الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى

٣ – الفند : الكذب والمفسدة .

لا تقذفنّي بركنٍ لا كِفاءَ له
وإن تأثّفكَ الأعداءُ بالرِّفدِ[1]

فما الفُراتُ إذا هبّ الرِّياحُ له
ترمي أَواذيُّه العِبرينِ بالزّبدِ[2]

يُمدُّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لجِبٍ
فيه رُكامٌ من الينبوت والخضدِ[3]

يظلُّ من خوفه الملاحُ مُعتصماً
بالخيزُرانة، بعد الأينِ والنّجَدِ[4]

يوماً بأجودَ منهُ سَيبَ نافلةٍ
ولا يحولُ عطاء اليوم دون غدِ

هذا الثناءُ فإن تسمع به حسناً
فلم أُعرّض أبيت اللعن بالصَّفدِ[5]

ها إنّ ذي عِذرةٌ إلا تكن نفعَت
فإنّ صاحبها مُشاركُ النّكدِ.

---

١ – تأثفك الاعداء: اجتمعوا حولك. الرفد: المعونة.

٢ – الأوذاي: الامواج. العبرين: الضفتين.

٣ – لجب: الطامي الكثير الماء. ركام: حطام متجمع. الينبوت والخضد: نوعان من الشجر.

٤ – الخيزرانة: دفة السفينة. الأين: التعب. النجدة: الشدة.

٥ – ابيت اللعن: أبيت ان تأتي أمراً تلعن به الصفد العطاء.

هو ذا المديح الأصيل في عهد الجاهلية ، يبدأ بالوقوف على الأطلال ثم ينتهي الى ذكر الأحبة واستعراض ايام الهوى في ربوع الديار، لينتقل بعد ذلك انتقالاً مفاجئاً الى وصف الناقة وتشبيهها بحمار الوحش أو بثور من ثيران وجرة ، فاذا وفّى الشاعر هذه الامور حقها من الوصف المفصل ،وثب الى غرضه ،فتحدث عن الممدوح وعما يضمن رضاه ، حديثاً فيه كثير من الممالأة والرياء لدى شعراء التكسب .

وها هو النابغة استاذ المديح في عهد الجاهلية يصف ديار ميّة بالعلياء فالسند . ويقف فيها عند الأصيل ، وقد انتشرت في الجو مظاهر الكآبة ، وبدت خيبة الآمال مع انتهاء نهار هو قطعة من عمر البشر . ويسأل الشاعر دار حبيبته عما حل بتلك الحبيبة فتعيا الدار عن الجواب ، ويغص النابغة بدمعة في عينه وحسرة في فؤاده . ويلقي نظرات على المكان فلا يرى فيه إلا الأواري والنؤي والفراغ المخيف ، ثم يهز برأسه ويجمجم بين شفتيه :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذي أخنى على لبد

شعر جميل نابع من أعماق الفؤاد ، فيه مسحة البداوة وجمال الفطرة ، وصفاء السماء في الصحراء . ولكن النابغة لا يطيل الوقوف ، بل تتعجله الغاية فيرفع قتوده على ناقة عيرانة سمينة ، فتية في عمرها ، قوية في تسيارها ، جبارة في تحملها المشقات

الطريق وحرارة الهجير ، كأنها ثور وحشي من ثيران وجرة . ويترك الشاعر ناقته زمناً ، ليصف الثور فيأتي على كل ما يظهر قوته وسرعته . وتطول المقطوعة لديه حتى تبلغ أحد عشر بيتاً ، وهي تحتوي على عراك الثور مع كلاب الصيد ، حتي إذا أشبع النابغة هذه النقطة إيضاحاً ، انتقل الى الممدوح قائلاً :

إن ناقة مثل هذا الثور هي التي تبلغني النعمان ، ويمضي معدداً فضائل الملك ، فهو كريم عم جـوده البرية في الأدنى وفي البعد ، ليس له بين الناس شبيه الا سليمان الحكيم الذي قـــد وسع الله سلطته حتى شملت الجن والانس والطير وكل ما في الوجـــود . وإذا مدح النابغة ملكاً ذكر عطاياه من مال الى خيل الى إبل الى جوار ، ثم عمد الى تبيان غايته وهي هنا الاعتذار وطلب العفو والغفران من الملك . والنابغة لبق في هـذا الأمر فهو يطلب من النعمان التروّي في الحكم ، ثم يبرىء نفسه مما قذف به ، ويبين ضعفه أمام الممدوح ليعود بعد ذلك فيتلاعب بعواطف الملك ويستغل ميوله نحو العظمة والظهور فيزيد من مدحه بكرم النفس وكرم اليد ، ويثني عليه ثناء كان الملك يستسيغه ويتمناه ، ليختم قصيدته بشيء من التصاغر أمام النعمان ، وبمسكنة تستدر رحمـة الملك وتجتذب عفوه .

والذي يمتاز به هذا المديح ، هو سطحية المعاني وضآلة ما يأتي به الشاعر من مظاهر العظمة وانصراف الشعراء الى الحشو بقصص وأخبار وصور تساعد بعض المساعدة على إيضاح ما هم بصدده . وفي هذا المدح سذاجة وفطرية وانعكاس لقيم الحيـاة

الجاهلية ، وصورة للمادح والممدوح ، وجوانب متعددة من حياة البدو في الصحراء . والقصيدة النابغية كسائر الشعر الجاهلي لا تكون وحدة ، فهي أبيات مستقلة تتناول أغراضاً متباينة ، وهي مع ذلك لا تخلو من جمال فني وعذوبة في الصياغة . والنابغة ينتمي الى مدرسة المجودين في الشعر المتأنقين في صوغه فهو يقلب الأبيات على وجوهها المختلفة ويتعمل فنه ويعيه ويعنى بإخراج شعره حتى يوفر له جميع مظاهر الروعة الفنية التي عرفها الجاهلي . وفي هذا الشعر خيال مصقول ونزعة حسية مادية وأناة وروية وتدمث بمدمثات الحضارة في الشام والعراق .

# المدیح في عهد النبوّة والراشدين

**الشخصية الاسلامية :**

إن أعظم حدث في حياة العرب ، كان — ولا ريب — ظهور الدين الاسلامي . ظهر هذا الدين مع محمد بن عبدالله ، سنة عشر وست مئة للميلاد ولكنه في الحقيقة لم يكن مجرد حركة روحية ، بل هو مجموع حركات انتظمت الى جانب الروح ، الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وتمثلت فيها طاقات العرب التي كانت تتبلور يوماً بعد يوم وتتحفز للوثوب في أواخر العصر الجاهلي .

ونحن في هذا المقام ، لن نتحدث عن أثر الإسلام في حياة العرب من جميع جهاتها ، ولكننا سنهتم فقط بما كان للاسلام من مساهمة في تبدل الشخصية العربية ، وتعديل في المثل العليا التي كان فن المديح ولا يزال تغنّيا بها ، وإشادة بمن هم عليها يحافظون .

إن أول ما يتبدرنا حين نستعرض معادلة الشخصية الاسلامية ،

هذا التغير في مفهوم وجود الفرد ، لا من حيث علاقته بالسماء ، - وان كان ذلك قد تغير أيضاً - بل من حيث علاقته بالأرض، وعلاقته بالناس الذين يحيا بين ظهرانيهم .

ذلك أن القبيلة في الاسلام قد ذابت كنظام اجتماعي سياسي، ديني أيضاً ، ولم يعد وجود الفرد رهناً بوجود قبيلته أو وقفاً عليها كما كان في العصر الجاهلي. وانما طرأ على هذا المفهوم تعديلان: أولهما اتساع في مدى الروابط التي تشد الانسان الى أخيه الانسان، بحيث أن الأخوّة لم تعد تقتصر على أبناء القبيلة ، بل تجاوزتهم الى كل من يدين بالإسلام ، مهما يكن موطنه ولونه وجنسه . وثانيهما أن ذاتية الفرد قد نمت واتسع نطاقها واستقلت في كثير من شؤونها تبعاً لما حمل الاسلام من تشريع مدني يساعد على ينباع الشخصية الفردية ، ضمن متسع من حياة الجماعة ويجعل الفرد وجهاً لوجه أمام تبعات خاصة به ناشئة عن سلوكه كفرد حرّ مستقل .

من هنا كان تحول في النظرة الى الرجولة، وتحول في مسالك الأشخاص وفي غاياتهم ، وفي مواقف الشعراء من قبائلهم ومن ممدوحيهم .

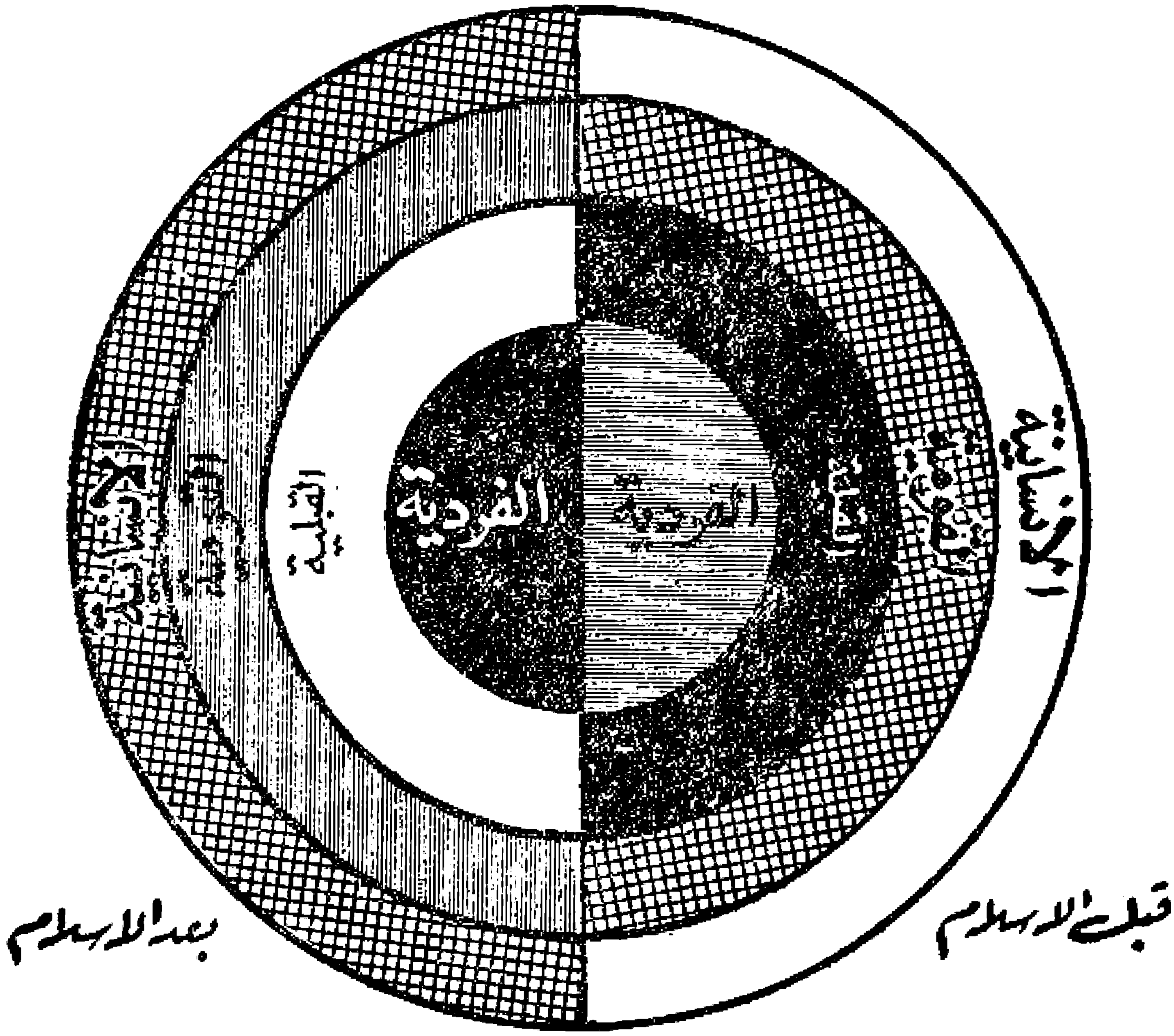
ولقد جاء الاسلام بمناقب جديدة مستمدة من تعاليمه ونظمه ، وإن كان في هذه المواقف ما لا يختلف اختلافاً كبيراً عن بعض ما كان الجاهليون يأخذون أنفسهم به . فمن المعطيات الجديدة ، أن الخمرة والزنى ، والاغارة على الآمنين ، والثأر ، لم تعد موضعاً للفخار كما كانت زمن الجاهليين. ولم يعد النزق والطيش

والجهالة والفظاظة وقسوة القلب والكبرياء من مظاهر الفتوّة .

أما حب الدماء وكثرة التقتيل ، ووأد البنات فقد أضحت مآثم كريهة . ولقد خفف الاسلام كثيراً من أهمية المظاهر المادية فلم يعد الغنى مجالاً للتباهي وموضوعاً للمديح . ولم يعد ينظر الى أهل القصور والى المنعمين بالعيش ، بنفس المقياس الذي كان ينظر اليهم به قبل ظهور الاسلام . بل أصبح ديدن القوم « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » «لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » فكل ما هو من مظاهر التقوى عدّ سبيلاً الى المدح على نحو ما مدح الله أولياءه الصالحين : «قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون» «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين» على أن الشخصية الاسلامية قد حافظت أيضاً على خصائص عربية أصيلة ، عرفها الجاهليون وأكبروها كما أكبرها الاسلام . من هذه الخصائص : الكرم والضيافة ، وحسن الجوار ، والمروءة والاباء والحلم والعفو والعدل والشجاعة والعفة ، ونكران الذات والرصانة والوقار وما الى ذلك من صفات تصلح لأن تكون مبادىء لتربية الانسان في كل قطر وجيل .

والحق أن شخصية العربي بعد الاسلام لم تكن نقيضاً لشخصيته قبله بالمعنى التام لكلمة النقيض ، وانما هنالك جوانب قد زالت من هذه الشخصية لتحل محلها جوانب أخرى كان هنالك جوانب كانت ضعيفة

فقويت ، وجوانب كانت قوية فغدت على شيء من الضعف ، كما يبدو من الرسم التالي :




وقد يكون من المفيد ، أن نذكر في هذا المقام صفات الشخصية المثالية التي يدعو القرآن الى تكوينها .

المسلم مؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، وهو تقي ورع متواضع ، زاهد بالدنيا ، أميل الى التقشف منه الى حب الرخاء ، في ماله «حق معلوم ، للسائل والمحروم» يساعد اليتيم ، ويحاضّ على طعام المسكين ، ويغيث أبناء السبيل هو شجاع يجاهد في سبيل الله ، ويرحم الأسرى ، لا يمثّل بعدوه ، ولا يهتك الحرمات ،

ولا يسرق ولا يكذب ، ولا يعتدي على جيرانه ، ولا يرابي ولا يقامر ، ولا يزني ، ولا يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهو رجل صبور على الملمات متفائل ، يخـــاف الله وغضبه ، ويحب الناس ويحترمهم ، ولا يريد لأخيه إلا ما يريده لنفسه. يحافظ على الصلوات ، ويقوم بشعائر الدين ، فيصوم ويزكي ، ويحج الى بيت الله ، ويستغفر ربه ، ويستجير برسوله ، يعمـــل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً ، يكبح شهوات نفسه وبالأخص ما هو منها محرم ، ويسعى في مناكب الأرض فيأكل من طيبات ما رزقه الله ، وهو غيور على الدين وعـلى الفضيلة ، محب للعلم منكر للذات ، أبيّ على الدنيئة .

## شعر المديح في أيام النبي والراشدين :

إن النهضة الشعرية التي عرفها العصر الجـــاهلي قد استمرت آثارها في الاسلام. ولكن ظهور الدين الجديد ، قد رافقه بفعل الظروف التي أحاطت به بعض الفتور لدى شعراء العصر ، وذلك بسبب الحملة التي شنها القرآن على الـكافرين الذين اتهموا محمـداً بأنه شاعر وقالوا عن القرآن : إنه شعر ، وغايتهم من ذلك الحط من قدر رسالة محمد وإظهاره بمظهر المشعوذ الذي يريد أن يوهم الناس بأنه نبي يوحى اليه القرآن إيحاء من لدن الله ، في حين أنه يستمده في زعمهم من شياطين الجن على نحو ما كان الشعراء

يستمدون أشعارهم [١] . ولقد جاء في القرآن الكريم : «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ » .

«وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا وحي وقرآن كريم » «وماهو بشاعر مجنون» «وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى» .

أمام هذه الظواهر ، لم يكن بدّ من أن يبتعد بعض المؤمنين عن نظم الشعر وأن يطلقوا حياة الغواية التي كانت لهم ، فينصرفوا عن التغني بالمفاسد الى الصلوات والتراتيل ، وتوحيد الله وتسبيحه وامتداح النبي ورسالته وتمجيد الابطال والمجاهدين في سبيل الله . ولكن عدداً وفيراً قد أقلع عن نظم الشعر إقلاعاً نهائياً . أما الشعراء غير المسلمين فقد عادوا النبي، واتخذهم الكفار سلاحاً ضد الاسلام . فأخذوا يهجون محمداً ويهجون رسالته وأصحابه . ولا تسل عن أثر هذا الهجاء في صفوف المسلمين، وفي إضعاف حركتهم خصوصاً اذا استعدت في ذاكرتك أهمية الشعر عند العرب

---

١ – كان الجاهليون قد لاحظوا ما في الشعر من التفاتات غير عادية ، فأرادوا أن يفسروا العبقرية الشعرية، ولكن لم تكن ثقافتهم آنذاك تؤهلهم لان يفهموا سر هذه العبقرية – وهو حتى اليوم ما يزال يكتنفه بعض الغموض – فردوا هذا الخارق الجميل الى قوى غير بشرية ، هي قوى شياطين الجن الذين كانوا ينفثون الشعر في ألسن الشعراء ، فكل شاعر له شيطان يلقنه شعره ، والشياطين جميعاً يقطنون في واد وهمي يسمى وادي عبقر ومن هنا كلمة العبقرية .

وتعويلهم على الجيد منه سواء أكان في الهجاء أم في المديح أم في الحكمة أم في أي غرض آخر . ومن أشهر هؤلاء الشعراء : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاصي.

هنا وجد النبي نفسه في حاجة الى نصرة من نوع آخر ، هي نصرة غير مادية ، واضطر أن يحارب الكافرين بسلاح مثل سلاحهم . فاتخذ من حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبدالله ابن رواحة شعراء يردون على هجاة النبي ويسفهون قولهم ، ويذكرون مثالبهم ويفندون كل مزعم من مزاعمهم .

ذكر صاحب الأغاني [1] « ان حساناً وكعباً كانا يعارضان هجاة النبي بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . وكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب . وأهون القول عليهم قول بن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول بن رواحة . » .

والمشهور أن أبا بكر وهو نسابة ضليع ، كان يمد شعراء الاسلام بما يحتاجون اليه من معلومات حول مواضع النقص ومواطن الغمز في كل شاعر كافر . ولكن عمل شعراء النبي ، لم يقتصر على هجاء الأعداء ، وإنما كان يتجاوزه الى امتداح النبي وصحبه ، وذكر فضائل الدين وما يحمل للناس من بركات وخير .

والحق ، أن شعر المديح في هذه الآونة ، قد ضعف كثيراً،

---

١ — ج ٤ — ١٥ — ٢٩

لأنه مظهر من مظاهر الأبهة والكبرياء والتعاظم ، وكلها أمور نهى عنها الدين ، وأوصى بالوداعة والتواضع وخفض الجناح . فالنبي مثلاً لم يكن يحب أن يمتدح بما كان يمتدح به الملوك ، بل كان يحث الشعراء للالحاح على معطيات تخص الدين ، وتساعد على نشره والتمكين له في الأرض .

وعلى هدي الرسول سار الخلفاء الراشدون ، بحيث لم نر بينهم من يجعل مجلسه ندوة للشعراء . نقول مجلسه ولا نقول بلاطه ، لان الراشدين لم تكن لهم بلاطات ، ولم يكن لهم أي مظهر من مظاهر الملك المعروفة عند الأعاجم أو التي ستكون للأمويين والعباسيين من بعد . وهكذا لا يبرز أمامنا زمن النبي والراشدين شعر في المديح يستحق الذكر ما خلا المدائح التي قيلت في محمد ودينه .

**من شعر حسان بن ثابت :**

كان حسان من أهل يثرب ، وكان على صلة بالغساسنة في الجاهلية ، ثم على صلة بالنعمان الثالث أبي قابوس ملك الحيرة وصاحب النابغة الذبياني . كرّس جانباً من شعره للتكسب ، وجانبا آخر للمنافحة عن قومه الخزرج ، وفي هذا الجانب شعر غير قليل تهاجى فيه وقيس بن الخطيم شاعر الأوس في يثرب . أسلم حسان يوم دخل محمد يثرب مهاجراً كما أسلم قومه الخزرج وأندادهم الأوس . وكان من فضل الاسلام أن أضعف الى حد بعيد تلك المنافسة الشديدة التي عرفت بين الجماعتين ، فتوحدت

الكلمة ، وأصبح اليثربيون جميعاً انصاراً للنبي في كل شأن من شؤون الحيـــاة . آووا المهاجرين ، وأطعموهم وأكرموهم ، وحاربوا معهم ضد الكفار وشاركوهم في السرّاء والضرّاء .

أما نصيب حسان من الجهاد ، فكان في حقول الشعر ، إذ وقف قريحته وبلاغته على الاسلام ، يرد عنه ويمدح نبيّـــه ، ويتغنى بوقائع المسلمين ، ويدعو القبائل الى اعتناق الدين الحنيف ، واذا حدث أن انهزم المسلمون ، فان حسانا كان يحوّل الهزيمة الى مجال للفخر بما لديه من حنكة وشاعرية .

ولقد عمّر حسان كثيراً ، فقيل : إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين سنة . وسواء صح هذا الخبر أولم يصحّ ، فان لحسان خدمات جليلة في سبيل الاسلام لا تنكر ، ومكانة أحيطت بهالة من التقديس والاحترام بسبب الشعر الكثير الذي نظمه درءاً عن الاسلام وتغنياً بنبيّه .

ومن أشهر قصائده في المدح الاسلامي ؛ [١] — تلك التي تحدث فيها عن فتح مكة فقال :

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجِواءُ
إلى عذْراءَ منزلُهـــا خَلاءُ

ديارٌ من بـــني الحسحاسِ قفرٌ
تُعَفّيهـــا الرّوامسُ والسّماء .

---

١ — لن نتحدث في هذا المقام عن مديحه في الجاهلية .

وكانَت لا يزالُ بهــا أنــينُ
خِلالَ مُروجها نِعمٌ وشــاءُ

فدَع هذا ، ولكن مَن بِطَيفٍ
يُؤرِّقــني إذا جــاء العشاءُ [1]

عَدمنا خيلنا إن لم تَروهــا
تثير النقع موعِدهــا كدَاءُ [2]

يُبـارين الأسِـنّة مُصغيــاتٍ
على اكتافِهــا الأسَلُ الظِّماءُ [3]

فإمّــا تُعرضوا عنّا اعتمرنا
وكان الفتحُ وانكشف الغطاءُ [4]

وإلاّ فاصــبروا لجــلادِ يومٍ
يُعــينُ الله فيــه مَن يَشاءُ [5]

وقال الله قــد يسَّرتُ جُنـداً
هُمُ الانصارُ عُرْضَتُهــا اللّقاءُ

---

١ ـ الطيف : صورة الانسان الذي نراه في المنام . يؤرقني : يمنع عني النوم .

٢ ـ النقع :الغبار المتصاعد من المعارك . كداء : موضع في مكة من مقابر المكيين .

٣ ـ الأسل : الرماح الطويلة .

٤ ـ اعتمر الحاج : ادى فريضته :

٥ ـ الجلاد : القتال الطويل .

لنـــا في كلّ من يومٍ مَعدّ
قِتالٌ أَو سِبابٌ أو هجــاءُ

فنحــكمُ بالقوافي من هجـانا
ونضربُ حين تختلطُ الدماءُ.

وقال اللهُ قد أرسلتُ عبـداً
يقول الحق إن نفع البـلاءُ

شهدتُ بـه وقومي صـدّقوه
فقلتُمْ ما نجيبُ ومـا نشاءُ

وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا
وروحُ القُدسِ ليس لهُ كفاءُ[1]

ألا أبلـغ أبا سُفيانَ عنّي
فـأنت مُجوّفٌ نَخِبٌ هواء[2]

بأنّ سيوفنا تركتك عبـداً
وعبـدُ الدار سادتهـا الإماءُ[3]

هَجوتُ محمـداً فأجبتُ عنـهُ
وعنـد اللهِ في ذاك الجـزاءُ

---

١ – ليس له كفاء : ما من احد يساويه في القدر .
٢ – نخب : فارغ .
٣ – بنو عبد الدار : اجداد امية – الامـاء جمع امة وهي الرقيقة السوداء .

أتهجوهُ ولستَ له بكفءٍ
فشرُّكُما لِخيرِكُما الفداءُ

فمن يهجو رسولَ اللهِ منكُم
ويمدحهُ وينصرهُ سواءُ

فإنَّ أبي ووالدهُ وعِرضي
لِعِرضِ محمدٍ منكُمْ وقاءُ .

هذه عيّنة من شعر حسان في مديح النبي والذود عن الاسلام، والردّ على اعدائه . بدأها بوصف الديار ، ديار حبيبته في ذات الأصابع والجواء وعذراء ، وكلها منازل للغساسنة في بلاد الشام. ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو هذا العفاء في مواطن الأحبة، وقد القى على المكان وشاحاً قاتم اللون، واذا الشاعر في كآبة تزداد حدة لهذا الخلاء الذي يترك في فؤاده فراغاً مؤلماً، ويزيد من حرارة الشوق الى الحبيبة ومن ألم الفراق. ومعلوم أن الوقوف على الأطلال، ووصف ديار الأحبة، زي قديم في الشعر العربي، تزيّا به الجاهليون جميعاً ، ثم استمر في الاسلام يحياء تماماً كما كان في العصر الجاهلي، ذلك أن انتقال العرب بين ليلة وضحاها من جاهلية الى أسلام لم يكن ليغير في جوهر الشعر العربي من حيث أصالته ، ومن حيث عناصره الفنية .

ويمضي حسان في الحديث عن الديار ، فيذكر أن العفاء ناتج عن تلاعب الرياح بها ، تحمل معها أتربة ورمالا فترمس أرضها وتغطيها بحيث لا يظهر منها أثر ، ثم تساقط الامطار من كبد

السماء ، فتكون عونا للرياح على تعفية أطلال الأحبة . ويأسف الشاعر لخلوّ الدار . ولكن ترابط الافكار يعود به الى الماضي ، فينصت للذكرى ، ويخيل اليه أنه أمام الديار العامرة من جديد وقد ضجت فيها الحياة ، وبات الانيس يضفي على العيش لذاذة ، وكأنك تسمع بأذنيك ثغاء الشاء ، أو ترى بعينيك الى الانعام تسرح في المروج وتمرح .

وتأتي ساعة اليقظة ، فيودّ حسان بن ثابت أن يـــدع هذه الذكريات وأن يعدّي عنها كما كان النابغة يعدّي عن أمثالها من قبل . ولكن ، أنـّى له النسيان ، وفي ظلمة الليل بعد انتهاء السهر ، يزوره طيف الحبيب فيؤرقه ؟

وبعد وصف الطلول وتذكر الأحبة ، يتحدث حسان عن الخمر رابطاً بين الغرضين بفكرة ، مفادها أن في ثغر حبيبته مايشبه الخمر طعماً ورائحة وفعلاً . ولكن الاسلام قد حرم شرب الخمور ، وحسان واحد من الذين امتنعوا عن تناولها ، إلا انه يذكرها في هذا المقام لغرض فني فقط ، ويلقي عليها تبعة المساوىء التي يأتيها القوم المخمورون .

أما الغرض الثالث في قصيدته ، فهو التحدث عن بطولات الانصار ومن معهم من المسلمين ، يمتطون خيولاً تثير النقع في الجو ، وتدخل مكة من جانب كداء [1] وأنها لصورة جميلة جداً تلك الصورة التي كنـّى بها عن سرعة الخيول ، فجعلها تسابق

---

١ – ثنية الجبل التي في اصلها مقبرة مكة ومنها دخل الزبير يوم الفتح .

الرماح المسددة الى الاعداء من فوق ظهورها ، كأنما هي في مباراة مع هذه الرماح ، تريد أن تسبق أسنة فرسانها ، والأسنة الى دم الكفار ظماء .

ثم يلتفت الشاعر الى المكيين الكافرين ، فيقول لهم : أنتم أمام أمرين : إما أن تسكتوا عنا وتسالمونا ، فندخل مكة صلحاً ونعتمر بالحج لأداء فريضة دينية ، وإما أن تحاربونا فنفتك بكم بعون الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء بغير حساب . أما تعلمون أننا جند الله نصرنا دينه ونصرنا نبيه ، ونحن قوم أقوياء في الحروب مجربون ، لنا في كل يوم حرب مع بني معدّ ، وعلى رأس معد قريش ، حرب تكون قتالاً أو تكون سباباً أو تكون هجاء ، وفي الساحتين معاً ؛ ساحة الدماء وساحة الشعر يكون حليفنا النصر ، ولا جرم ، فديننا من الله ، وعلى رأسنا رسوله ، نبي جاء بالحق يبشر به الناس في سبيل نفع الناس . آمنت به وآمن قومي كذلك ،وصدقوه ، فكانوا الى الخير سباقين ، وأما أنتم فتلكأتم عن الايمان ، وعنتم ، فذوقوا من شر ما كفرتم ، والله لا ينصر غير المؤمنين .

إن فينا لقوة ما من كفاء لها ، قوة الهدي يأتي بها جبريل أمين الله وروح القدس الذي يدفع الشر عن الدين ، وعمن يلوذ بهذا الدين . فيا أبا سفيان ، أهكذا أنت طبل أجوف لا قلب لك ولا عقل ولا شجاعة ، هواء فارغ ، خال من كل قدر ، تذكر سيوفنا وقد تركتك عبداً في يوم أحد بالذات ، يوم حمل لواءكم إماء ، فيالعظم قدركم حين ترأسكم الاماء . هجوت محمداً

يا هذا ، وما كان محمد ليلحقه هجاء ؛ وأنا أجبت عنه ، لأنني لسانه ، ولأنني مهند في يمينه . جل محمد عن أن يردّ على هجاء .

وإذا كنت أناقد فعلت ، فجزائي عند الله خيّر ، تالله كيف تهجو محمداً ولست بكفء له ، جعلت فداه أنت وأمثالك ، وسواء مدحتموه أو هجوتموه فانكم لا ترفعون من قدره ولا تخفضون . اكبر بمحمد ان يكون لكم عليه أثر . وليعلم كل من في البلاد بأن حساناً ووالد حسان ، ووالد والده وعرضه وكل ما يملك وقاء لمحمد من أي قول خبيث .

**من شعر كعب بن زهير :**

تخرج كعب بن زهير في مدرسة الشعر كأحسن ما يمكن أن يتخرج شاعر في الجاهلية . فكان أبوه شاعراً ، ووالد أبيه أبو سلمى شاعراً أيضاً . وكان بشامة بن الغُدير شاعراً وهو خال زهير ، ومثله أوس بن حجر زوج أم زهير ، أما عمتا كعب : سلمى والخنساء فكانتا من أشهر من قال شعراً في الجاهلية .

عني زهير بابنه ، فروّاه شعره وشعر سواه ، ممن كان يروي لهم كأوس بن حجر وطفيل الغنوي ، وكان يتشدد عليه فيمنعه من النظم حتى لا يروى له شعر رديء . وكان يتهدده بالحبس حيناً وبالضرب حيناً آخر إن هو لم يعمل بما يوصيه به أبوه . [1]

وكان لكعب أخ اسمه بجير ، هو شاعر أيضاً . خرجا معاً

---

١ – الاغاني – ج ١٥ . ص ١٤٨ .

ذات يوم في غنمهما فدار بينهما حديث عن النبي محمد ودينه الجديد . فقال كعب لبجير : الحق الرجل وأنا مقيم ههنا فانظر ما يقول [1]

فسار بجير الى النبي ، وسمع منه ، فأعجبه الدين الجديد ، فأسلم . وكان ذلك حوالي السنة السابعة للهجرة . وعرف كعب بإسلام أخيه ، فغضب ؛ ويقال إنه هجا الاسلام ونبيّه بأبيات دفعت محمداً الى ان يقول « من لقي منكم كعباً فليقتله » [2] . وما ندري مبلغ الصحة في هذه الرواية ، ولا مبلغ الصحة في الرواية التي تجعل بجيراً يردّ على أخيه بأبيات شعرية ، فيها تغنّ بالاسلام وتنديد بالوثنية ، وبعبادة اللات والعزّى . على أننا نعلم علم اليقين بأن النبي قد غضب فعلا على كعب . ولما ضاقت بكعب السبيل نظم قصيدته المشهورة في مدح النبي . وفي رواية لابن حجر العسقلاني [3] عن كعب انه قال : « عرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفة ؛ فتخطيت حتى جلست اليه فأسلمت ، ثم قلت : الامان يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير » فأمنه الرسول وتلا قصيدته بين يديه وفيها رائحة تعريض بالانصار فعندما فرغ من تلاوتها قال له النبي : « ألا ذكرت الانصار بخير ، فان الانصار لذلك أهل ، وقال المهاجرون ، ما مدحنا من هجا

١ ـ الاغاني . ج ١٥ . ص ١٤٩ .

٢ ـ الاغاني . ١٥ ـ ص ١٤٩

٣ ـ من كتاب الاصابة في تميز الصحابة ـ ج ٥ . ص ٣٠٣

الانصار فنظم كعب في الانصار قصيدة رائية جاء فيها :

من سرّه كرمُ الحياةِ فلا يزل
في مَقْنبٍ[1] من صالحي الانصارِ
ورثوا السيـادة كابراً عن كابرٍ
إن الخيارَ هُمُ بنو الأخيـارِ
النـاظرين بأعْيـن مُحْمرّةٍ
كالجمرِ غيرِ كليـلةِ الأبصارِ
والذائدين النـاس عن أديانهم
بالمشرفيّ وبالقنـا الخطّـار .
والبـاذلين نفوسهم لنبيّهم
يومَ الهياج وقبةِ الجبّـار
يتطهرون كـأنه نُسكٌ لهم
بدماءِ من عَلِقوا من الكفّارِ

وواضح أن كعباً قد امتدح الانصار بكرم الحياة، وبالصلاح، وبالسيادة المتوارثة والخير والتقى والذود عن الدين والجهاد في سبيل الله وبذل النفس للنبي في كل يوم عصيب ، والقضـاء على الكفر وأهله الى ما هنالك من مثل جديدة كانت قد نشأت بفعل الحركة التي قام بها محمد بن عبدالله في أرض العرب .

أما القصيدة التي نعوّل عليهـا كثيراً ونعتبرها من أشهر قصائد كعب ، فهي لامية في مدح النبي التي أنشده إياها يوم أسلم

---

١ – العدد ما بين الثلاثين والاربعين .

فأعجب النبي بشعر كعب ، وخلع عليه بردته التي أصبحت موضوعاً لأساطير كثيرة ، منها أن معاوية اشتراها من أبناء كعب بعشرين ألف دينار ، ومنها أنها ظلت تتوارث ويلبسها الخلفاء من الأمويين الى العباسيين حتى أحرقها هولاكو المغولي . وبعضهم يذهب الى أنها لم تحرق في بغداد بل انتقلت الى مصر ، ومنها الى الآستانة أيام خلفاء بني عثمان .

على أن الثابت هو كون القصيدة قد بلغت من الشهرة ما لم يبلغه كثير من جيد الشعر العربي وسميت بقصيدة البردة وقد عارضها البوصيري تحت عنوان « ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد » ومطلعها :

الى متى أنت باللذات مشغول

وانت عن كل ما قدمت مسؤول

كما شطرها عدد غير قليل من الشعراء ، واهتم بها الشارحون والناشرون والمترجمون ، فكانت لها شروح كثيرة وطبعات كثيرة ، وترجمات لاتينية للمستشرق Gerardus Joannes lette (١٧٤٨) وفرنسية للمستشرق René Bosset وللمستشرق A. Raux وبولونية من عمل سكوبا ـ بيكوسلاوسكي والمانية نثرية لويل Weil وشعرية لروكرت Rüekert وإنكليزية لرد هاوس Red House وايطالية لكبريالي gabrielli وفارسية للكاملي ، وتركية لملجق زاده [1] .

وهاك القصيدة موضوع حديثنا .

---

١ ـ فؤاد البستاني ـ الروائع ـ ٣٢ ـ الخ .

## أ ـ الغزل ووصف الديار

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متيَّم إثرَها لم يُفد مكبولُ ١

وما سعادُ غداة البين اذ رحلوا
إلا أغنُّ غضيضُ الطرف مكحول٢

تجلو عوارض ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ
كأنه منهلٌ بالراحِ معلولُ ٣

شُجّت بذي شَبمٍ من ماء مُحنيَةٍ
صافٍ بأبطَحَ أضحى وهو مشمول٤

تنفي الرياحُ القذى عنهُ وأفرطهُ
من صوب ساريةٍ بيضٌ يَعاليلُ٥

---

١ ـ بانت: فارقت . متبول: من التبل وهو الهيام حتى المرض والضعف. متيم . مذلل بالحب . مكبول: مقيد .

٢ ـ أغن : صفة للغزال الذي في صوته غنة . غضيض الطرف : فاتر النظر . مكحول : في جوانب عينيه سواد .

٣ ـ جلا السيف : ازال عنه الصدأ . العوارض : الاسنان التي تلي الانياب. الظلم . ماء الاسنان .

٤ ـ شجت : مزجت . الشبم : البرودة . المحنية : منعطف الوادي ـ الابطح : المسيل المتسع . مشمول : اصابته ريح الشمال .

٥ ـ القذى : ما يقع في الماء فيكدره . افرطه : ملأه . الصوب : المطر . السارية السحابة . اليعاليل : السحب الطويلة .

أكرِمْ بها خُلـَّةً لو أنها صدقتْ
موعودها أو لو أنّ النصحَ مقبولُ

لكنها خُلـّةٌ قد سِيطَ من دمِها
فجعٌ وولـْعٌ وإخلافٌ وتبديل [1]

فما تدوم على حالٍ تكـون بها
كما تلوّن في أثوابها الغولُ [2]

ولا تمسَّكُ بالعهد الذي زعمت
إلا كما يُمسِكَ المـاءَ الغرابيلُ

فلا يَغـُرّنكَ ما مَنـَّت وما وعدَت
إنـ الأمانيَ والأحلامَ تضليلُ

كانت مواعيد عُرقوبٍ لها مثلاً
وما مواعيـده إلا الأباطيلُ [3]

أرجو وآملُ أن تدنو مَوَدّتـُها
وما إخالُ لَدينا منكِ تنويلُ [4]

. . .

١ – الخلة : الصديق والصديقة – سيط : خلط .

٢ – الغول : كل ما اغتال الانسان فأهلكه . وعنـد العرب حيوان خرافي يتلون الواناً مختلفـة ويفترس الناس .

٣ – عرقوب : رجل من يثرب يضرب المثل باخلافه الوعد .

٤ – التنويل : العطاء .

أمست سعادُ بأرْض لا يُبلـّغها
إلا العِتاق النـّجيبات المراسيلُ [1]
ولن يبلـّغهـا إلا عُذافِرَةٌ
فيها على الأيْن إرقالٌ وتبغيلُ [2]
من كل نضـّاخة الذّفرى إذا عرقتْ
عُرضَتـُها طامس الإيلام مجهولُ [3]
ترمي الغـُيوب بعينَي مفردٍ لَهِقٍ
إذا توقـّدت الحِزّانُ والميلُ [4]
ضخمٌ مُقلـّدُها معم مقيدها
في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
غلباءُ وجناء عُلكومٌ مذكـّرةٌ
في دفـّها سَعةٌ قُدّامها ميلُ [5]

١ – العتاق : النوق الكريمة التي عتقت من العيوب. المراسيل : السهلة القوائم في السير .

٢ – العذافرة : الصلبة القوية. الأين : التعب. الارقال : السير السريع. التبغيل : سير البغال .

٣ – النضاخة : كثيرة السيلان فوق النضخ . الذفرى : ما تحت اذن الناقة . عرضتها : همها . الطامس: المندرس من الطرق .

٤ – الغيوب : كل ما غاب عن العين : المفرد : صفة للثور الوحشي – لهق : شديد البياض . الحزّان : جمع حزيز وهو الأرض الصلبة الغليظة . الميل : جمع اميل وميلاء . ما تراكم ومال من الرمل .

٥ – غلباء : غليظة الرقبة. وجناء : عظيمة الوجنتين. علكوم : ضخمة. مذكورة : تشبه الذكر . الدف: الجنب. قدامها ميل : عنقها طويل

وجلدها من أَطُومٍ لا يؤيِّسه
طِلحٌ، بضاحيةِ المتنينِ مهزولُ [1]

حرفٌ أخوها أبوها من مُهجّنةٍ
وعمها خالها قوْداءُ شِمليلُ [2]

يمشي القراد عليها ثم يُزلقُهُ
منها لَبانٌ وأقرابٌ زهاليلُ [3]

عيرانةٌ قذِفت بالنّحض عن عُرُضٍ
مِرفقُها عن بَناتِ الزّورِ مفتولُ [4]

كأنما فات عينيها ومذبحَها
من خَطمِها ومن اللّحْيينِ برطيلُ [5]

تُمرُّ مثل عسيب النخل ذا خُصلٍ
في غارزٍ لم تخوّنه الأحاليل [6]

---

١ – الأطوم : السلحفاة البحرية. لا يواسيه : لا يؤثر فيه. الطلح : قمل الحيوان. ضاحية المتنين : ما برز للشمس من ظهرها.

٢ – الحرف : الناقة الضامرة. مهجنة : مؤصلة. قوداء : طويلة العنق. شمليل : خفيفة.

٣ القراد قمل الحيوان. اللبان : الصدر. الأقراب: الخواصر. الزهاليل: جمع زهلول وهو الأملس.

٤ – عيرانة : صلبة كالعير. النحض : اللحم الكثيف. العرض: الجهة. المرفق : موصل الذراع بالعضد. بنات الزور. الاضلاع

٥ – فات : تقدم. الخطم مقدم الأنف. البرطيل : الحجر الطويل.

٦ – عسيب النخل : الجريدة منه. الغارز : الضرع. لم تخونه : لم تنقصه الأحاليل : جمع إحليل وهو مخرج اللبن من الثدي

قنواء في حُرّتيها للبصير بهــا
عِتقٌ مبينٌ وفي الخدّين تسهيل[1]
تَخدي على يَسَراتٍ وهي لاحقةٌ
ذوابلٍ مسُّهنّ الأرض تحليلُ[2]
سُمر العجايات يتركن الحصى زِيَماً
لم يقنهنّ رؤوس الأُكمِ تنعيلُ[3]
كأنّ أوب ذراعيها إذا عرقت
وقد تلفّع بالقُور العساقيــلُ[4]
يوماً يظلُّ به الحرباءُ مُصطخداً
كأنّ ضاحيَهُ بالشمس مملــولُ .[5]
وقال للقوم حادِيهم وقد جَعلت
وُرْقُ الجنادِبِ يركضنَ الحصى قيلوا[6]

---

١ – قنواء ؛ مؤنث اقنى ، وهو ما في انفه حدب . الحرة ؛ الاذن .

٢ – تخدي؛ تسير بسرعة . اليسرات ؛ القوائم الخفاف . لاحقة؛ ضامرة . ذوابل ؛ يابسة . تحليل ؛ قليل .

٣ – العجايات : عصب قوائم الأبل والخيل . الزيم : المتفرق الأكم : جمع أكمة : المرتفع من الارض . التنعيل : الحديد في الحوافر .

٤ – الأوب رجع اليدين وسرعة الحركة . القور : الهضاب المرتفعة : العساقيل ؛ جمع عسقول وهو السراي .

٥ – مصطخداً : محترقاً ؛ من صخدته الشمس . ضاحيــة ؛ ظاهرة . مملول : موضوع في الملة اي الرماد الحار .

٦ – الورق : جمع اورق وورقاء ؛ الاغبر . قيلوا : استريحوا في القائلة .

شدَّ النهارِ ذراعا عيطلٍ نَصَفٍ
قامت فجاوبها نُكدٌ مثاكيلُ [1]
نوّاحةٌ رخوةُ الضّبعين ليس لها
لما نعى بكرها الناعون معقولُ. [2]
تفري اللّبان بكفّيها ومِدرعُها
مُشقّقٌ عن تراقيها رعابيلُ. [3]
تسعى الوشاةُ جَنابيها وقولهُمُ
إنك يا ابن أبي سُلمى لَمقتولُ [4]
وقال كل خليلٍ كنتُ آملُهُ
لا أُلهِينّك إني عنك مشغول
فقلتُ خلّوا سبيلي لا أبالكُمُ
فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ معقولُ
كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامتهُ
يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

. . .

---

١ – شد النهار : اي في وقت ارتفاع النهار . العيطل : المرأة الطويلة . النصف : المتوسطة في السن . قامت : اخذت تبكي . النكد : جمع نكداء ، وهي التي لا يعيش لها ولد .

٢ – الضبعان العضدان . بكرها : اولادها .

٣ – تفري : تشق . اللبان : الصدر . التراقي: جمع ترقوة : وهو اعلى عظم الصدر مما يلي الكتف . الرعابيل : جمع رعبول : القطعة المتمزقة .

٤ ـ جنابيها : ناحيتيها .

نُبِّئتُ أنّ رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمولُ

مهلاً ـ هداك الذي أعطاك نافِلةَ الـ
قرآنِ فيـه مواعيظ وتفضيلُ

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم
أُذنب وإن كثُرت فيّ الأقاويلُ.

لقد أقومُ مُقاماً لا يقوم بـه
أرى وأسمع ما لو يسمع الفيلُ

لظَلّ يُرعَد إلا أن يكون له
من الرسول بإذن الله تنويلُ. [١]

ما زلت أقتطعُ البيداء مُدَّرعاً
جنح الظلام وثوب الليل مسبولُ

حتى وضعتُ يميني لا أُنازعها
في كفّ ذي نقماتٍ قيله القيلُ [٢]

لذاكَ أهيَبُ عندي إذ أُكلِّمهُ
وقيل إنك منسوبٌ ومسؤولُ

---

١ ـ التنويل : العطاء ، وقد أراد به العفو والامان .

٢ ـ وضعت يميني : يشير الى مصافحته للنبي . ذي نقمات : وفي رواية اخرى ذي نعمات .

من خادرٍ من ليوثِ الأرض مسكنه
من بطن عَثّرَ غِيلٌ دونه غيلُ[1]
يغدو فيلحَمُ ضِرغامينِ عيشُهُما
لحمٌ من القوم معْفورٌ خراديلُ[2]
إذا يساورُ قِرناً لا يحلُّ له
أن يترك القِرنَ إلا وهو مَجدولُ
منه تظلُّ سباعُ الجيِّ ضامزةً
ولا تَمشّى بواديهِ الأراجيلُ[3]
ولا يزالُ بواديه أخو ثقةٍ
مُطرّحُ البزّ والدّرسان مأكولُ[4]

## مدح المهاجرين من قريش:

إنّ الرسول لسيفٌ يستضاء بهِ
مُهندٌ من سُيوف الله مسلولُ

---

١ – الخادر : الاسد في خدره ، أي في عرينه. عثر : مكان في اليمن. الغيل : الأجمة .

٢ – يغدو : يخرج في اول النهار . يلحم يطعم لحماً . ضرغامين : اسدين ( شبلا الاسد ) . معفور : مطروح على التراب . خراديل : قطع صغيرة من اللحم .

٣ – الجو : الوادي الواسع. ضامزة : ساكنة. الاراجيل : الذي يسيرون على ارجلهم .

٤ – اخو ثقة . موثوق بشجاعته . مطرّح : مطروح . البز : السلاح الدرسان : الاثواب البالية .

في عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم
ببطنِ مكّةَ لما أسلموا زُولـُوا[1]
زالوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ
عند البقاءِ ولا ميلٌ مَعازيلُ[2]
شُمُّ العرانين أبطالٌ لبوسُهُمُ
من نسج داوود في الهيجا سرابيلُ[3]
بيضٌ سوابغُ قد شُكّتْ لها حلقٌ
كأنه حَلقُ القفعاءِ مجدولُ[4]
لا يفرَحون إذا نالت رماحُهُمْ
قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلـُو
يمشون مَشي الجمال الزُّهر يعصمُهُمْ
ضَربٌ إذا عرّدَ السُّودُ التّنابيلُ[5]
لا يَقَعُ الطعنُ إلا في نحورِهِمُ
وما لهم عن حياض الموتِ تهليلُ .

---

١ – زولوا : أي هاجروا ، واتركوا البلاد .
٢ – أنكاس ؛ ضعفاء . كُشُف ؛ جمع أكشف ؛ وهو الذي ليس معه ترس . ميل ؛ جمع أميل ؛ من لا يحسن الفرسية . معازيل ؛ جمع معزال ؛ وهو الذي لا سلاح معه .
٣ – شم العرانين ؛ انوفهم عالية .
٤ – سوابغ ؛ جمع السابغة وهي الدروع . القفعاء : نبات ينبسط على الارض له حلق كحلق الدروع .
٥ – عرد ؛ جبن . التنابيل ؛ جمع تنبال وهو القصير .

يطالعنا في هذه القصيدة منهج عربي قديم ، عرفناه في الجاهلية لدى معظم الشعراء وعرفناه بنوع أخصّ لدى أبي امامة النابغة الذبياني في اعتذارياته .

هذا المنهج ليس مقتصراً على موضوع القصيدة ، بل ينتظم أيضاً مظاهر التعبير وأسلوب القصيد .

أما موضوع الشعر فهو في أساسه مدح واعتذار . ولكن الشاعر قد سلك اليه مسلك الغزل ، ووصف الديار ؛ ثم انتهى الى وصف الناقة في أبيات طويلة ومنها تخلص الى المديح ، مديح النبي ومديح المهاجرين ، واعتذر الى الرسول عما بدر منه ، وخفض له جناحه ، مما يدل على أن توبة كعب وإسلامه كانا صادقين كل الصدق .

ولم تكن المعاني التي جاء بها جديدة كل الجدّة ، فهي في معظمها معان شائعة بين شعراء العصر ، تتلمذ فيها كعب بن زهير لأبيه وللنابغة الذبياني بنوع أخص ، كما اشترك فيها مع سواه من أمثال طرفة والأعشى وامرىء القيس ولبيد ، لا سيما في القسم الغزلي وفي وصف الناقة .

وما حكاية الغزل في شعر كعب ، سوى حكاية فراق إثر ترحل لسعاد حبيبته فغدا متبول القلب ، هائماً متيماً قيده حبه لفتاة هي كالغزال في حسنها ، غناء الصوت ، غضيضة الطرف ، مكحولة العينين ، ذات ثغر أسنانه بيضاء مجلوّة . فيه رضاب كأنه منهل بالراح ، مازجه ماء قراح أخذ من غدير ضربته ريح الشمال ، فأمسى بارداً عذباً ليس فيه قذاة تكدّره ، هطلت

عليه ديمة من سحابة بيضاء ، فغدا لذّة للشاربين .

أكرم بسعاد حبيبة لو أنها صدقت في وعدها أو قبلت نصح الناصحين . ولكنها من أولئك الفتيات المداجيات اللاتي يتلاعبن بقلوب الرجال ثم يتغيرن ويخلفن بوعودهن ، حتى أنها لا تمسك عهوداً تقطعها على نفسها إلا كما تمسك الغرابيل مـاء ، فمن أين للرجاء لديها تحقق .

نأت حبيبة الشاعر عنه ، فكيف يبلغها ؟ إنها الناقة سفينة الصحراء هي التي توصله الى بغيته كما أوصلت أسلافه من قبل . أوصلت النابغة وأوصلت طرفة ، واوصلت الأعشى ومن فرى فريّهم من الجاهليين .

ويمضي الشاعر في وصف ناقته ، فيطول نفسه ، وتجـود قريحته ، وما ذلك إلا لأن حديثه يتناول شيئاً عزيزاً عليـه ، فيفيض في وصف الناقة ؛ من سرعتها الى قدرتهـا على السير في الأماكن المجهولة ، الى صبرها في المفازات ، الى ضخامتها ومتانة أعضائها وقوة أعصابها ، الى كرم أصلها ، وكثرة لحمها وشحمها، الى مزاياها وجمال أعضائها كالأنف والذيل والعنق والمتن والقوائم والبطن الى ما هنالك من أوصاف للناقة الكريمة ، وبعدها ينتهي الى مدح النبي ، متخلصاً اليه بأبيات قليلة ، تصور جزعه وقلقه على أثر وعيد من النبي جاء فيه : «اذا لقيتم كعباً فاقتلوه» وتعيد الينا ذكرى النابغة حين أهدر النعمان دمه فاعتراه الخوف وضاقت به أرجاء الأرض وصور ذلك في شعر جيد جعل النقاد يقولون : «أشعر الشعراء النابغة اذا رهب» . حاول كعب أن يستجـير

بأصحابه، فما أجاروه وسلّم أمره الى الله ورجا عفو النبي، ثم اعتذر اليه بمثل اعتذار النابغة، مردداً صيغاً ومعاني شبيهة بما قاله أبو أمامة من قبل طالباً الى النبي ألاّ يأخذه بأقوال الوشاة. على ان الفرق بين الاعتذارين إنما يكمن في تلقيح ما قاله كعب بلقاح من الاسلام وتعاليمه فاذا أنت أمام شاعر يقول للنبي:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيظ وتفصيل
ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في حين أن النابغة أقسم يميناً وثنية فقال:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وماهريق على الأنصاب من جسد

على أن أكثر ما في المديح والاعتذار مشترك بين الرجلين. وقد أضاف كعب الى مديح النبي مديح المهاجرين من قريش فوصفهم بالاخلاص والشجاعة والنبل والرصانة والحنكة في الحروب والصدق والصبر على الشدائد. ولهذا الشاعر قصائد كثيرة في المديح الاسلامي، نثبت منها الأبيات الآتية في مديح الانصار.

من سرّه كرم الحياة فلم يزل في مقنب من صالحي الانصار
ورثوا السيادة كابراً عن كابر ان الخيار هم بنو الأخيار
الناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الأبصار
والذائدين الناس عن أديانهم بالمشرفي وبالقنا الخطّار
والباذلين نفوسهم لنبيّهم يوم الهياج وقبة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

صدموا الكتيبة يوم بدر صدمة ذلت لوقعتها رقاب نزار
واذا حللت ليمنعوك اليهم أصبحت عند معاقل الأعفار
لو يعلم الأقوام علمي كله فيهم لصدقني الذين أماري

فانت ترى في هذا المديح إعظاماً للأنصار ونعتاً لهم بالصلاح والسيادة التي ورثوها كابراً عن كابر . إنهم من خيار الناس وأشجعهم وأقواهم ، يذودون عن دينهم بسيوف مشرفية ورماح طويلة صلبة . لأنهم بذلوا نفوسهم الكريمة في أشدّ الايام هولا وأعظمها خطراً .. ومن دماء الكافرين كانوا يتطهرون . لله درهم في يوم بدر ، حين صدموا الكفار صدمة ذلت لها رقاب من كانوا يعادون الاسلام وله يكيدون .

لا ريب في أن بعض التغير قد طرأ على شعر كعب بعد أن دخل في الاسلام . تغير نلمس أثره في بعض المعاني التي كانت وليدة أحداث الحياة آنذاك ، وفي بعض النفحات الدينية التي صبغت الشعر بصبغة من الهدوء والترصّن والخلق الحميد ، والاتجاه نحو العفة والوقار ، وهذه حال جميع الشعراء تقريباً ، الذين اعتنقوا الاسلام ديناً . ولا ريب في ان المثل العليا في الاسلام قد أضافت الى شعر المديح مادة ومعاني جديدة . غير أن النهج الشعري بقي هو هو . وكأنما كان للشعر العربي دائرة مقفلة ، الشعراء في داخلها يتحركون من غير أن يجرؤ واحد منهم على تحطيم الاطار ، والخروج منه الى آفاق جديدة غير التي قد جاسها الأقدمون .

وهكذا نرى كعباً بن زهير يسير على نهج سالفيه ويترسّم خطى النابغة مستمداً منه مدداً في التعبير ومدداً في الفكر ، تحقيقاً لما كان لدى الشعراء الذين عاصروه والذين جاءوا بعده كذلك من نزعة نحو التقليد ونحو المحافظة على قيم هي في نظرهم عنوان الكمال .

# المديح في العصر الأموي

**لمحة تاريخية :**

قد يكون من المفيد ، قبل التحدث عن ظروف العصر الأموي ، ربط أحداثه بما كان ممهداً لها من قبل .

ما إن قبض الرسول الى رحمة ربه ، حتى وجد المسلمون أنفسهم أمام مشكلة كبرى تتطلب الاسراع في الحل وتقتضي الحكمة . ذلك أن النبي قد ترك بعده فراغاً كبيراً شعر المسلمون بخطره . فانبرت فئات منهم تسعى الى إيجاد من يخلفه في حكم المسلمين وفي إمامتهم الدينية .

ومن أول المبادرين إلى هذا العمل كان الانصار ، أهل المدينة . اجتمعوا في مكان يدعى سقيفة بني ساعدة ، وأرادوا أن يولّوا بعد النبي رجلاً منهم ولكنهم اختلفوا بين أوس وخزرج .

وعلم بأمر الاجتماع أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح وجميعهم من صحابة الرسول ، ومن خلصائه

ومن القرشيين المهاجرين معه ومن الدهاة كذلك . فسارعوا الى السقيفة ، واطلعوا على ما كان يدور فيها ، وبلعبة سياسية ناجحة من عمر بن الخطاب وأبي بكر ،بويع لأبي بكر بالخلافة، وأعلن ذلك على الملأ .

وتقاطر الناس إلى الصدّيق يبايعونه ، وحمل أبو بكر على عاتقه تبعة حكم المسلمين ، وإكمال ما كان قد بدأه من إرساخ لقواعد الدولة وتبشير بدين الله ، وتنظيم للحياة في مختلف مرافقها .

غير أن علياً لم يبايع أبا بكر ، اعتباراً منه أن الخلافة له ، بناء على وصية صريحة من النبي محمد . فأبو بكر يكون قد خالف وصية النبي وطمع بما ليس له حق فيه . وكما امتنع عليّ عن المبايعة ، امتنع كذلك قوم من الهاشميين أصحاب علي وأقاربه .

ومن هنا بدأ الصراع السياسي بين المسلمين . ولكن روح التقوى وقرب العهد بالاسلام ، وظلّ النبيّ الذي بقي مخيماً فوق الصحابة مدة من الزمن ، كلها عوامل ساعدت على إخفاء الضغائن وعلى تخفيف حدتها بحيث أن علياً قد عاد الى مبايعة أبي بكر بعد موت فاطمة على أثر مصالحة قد جرت بينهما . وتقدمعليّ مخلصاً لخدمة الدولة ولخدمة الدين . فساعد أبا بكر، وتولى القضاء في المدينة، وهو بعد أقضى الناس وأفهمهم بالشريعة وحقيقة الدين .

والذي لا يجوز أن يغفل ، هو أن أبا بكر كان رجل دولة

بالفعل ، وكان جديراً بتولي الخلافة فقام بأعبائها خير قيام ،الى أن حضرته الوفاة . فجاءه نفر من وجهاء المسلمين وسألوه : لمن توصي بعدك بالخلافة فقال من غير تردّد : «لعمر بن الخطاب» .

وهكذا بويع لعمر ، فتسلم مقاليد الحكم نحـــواً من سبع سنوات كانت من أخصب أيام الدولة الراشدية ، ومن أكثر العهود تمكيناً لدولة المسلمين في الأرض . ولم يكن علي راضياً كل الرضى عن توّلي عمر الخلافة ولكنه كظم غيظه أيضاً ، وساعد عمر في كثير من الشؤون . ولعلّ عدل عمر وحزمه وإخلاصه لقضية المسلمين ، وذكاءه في توجيه السياسة وانتصاراته التي أحرزها في مختلف الحقول ، هي التي جعلت المعارضة تسكت طيلة حكمه ، حتى إذا دنت منه المنية ، سأله القوم عمن يولى بعده ، فقـــال : اجعلوا الامر شورى بين ستة من الرجال قد مات النبي وهو عنهم راض : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفـــان ، وسعد بن أبي وقّاص ، وطلحة والزبير ومحمد بن ابي بكر - وتفادياً للانشقاق في حال وقوف ثلاثة ضد ثلاثة ، اجعلوا بينهم عبد الله بن عمر ، على أن لا يكون له من الامر شيء .

وبعد موت عمر ، اجتمع المتشاورون ، وكانت الأنظـــار موجهة نحو اثنين منهم : علي وعثمان . فعرضت الخلافة على عليّ شرط ان يسير بها حسب ما سار بها سلفاه ( ابو بكر وعمر ) فقبل تولي الخلافة ، ولكنه رفض أن يترسم بها خطى سابقيه . ولعل هذا الرفض دليل على أن علياً كان يرى ضرورة التعديل في نظام الخلافة ، وأسس الحكم عند المسلمين .

إزاء هذا الوضع ، عرضت الخلافة على عثمان بنفس الشروط، فقبلها ، وهكذا بويع له .

ترى ، هل كان المتشاورون متفقين ضمناً على إخراج عليّ من الخلافة ؟ وهل اختارهم عمر بطريقة تكفل إبعاد عليّ وتولية عثمان ؟

ليس من ذلك شيء ثابت . ولكن الثابت أن عثمان لم يستطع أن يضبط شؤون الدولة كما ضبطها عمر . وإنما أفسح المجال امام دهاة الأمويين أقاربه ، كي يحققوا غاياتهم ، ويكيدوا للهاشميين الذين يتزعمهم علي . والصراع بين أمية وهاشم قديم منذ الجاهلية ، أضعفه الاسلام كثيراً ولكن لم يقض عليه حتى اذا مات عثمان على أثر ثورة قامت بها الامصار ، وبويع لعلي بالخلافة ، نهض معاوية داهية الدهاة ، يتهم علياً بقتل عثمان ويلوح بقميص الخليفة المقتول ، وغايته من ذلك،إبعاد عليّ عن الخلافة وأخذها لنفسه .

ولم يكن معاوية الوحيد الذي ثار ضدّ عليّ . فلقد ثارت ضده عائشة كذلك ومعها طلحة والزبير، فحاربها علي في معركة الجمل ، وقضى على معارضتها . ثم انصرف الى إخماد الفتن الناشبة هنا وهناك والى محاربة معاوية وصحبه ، فكانت معركة صفين الشهيرة ، وكان التحكيم الذي أدى الى انشقاق في صفوف الطالبين والى ظهور حزب رابع هو حزب الخوارج ، الذين خرجوا على طاعة علي لقبوله بالتحكيم واصبحوا يناصبونه العداء كما يناصبون الامويين والزبيريين . وما كان التحكيم ليحل نزاعاً

وإنما زاد الامر تعقيداً ، فقويت الاحقاد ، واشتد الصراع بين الأحزاب السياسية ، وكان كل حزب يستند الى مبدأ مستمد من الدين ، اعتباراً أن الدولة في الاسلام إنما نشأت بفعل الحركة التي جاء بها محمد . وكان محمد أول رئيس ديني للمسلمين ، وأول رئيس زمني في آن معاً . ثم تبعه خلفاؤه الراشدون ، فكانوا حكاماً وكانوا أئمة .

والذي حدث من جراء ذلك ، أن علياً قد تذرع بالقداسة الدينية، وبوصية محمد المنبثقة عن أرادة الله ، لأن محمداً منزه عن الخطأ ، ولأنه لا يأتي عملاً الا ويكون الله راضياً عنه . فخلافة عليّ إذاً خلافة شرعية . والله قد أرادها له بواسطة رسوله.

أما الخوارج ، فقد كفروا علياً لقبوله بالتحكيم ، وذهبوا الى ان هذا القبول هو شك ضمني من جانب عليّ بحقه في الخلافة ، فهو شك بارادة الله ، ولذلك ، فهم في حل من مناصرته . وكان شعارهم : « لا حكم إلا الله »

وأما الأمويون ، فانهم يعتبرون عثمان بن عفان هو الخليفة الشرعي . قتل ظلماً، ولم يثأر اه ، والذي قتله هو من يدّعي الخلافة لنفسه . فهل يجوز لقاتل أن يتولى الخلافة . وبعد ، فبنو أمية هم اهل عثمان الاقربون ، اليهم ينبغي أن يعود البتّ في شأن الخلافة من بعده . ثم ، أليسوا هم من بني قريش؟ أو لم يكن لهم في الاسلام جهاد ؟ فلماذا تكون الخلافة لفلان ، ولا تكون لمعاوية مثلاً ؟ ومعاوية رجل قدير، ومعه فئة غير قليلة من المسلمين تسانده ، فبلاد الشام بكاملها تؤيد معاوية ، وترتضي حكمه

بالاضافة الى أقوام آخرين في الحجاز وفي العراق .

أما جماعة الزبيريين ، فكانوا يريدون الخلافة لعبد الله بن الزبير ، أو لأخيه مصعب .

في هذا الخضم من الأهداف المتضاربة ، نشبت حروب عنيفة كانت على صعيد السيف وعلى صعيد اللسان .

أما حروب السيف ، فتم فيها الانتصار لبني أمية ، بعد أن قتل علي بيد واحد من الخوارج يسمى عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، وبعد أن دوّخ القواد الأمويون أرض الحجاز وأرض العراق حيث كانت مواطن المعارضة .

وأما حروب اللسان ، فانها لم تكن لتخمد . فاذا الخطباء والشعراء في الندوات والاسواق والمساجد وسائر المحافل يدافعون عن الاحزاب التي اليها ينتمون ، ويمتدحون الزعماء الذين ينضوون تحت ألويتهم ، ويهجون الاعداء ، ويظهرون مثالبهم .

والذي يهمنا نحن من هذه الحركة الأدبية هو شعر المديح الذي كان يقال في تلك المناسبات .

لم يكن فن المديح شيئاً جديداً على العرب في البيئة الأموية ، فلقد عرفوه من قبل في الجاهلية وفي الاسلام أيضاً . ولكن الجديد هو في كون هذا الشعر قد ازدهر كثيراً بعد ركود ، وقوي أكثر مما كان عليه في الجاهلية ، وداخلته مقومات جديدة ، ومعان جديدة واتجاهات جديدة كذلك .

أما اسباب الازدهار فالصراع السياسي الذي تحدثنا عنه

منذ قليل ، والذي حدا بالزعماء السياسيين وبخلفاء أمية خاصة ، الى استخدام الشعراء واستقدامهم من كل مكان من أجل أن يمدحوهم ، ويروجوا للسياسة التي كانوا اليها يدعون .

وأما امتداح الخلفاء الأمويين والتغني بفضائلهم ، فكان يرضى كبرياءهم وحبهم للزهو والظهور والرياسة . ولكن ليست هذه هي الغاية الأولى التي جعلتهم يستقدمون الشعراء المداحين ويغدقون عليهم الاعطيات ؛ بل كان همهم أن يكسبوا مؤيدين لهم في ذلك المعترك . وغير خفيّ ما كان للشعر في نفوس العرب من تأثير ؛ والعهد غير بعيد من الجاهلية والقبلية قد عادت الى الظهور بعد أن كان الاسلام قد خنق صوتها . فكان الشاعر بمثابة داعية الى الالتفاف حول بني أمية ، ولو كان مديحه صادراً من لسانه ؛ ولو كان هو أيضاً من المعارضين . فالأمويون يعرفون من يؤيدهم ومن لا يؤيدهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يعمدون الى مختلف الوسائل كي يجتذبوا اليهم زعماء المعارضة ، وكانوا يجيزون الشعراء على مديحهم مع علمهم بانهم متشيعون او أنهم ميالون الى الزبيريين او الى الخوارج . ولعلهم كانوا يعلقون أكبر الاهمية على صدور الاشعار المتمدحة بهم عن أعدائهم لأنها تكسبهم نصراً في أعين الناس ـ هذا بالاضافة الى شعراء كانوا مخلصين لبني أمية وكانوا يقفون الى جانبهم في كل مسألة .

ولقد توافد الى بلاط دمشق كل من الفرزدق وجرير والاخطل ، ومسكين الدارمي وأبي العباس الأعمى ، وعبد الله

ابن خارجة الشيباني ، وعدي بن الرقـاع وأبي صخر الهذلي ، والنابغة الشيبـاني ، وعبد الله بن الزبير الاسدي ونصيب وغـيرهم .

أما شعراء الخوارج « فـكان منهم قطري بن الفجاءة وعمران بن حطـان . والطرمّاح بن حكيم وعمرو بن الحصين .

وأما شعراء الشيعـة فاشهرهم الكميت بن زيد الأسدي ، وكثيرّ عزّة وأيمن بن خريم الاسدي ، والسيد الحميري ومن شعراء الزبيريين والأنصار النعمان بن هرم ، وعبد الله بن قيس الرقيات . وحسان بن ثابت ، وابنه عبد الرحمن .

**من شعر الكميت :**

الكميت بن زيد الأسدي شاعر شيعي قدير ، ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ وبها نشأ وتثقف . وكانت الكوفة مركز المعارضـة الشيعية ومستقر الهاشميـين ، فربا على التشيـع والتعصب لبني هاشم وأنشد فيهم أجود أشعاره ، قصائـــد جمعت تحت اسم الهاشميات . ولقد كان الكميت يجمع الى الشعر معرفة واسعـة باللغة والفقه والأخبار والأنساب حتى عدّ من النسابين البارزين، « فمن صحّح الكميت نسبه صحّ ، ومن طعن فيه وهن » .

وكان الكميت في بدء حياته معلماً للصبية ، ثم انصرف الى الشعر بعد أن أشار عليه الفرزدق باذاعة شعره في الناس . ولقد تميز هذا الرجل عن سائر الشعراء في عصره بانه لم يكن مداجيا، ولم يجعل شعره مطية للنفاق والتكسب . بل أخلص للهاشميين

ومدحهم غير طامع في مالهم أو جاههم . وكثيراً ما رفض جوائزهم فلم يكن يقبل منها إلا ثيابهم التي تلي أجسادهم يلبسها تبركاً بها . وكان يقول :

« والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هي في يديه، ولكنني أحببتكم للآخرة . »

ومما كان يذكر عنه أيضاً ، أنه كان متعصباً للعدنانية ضد القحطانية في زمن كانت فيه العصبية القبلية قد عادت الى الاضطرام . وله في ذلك قصائد شهيرة أطلق عليها اسم النزاريات او غرت صدور اليمنية ، وكثير منهم كانوا موالين للأمويين ، بل إن الامويين انفسهم كانوا يتعصبون لليمنية ضد القيسيه .

بسبب هذا ايضاً ، أعرض الكميت عن الامويين ردحاً طويلاً من الزمن ، حتى اذا وقع في قبضتهم أيقن انه هالك لا محالة إن هو لم يعدّل في موقفه . فمدح هشاماً بن عبد الملك فأطلقه ، وصانع الامويين منذ ذلك الحين ، ومدحهم وولاتهم بعض المدح .

غير ان واحداً من هؤلاء الولاة يدعي يوسف بن عمر الثقفي، ابن عم الحجاج قد ضاق ذرعاً بالكميت ، فأمر بقتله لموالاته أحد أخصام الامويين الألدّاء : زيداً بن علي [1] وكان ذلك سنة ١٢٦ هـ .

---

١ — وقد قتله يوسف بن عمر الثقفي نفسه .

واليك نموذجاً من شعره في مدح الهاشميين .

طربتُ وما شوقاً الى البيض أطربُ
ولا لَعِباً مني وذو الشيب يلعبُ

ولم يُلهني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ
ولم يَتطرّبني بنانٌ مخضبُ [1]

ولا انا ممن يزجرُ الطير همّهُ
أصاح غرابٌ أم تعرّض ثعلبُ [2]

ولا السانحات النازحات عشيّةً
أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضَبُ [3]

ولكن الى اهل الفضائل والنُّهى
وخير بني حوّاء والخير يُطلبُ

الى النفرِ البيض الذين بحبهم
الى الله فيما نابني أتقرّبُ

بين هاشمٍ رهط النبيّ فانني
بهم ولهم أرضى مراراً واغضبُ

---

١ – لم يشغلني طلل ولم يستخفني حب امرأة ذات اصابع مخضوبة .

٢ – زجر الطير : اطاره ليستدل بحركاته على المستقبل . تعرض : تصدى وظهر . كانت العرب تتطير من صوت الغراب ورؤية الثعلب .

٣ – السانح من الطير : ما ولاك ميامنة . وعكسه البارح ، والأول فأل والثاني شؤم ، الثور الاعضب هو الثور المكسور القرن ، وهو دليل شؤم كذلك .

يشيرون بالأيـدي إليّ وقولهُم
ألا خابَ هـذا والمشيرون أخيَبُ
فطائفةٌ قـد كفـّرتني بحبّـكمْ
وطائفـة قالوا مُسيءٌ ومذنب
فما ساءني تكفير هاتيك منهمُ
ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
وقالوا ترابيٌّ هواه ورأيهُ
بذلك أُدْعى فيهمُ وأُلقّبُ [1]
عَلى ذاك إجرّياي فيكمْ ضريبتي
ولوْ جمعُوا طرّاً عليّ وأجلبوا [2]
وأحملُ أحقادَ الأقارب فيكمُ
ويَنصبُ لي في الأبعدين فأنصبُ [3]
وقالوا : وَرِثناها أبانا وأُمنـــا
وما أورثتهمْ ذاكَ أم ولا أبُ [4]

---

١ – ترابيّ : نسبة الى علي بن ابي طالب الذي قيـــل عنه ان النبي لقبه بأبي تراب .

٢ – الاجريا : الخلق والعادة .والضريبة: الطبيعة . طرّاً جميعاً من طر الأبل أي جمعها . اجلب القوم : تجمعوا وتوعدوا بالشر فكان لهم جلبة .

٣ – نصب له: عاداه . أنصب : اتعب .

٤ ـ ورثناها : اي الخلافـــة . أبانا وامنا : اي من امنا وابينا وقـد نصبتا على نزع الخافض .

يَرَون لهمْ حقاً على الناس واجباً
سفاهاً ، وحق الهاشميين أوجبُ
يقولون : لم يُورثْ ، ولو لا تراثه
لقد شركتْ فيه بكيلٌ وأَرحبُ [١]
فإنْ هي لم تصلُحْ لقوم سواهمُ
فإنَّ ذوي القربىَ أحقُّ وأقربُ
فيا موقداً ناراً لغيركَ ضوءُها
ويا حاطباً في غير حبلك تحطب
أَلمْ ترني من حبّ آلِ محمـدٍ
أَروحُ وأَغدوُ خائفاً أترقبُ
كأنيِّ جانٍ محدثٌ وكأنمـا
بهمْ أُتقى من خشية العرِّ أجربُ
على أيِّ جرُمٍ أمْ بأية سيرةٍ
أُعنفُ في تقريظهمْ وأؤنبُ
أَناسٌ بهمْ عزّتْ قريش فأصبحوا
وفيهم خباءُ المكرماتِ المطنَّبُ [٢]

ليست هذه الأبيات هي كل القصيدة . فالقصيدة بالغة نحواً من اربعين ومئة بيت . ولكنها جزء كاف لاطلاعنا على نواح عدة من شعر الكميت بن زيد .

---

١ — بكيل وارحب : قلبيلتان مغمورتان لا شأن لهما .
٢ — الخباء : هو الخيمة من وبر الأبل . والمطنب : المشدود بالاطناب .

مطلعها يشير الى استمرار التقليد العربي القديم ، وهو أن تبدأ القصيدة بأبيات غزليةتصف حب الشاعر وصبوته،وحنينه الى الحبيبة والى الديار المهجورة . ولكن الكميت المغرم لم يتيمه قدّ ولا جيد ، ولم يكن يستخفه طرب الى البيض ، وميل الى لهو أو لذة . ثم إن الدنيا نفسها لا تستخفه ولا ينفق أيامه في الحرص على المال ، ولا يبيت على خوف من الأيام ، ولا يبالي أبالسوء أتته أم بالخير . وهو لا يؤمن بخرافات الناس ولا يجعل همه كهمهم .

إن الذي قد أُغرم به ابن زيد هو حب الهاشميين « أهل الفضائل والنهى» و«خير بني حواء» قاطبة . ولقد بلغ من حبهم واحترامهم مبلغ التقديس إذ أضحى يتقرب بمحبتهم الى الله. ولم يكن الكميت هو الوحيد الذي يؤمن هذا الايمان. فالشيعة جميعاً يتبركون بمحبة آل البيت ويعتبرون أن هذه المحبة من صلب العقيدة الدينية الصادقة .

ولقد تعرض الكميت بسبب محبته للهاشميين وامتداحهم الى كثير من العنت والتضييق والايذاء الذي كان يسومه إياه أعداء بني هاشم ، وكثرت فيه الأقاويل واتّهم بالضلال والخيبة ، بل وبالكفر قد قذف ، ونعت بالاساءة والذنب .فما كان ذلك ليفت في عضده لأنه أخلص لآل البيت إخلاصاً لم يكن يزعزعه عرض من أعراض الدنيا، ولم يكن يثنيه عنه ظلم يعانيه او تهديد يوجّه اليه ، أو عذاب يسامه .

والملاحظ أن المديح في عصر بني أمية ، إنما كان أكثره

سياسة ، بسبب أن السياسة قد طغت آنذاك على كل شيء ، وطبعت وجوه الحياة جميعها بطوابعها . فتفكير الناس كان يتأثر بالسياسة ، وأحاديثهم كانت تدور حولها ، وتصرفاتهم تحدث وفقا لها . وكان في خدمتها الشعر والخطابة ، حتى الدين نفسه قد خرّجت بعض تعاليمه تخريجاً يدعم سياسة الأحزاب .

أمام هذه الظواهر ، لم يكن للكميت بدّ من الضرب على وتر السياسة ، والتهكم بالأمويين وغير الامويين ، وتسفيه آرائهم وهجائهم أيضاً .

والتمدح ببني هاشم والتغني بحقهم في الخلافة .

والملاحظ ، أن الكميت كان يلحّ على قرابة الهاشميين من النبي محمد ، لما كانت تضفيه هذه القرابة عليهم من هالة قدسية . وهو ينقد الحكام ، ويعيب تعنتهم ضده لغير ما ذنب ، اللهم إلا لأنه يحب آل النبي . فالمفروض ألا يرى في تشيعه إساءة ، بل ان يعتبر ذلك التشيع فخراً من المفاخر ، ومحمدة من محامد الكميت .

أليس من سخرية الزمان ، أن تنقلب مقاييس الناس، وتحور الحقيقة وينتصر الفساد ؟

ولا تظنن أن الكميت كان يقول كلامه مجاملة ، كما كان سائر الشعراء ينظمون مدائحهم ، وإنما أنت تحس في هذا الشعر ، حرارة العاطفة الصادقه وإيمان الشاعر بما يقول، كما تلمح في شعره احتجاجاً للهاشميين، ودفاعاً منطقياً عن إمامتهم مما دفع الجاحظ الى القول ؛ « ما فتح للشيعة باب الحجاج الا الكميت بقوله :

يقولون لم يورث ولولا تراثه
لقد شركت فيه بكيل وأرحب
فان هي لم تصلح لقوم سواهم
فان ذوي القربى أحق وأقرب

والجديد في شعر الكميت واضح في نواح عدة : جديد في مطالعه حين عدل عن جعل هذه المطالع غزلاً بالنساء ، ووقفها على التغني بمحبة بني هاشم ، وجديد في إهمال وصف الناقة الذي كان يتخذ وسيلة للتخلص الى المدح في زمانه وقبل زمانه ، بل وبعد زمانه أيضاً .

أما النفس الشعري العام الذي يقصدبه أصالة الشعر وحقيقة عمليته فلم يكن جديداً في شيء ، ما خلا محاجة عقلية أدخلها الكميت هي بدء الجدل الذي ظهرت تباشير حركته في العصر الأموي ، والذي أدى الى قيام الفرق الكلامية واتساع علم الكلام وتباين الآراء في شرعية الخلافة .

ومن جديد الكميت أنه فتح في الشعر فتحاً مبيناً ، فلأول مرة في تاريخ الشعر العربي ، ترى رجلاً يقف جانباً كبيراً من شعره على الدفاع عن مذهب سياسي او ديني .

فلقد كان الشعراء من قبله يكتفون بأبيات او بقصيدة ، أو بقصائد قليلة يؤيدون بها مذاهبهم ، وسائر أشعارهم للتكسب . وهذا عكس ما ذهب الكميت اليه .

وليست الها شميات جديدة في موضوعها فحسب ، بل هي جديدة في طولها كذلك فمعظمها لا تقل أبياته عن مئة بيت .

ويلفتنا في هذه الهاشميات كون عدد منها يبدأ بالوعظ والتقريع كقوله :

ألا هل عمٍ في رأيه متـأمل وهل مدبر بعد الاساءة مقبل؟

وفي أسلوب الكميت جزالة في اللفظ ، وفخامة وقوة ، هي انعكاس لقوة الايمان والانفعال في نفس الشاعر ، وشعره معرض لثقافته الواسعة ، ومعرفته بأنساب العرب وأيامها .

ولقد لقي هذا الشعر من الرواج ما جعل أبياته تطير في أفواه الناس ، ويتناشدها الشيعة كباراً وصغاراً ، ورجالاً ونساء حتى قيل : «من لم يرو قول الكميت : «طربت وما شوقاً الى البيض أطرب ، فليس بشيعي» .

**من شعر الاخطل التغلبي:**

على أثر ذلك الصراع العنيف بين الأحزاب المتعددة ، كان شعراء الشيعة وشعراء الأنصـــار ، يتناولون بني أمية بالهجاء . ويظهرونهم مظهر المعتدي الذي لم يرع للدين حقاً ولا حرمة .

ولقد بلغ الكيد للأمويين مبلغ التشبيب بالنساء الأمويات ، ومن بينهن رملة بنت معاوية شبّب بها عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت ولم يكن معاوية وابنه يزيد ليسكتا عن هذه الاهانة ، ولكن معاوية آثر التريث ، اما ابنه يزيـــد ، فراح يفتش عن شاعر يهجو الأعداء ، وخصوصاً الأنصار وشعراءهم كالنعمان بن بشير وحسان بن ثابت وابنـــه عبد الرحمن . ولقد وفق الى الأخطل باعتباره تغلبيّـاً ، وتغلب حليفة لبني أمية وقفت الى

جانبهم في صفين ، ضد ابن أبي طالب وناصرت يزيد في موقعة الحرّة ، حيث هزم الأنصار ، وظلت على ودّ مع الامويين فحاربت الى جانب مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط ضد القبائل القيسية .

أمّن يزيد الاخطل من غضب معاوية. فاندفع الأخطل يهجو الانصار . وكان أول شعر سياسي قاله قصيدة جاء فيها :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا  واللؤم تحت عمائم الانصار
فذروا المعالي لستم من أهلها  وخذوا مساحيكم بني النجار

وقد أشار فيها بصورة خاصة الى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الملقب بابن الفريعة بقوله :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته  كالجحش بين حمارة وحمار

ومرت الايام ،فاذا العلاقة بين الاخطل وبين زعماء أمية تتوثق ، فيصبح هذا الرجل ذا مركز سياسي هام في بلاط الامويين . يدافع عنهم ويمدحهم ،ويندد بأعدائهم ، وينشر لبني امية فضائل تجعلهم أولى الناس بالحكم ، ويذكر للشيعة والخوارج والانصار مثالب وأخطاء تسكتهم وتدلل على تعنتهم . ولم يكن هذا الشاعر لينسى قومه في أي حال . فراح يشدد أواصر الصداقة بين بني تغلب والامويين ، يسهّل عليه مهمته في ذلك ، كون تغلب عدوة للقيسية ، وكون القيسية مناهضة للحكم الأموي . والحق ، أنه ما من شاعر استطاع كما استطاع الأخطل أن يمثل السياسة الأموية ،والخصومات القبلية ، التي كانت تحدث في ذلك الزمن ، مشدودة الى عجلة الخلافة في معظم الاوقات .

واليك الآن نموذجاً من مديحه في عبد الملك بن مروان .

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بَكروا
واز عَجتهُم نوى في صرفها غِيَرُ [1]

كأنني شاربٌ يوم استُبدَّ بهم
من قرقفٍ ضُمِّنتها حمصُ أو جدرُ [2]

جادت بها من ذوات القار مُترعةٌ
كلفاء ينحتُ عن خرطومها المدَرُ [3]

لذٌّ أصابت حُمَيّاها مَقاتلَهُ
فلم تكدْ تنجلي عن قلبه الخُمَرُ [4]

كأنني ذاكَ أو ذو لوعةٍ خبَلتْ
أوصاله وأصابت قلبه النُّشَرُ [5]

---

١ – القطين : القوم المسافرون . راحوا : عادوا عند المساء . بكروا : ذهبوا في الصباح . ازعجتهم : ابعدتهم .

٢ – استبد بهم : غلب عليهم . والقرقف : الخمرة التي تقرقف صاحبها وترعده .

٣ – ذوات القار : الخوابي المطلية بالقار وهو صمغ اسود كالزفت . كلفاء: أصاب لونها كلف وتغير . ينحت : يتفتت. خرطومها : فوهتها . المدر:الطين الذي طينت به فوهتها .

٤ – اللذ : الرجل ذو الحديث اللذيذ . الحيا : حدة الخمرة . مقاتله : كبده وقلبه وكل ما يقتله اذا اصيب فيه . الخمر : التكاسل بفعل الخمرة .

٥ – اللوعة : الحزن . خبلت : أفسدت وأضعفت

شوقاً اليهم ووجـــداً حين أُتبعُهم
طرفي ومنهم بِجَنبي كوكبٍ زُمَرُ[١]
حَثوا المطيَّ فولتنا مَناكبهـــا
وفي الخُدور إذا باغمتها الصُّورُ[٢]
يُـــبرقنَ للقومِ حتى يَحتبلنهُمُ
ورأيُهُنَّ ضَعيفٌ حـــين يُختبرُ[٣]
يا قاتلَ اللهُ وصلَ الغانيـــات إذا
أيقنَّ انك مِمَّن قـــد زها الكِبرُ
أعرضنَ لما حنى قوسي مُوتـّرهـا
وابيضَّ بعدَ سوادِ اللـّمّةِ الشـّعَرُ[٤]
ما يرعوينَ الى داعٍ لحـــاجته
ولا لهنّ إلى ذي شَيبـــةٍ وَطرُ
شرّقنَ إذ عصَرَ العيدانَ بارحها
وأيبستْ غيرَ مجرى السّنـّةِ الخُضرُ[٥]

---

١ – الطرف: كناية عن النظر . زمر : جماعات .

٢ – حثوا المطيّ : حملوها على الاسراع في السير . الخدور : جمع خدر، وهو ما تستتر فيه المرأة . باغمتها : حدثتها حديثاً جميلا . الصور ؛ الوجوه الحسنة .

٣ – يبرقن للقوم ؛ يشرن اليهم . يحتبلنهم ؛ يوقعنهم في حبائلهن . حنى قوسي موترها ؛ كناية عن انحناء الظهر . اللمة ؛ الشعر الجانبي في الرأس .

٥ – عصر العيدان بارحها ؛ اي جفت العيدان من الريح . مجرى السنة؛ مكان سكة الفلاحة

فالعين عانيةٌ بالمـــاء تسفحُـــهُ
من نيةٍ في تـــلاقي أهلها ضررُ [1]

منقضبين انقضاب الحبـلِ يتبعهم
من الشّهيقِ وعـين المُقسَم الوطرُ [2]

حتى هَبطنَ من الوادي لغضبتـــه
أرضاً تحِلُّ بها شيبانُ أو غُبرُ

حتى إذا هُنَّ ورَّكنَ القصيم وقد
أشرفنَ أو قُلنَ هذا الخندقُ الحفرُ [3]

وقعن أُصلاً وعُجنا من نجائبنـــا
وقد تحنّين مَنْ ذي حاجةٍ سَفرُ [4]

الى امريءٍ لا تعدّينــا نوافـــله
أظفرَهُ الله فليَهنِىء له الظفَـــرُ [5]

الخائضُ الغمْرَ والميمونُ طـــائره
خليفـةُ الله يستسقى بـــه المطر

---

١ – عانية ؛ متعبة . تسفحه ؛ تذرفه

٢ – المنقضب : المنقطع . الشهيق ؛ ارضون متباعدة . عين المقسم : بئر في الجزيرة.

٣ – ورك : جعله حيال وركه . القصيم : موضع الحفر . واراد بالخندق خندق سابور في برية الكوفة .

٤ – وقعن اصلا : نزلن بعد العصر – عجنا : عطفنا .

٥ – لا تعدّينا : لا تخلُّ منا .

والهمُّ بعدَ نجيِّ النفسِ يبعثُهُ
باَلحزمِ والأصمعانِ القلبُ والحذَرُ[١]

والمستمرُّ به أمرُ الجميعِ فما
يفترُّهُ بعدَ توكيدٍ له غَرَرُ

وما الفراتُ إذا جاشت حوالبُه
في حافتيه وفي أوساطه العُشَرُ[٢]

وذعذعته رياحُ الصيف واضطربت
فوق الجآجيءِ من آذيِّهِ غُدرُ[٣]

مُسحَنفرٌ من جبال الروم يسترهُ
منها أكافيفُ فيها دونه زَوَرُ[٤]

يوماً بأجود منه حين تسأله
ولا بأجهرَ منه حين يُجتهرُ .

ولم يزل بك واشيهمْ ومَكرُهمُ
حتى أشاطوا بغيبٍ لحمَ مَن يَسروا[٥]

---

١ – الهم : ما هم به الرجل واراد فعله . الاصمع الذكي القوي .

٢ – حوالبه : امواجه . العشر : جمع عشرة وهي نوع من الشجر .

٣ – ذعذعته : حركته بشدة . جآجيء : جمع جؤجؤ – وهو صدر السفينة .

٤ – المسحنفر : السريع الجري . اكافيف : مناكب . زور : اعوجاج .

٥ – اشاطوا : فرقوا .

فمن يكن طاوياً عنا نصيحته
وفي يديه بدنيا دوننا حَصَرُ [1]

فهو فداءُ أمير المؤمنين إذا
أبدى النواجذَ يومٌ باسلٌ ذكرُ [2]

. . .

مفترِشٌ كافتراشِ الليث كلكله
لوقعةٍ كائنٍ فيها له جَزرُ [3]

مُقدَّمٌ مئتي الفٍ لمنزلهِ
ما إن رأى مثلهم جنٌّ ولا بشرُ

يغشى القناطر يبنيها ويهدمُها
مُسوّمٌ فوقه الراياتُ والقتر [4]

حتى يكون لهم بالطّفّ ملحمَةٌ
وبالثّويّة لم يُنبض بها وَترُ [5]

وتستبينَ لأقوام ضلالتُهم
ويستقيمَ الذي في خده صَعَرُ .

---

١ – الحصر : ضيق الصدر .

٢ – باسل : كريه . شديد . ذكر : قوي .

٣ – جزر ؛ كل ما هو مباح للذبح .

٤ – مسوّم : معلم . القتر : الغبار .

٥ – الطف: ارض في ضواحي الكوفة فيها قتل الحسين . الثوية : موضع قريب من الكوفة . لم ينبض بها وتر: لم تستعمل النبال لقرب المتحاربين .

ثم استقلَّ باثقالِ العراقِ وقد
كانت له نقمةٌ فيهم ومُدَّخر

في نبعةٍ من قريش يعصبون بها
ما إن يوازَى بأعلى نبتها الشجرُ [1]

تعلو الهضابَ وحلّوا في أرومتها
أهلُ الرِّباءِ وأهل الفخر إن فخَروا [2]

حُشدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنُفٌ
إذا ألمّتْ بهم مكروهةٌ صَبروا [3]

وإن تدَجّتْ على الآفاق مظلِمةٌ
كان لهم مُخرجٌ منها ومُعتصَرُ . [4]

أعطاهُمُ الله جدّاً ينصرون بـه
لا جـدَّ إلا صغـيرٌ بعدُ محتقرُ .

لم يأشَرُوا فيـه إذ كانوا مواليَهُ
ولو يكونُ لقومٍ غيرهم أَشِرُوا [5]

---

١ – النبعة : شجرة صلبة تؤخذ منها القسي . يعصبون بها يلتفون حولها .

٢ – الرباء : العظمة .

٣ – حشد : جمع حاشد . من لا يتخلف عن نصرة القوم بلا سبب . عيافو الخنا : يأنفون الذل .

٤ – المعتصر : الملجأ او المعقل .

٥ – أشر: بطر .

شمسُ العداوةِ حتى يستقـادَ لهم
وأعظم الناسِ أحلاماً إذا قدَرُوا .
لا يستقلُّ ذوو الأضغانِ حربَهُمُ
ولا يُبيَّنُ في عيـــدانهم خَوَرُ
همُ الذين يبارون الرِّياح إذا
قلَّ الطعامُ على العافينَ أو قتروا . ١
بني أُميّة نُعماكم مُجلـِّلةٌ
تمّتْ فلا مِنـّةٌ فيها ولا كـدَرُ
بني أميَّـــةَ قد ناضلتُ دونـــكمُ
أبناءَ قوم همُ آووْا وهم نصروا
أفحمتُ عنكم بني النجّار قد علمت
عليا معـدٍّ وكانوا طالما هدَروا ٢
حتى استكانوا وهم مني على مضض
والقولُ ينفذُ ما لا تُنفذُ الإبَرُ .
بني أميّة إني ناصحٌ لكـُمُ
فلا يبيتنَّ فيـــكم آمِناً زُفَرُ .
واتـّخذوهُ عدوّاً إن شاهـــده
وما تغيّب من أخـــلاقهِ دَعَرُ

---

١ – قتروا بخلوا على أنفسهم .
٢ – بنو النجار : قبيلة من الخزرج من انصار النبي . عليا معد : بنو قريش .

إن الضغينة تلقاها وإن قدُمت
كالعُرّ يكمنُ حيناً ثم ينتشرُ .

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا
لما أتاك ببطن الغوطةِ الخبرُ

يعرّفونك راس ابن الحبابِ وقد
أضحى وللسيف في خيشومه أثر

لا يسمعُ الصوت مستكاً مسامعهُ
وليس ينطقُ حتى ينطق الحجرُ

أمستْ الى جانبِ الحشّاكِ جيفته
ورأسهُ دونه اليحمومُ والصوّرُ [1]

يسأله الصُّبرُ من حسّان اذ حضروا
والحَزْنُ، كيف قَراكَ الغلمة الجَشرُ ؟ [2]

والحارثَ بنَ أبي عوفٍ لعبنَ به
حتى تعاورَه العقبانُ والسُّبَرُ [3]

وقيسَ عيلانَ حتى أقبلوا رُقصاً
فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا

---

١ – الحشاك : نهر بين دجلة والفرات . اليحموم موضع بالشام .
٢ – الصبر : بطن من غسان . الحزن : حي من غسان . الجشر : الذين يخرجون بدوابهم .
٣ – السبر : طائر شبيه بالصقر .

فلا هدَى الله قيساً من ضلالتهم
ولا لعاً لبني ذَكوانَ إذ عثروا [1]
ضجُّوا من الحرب إذ عضَّت غواربَهُم
وقيس عَيلانَ من أخلاقها الضّجر [2]
كانوا ذوي إمّةٍ حتى إذا عَلقتْ
بهم حبائل للشيطانِ وابتهروا [3]
صُكّوا على شارفٍ صعبٍ مراكبها
حصاءَ ليسَ لها هُلْبٌ ولا وَبَرُ [4]

هي قصيدة من أشهر قصائد الأخطل وأجودها وأطولها نفساً . يبدأها بوصف الطلول وترحال الأحبة . وما ذاك بغريب لأن الأخطل قريب عهد بالجاهلية أولاً ، ولأنه بدوي عريق في بداوته ثانياً . غير أن الذي يجعله مختلفاً عن سائر الشعراء في مطالعهم هو تكريس قسم في المطالع للخمرة ووصفها ووصف مجالسها ، وذكر مفعولها في النفس وفي الجسد ، وما كان ليبرز هذا النزوع الى الخمرة والاهتمام بها ، والتصريح بشربها ، إلاّ كون الأخطل نصرانياً لا سلطة لخليفة المسلمين عليه من هذا الوجه . وكأننا بهذا الشاعر ، حين يقدم الخمرة في شعره على سائر الاغراض إنما يكرس منهجاً اختطّه شاعر تغلبي من قبله ، هو

١ – لالعاً لفلان : لا اقامه الله . ذكوان : رهط عمير بن الحباب .
٢ – عضت غواربهم : ازعجتهم كثيراً .
٣ – ذوي امة : ذوي نعمة . ابتهروا : كذبوا .
٤ – صكوا : حملوا . الشارف : الناقة المسنة .

عمرو بن كلثوم حين قال في بدء معلقته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصّ فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

والملاحظ أن الاخطل في مطلعه الخمري بقصيدة «خف القطين» يستطرد استطراداً، ذلك ان الموقف لا يستدعي الحديث عن الخمرة . ولكن الشاعر حشره حشراً مصطنعاً . فالقارىء لا يحتاج الى كثير من التدقيق حتى يدرك هذه الحقيقة . كان الشاعر في معرض الحديث عن ترحّل الاحبّة ، يصور حالته بسبب هذا الترحل ، فبدا له أنه قد أصيب بشيء من الخبل وفقدان الواعية أمام هذا الحدث المزعج . ولكي يوضح لنا هذا الخبل ، شبهه بما يحدث للشارب حين يكثر من احتساء الخمر ، خصوصاً اذا كانت خمرة قرقفا من صنع حمص أو جدر .

وهنا طاب للاخطل أن يفتح هلالين ليصف ضمنهما خمرته ، حتى اذا أعطانا فكرة عنها انتقل الى تتمة الحديث عن احبته .

وأكبر الظن ، ان للفطرة أثراً في تكوين القصيدة على هذا الشكل . فلو لم يكن الاخطل على شيء من العلوق بالفطرة وبحياة السذاجة ، لما استطرد الى الخمرة ووصفها . والحقيقة أنه ما أطال الحديث في استطراده لكونه أيضاً على جانب من الحساسية الفنية والذوق الشعري . انتقل الشاعر الى الحديث عن أحبته المترحلين ، فذكر شوقه اليهم ووجده بهم ، ووقوفه عند الديار يتأمل رحيلهم ، وفؤاده معهم ونظراته ترافقهم في

ابتعادهم عنه ، وفي نفسه حنين الى ذوات الخدور من الحسان .

وهنا يعود الاخطل الى فتح هلالين أيضاً ، ليصف أخلاق النساء ووسائلهن في اجتذاب الرجال ، وصدودهن عمن أصابه الهرم، «فما لهن الى ذي شيبة وطر»

رافق الشاعر موكب الاحبة بناظريه الى ان غاب الموكب عن العين ، وهبط في الوادي عند الاصيل – إذ ذاك عطف الشاعر عنق مطيته ورأى أن موعد السفر قد حان فتوجه حيثما يقصد .

الى أين ؟

الى عبد الملك بن مروان ، الى ذاك الذي عمت الناس فواضله ، الله اظفره فهنيئاً له النصر .

ويمضي الاخطل في امتداح الخليفة الأموي فيخلع عليه كل فضيلة عربية ويجعله مثلاً أعلى للحكام .

هو الخواض للغمرات العظام ، وهو الذي يتبع اليمن ظله ، به يتبرك الناس وباسمه يرفعون صلاة الاستسقاء . ما كان الحزم سوى جانب بسيط من جوانب خلقه . هو كبير القلب ، به منوط تدبير أمور القوم كلهم ، كريم يتدفق عطاؤه على الناس تدفق نهر الفرات في إبان فيضانه . ولكن ما جميع الناس اوفياء . هنالك قوم يكرهون عبد الملك فيشون به ، ويمكرون له ويحاولون بمختلف الوسائل أن ينكسوا رايته ، والله يأبى أن تظل مرفوعة .

والخليفة رجل شجاع ، خوّاض للمعارك جبار في قيادة

الجيوش ، مثتـا ألف من الليوث يقدمهم بـين يديه ، ثم يغشى القناطر يبنيها ويهدمها ، والانظار اليه متجهة ، والرايات فوقه والغبار قد سدّ معارج الفضاء .

وإذا مدح الأخطل الأمويين عرّض بأعدائهم من بني هـاشم وغير بني هاشم فهو هنا يذكر الطفّ (على مقـربة من الكوفة) حيث جرت المعركة الكبرى بين الأمويين والطالبين وفي هـذه المعركة قتل الحسين وكان النصر لبني أمية .

ويستغل الشاعر هذه المعركة ليشير الى بأس ممدوحيه ويرهب الناس جوانبهم ويجعل من الطالبين عبرة لمن يعتبر . وكأنما يريد من وراء ذلك أن يقول :

أيها الناس ، لا يساور أحداً منكم ريب في أن عبد الملك بن مروان هو خير من يحكم ،وأعظم من يفيء الناس اليه ، ولا يخطر ببال أحد منكم عصيان أو انتقاض على أرادته ، حتى لا يكون مصيره مصير الثائرين في الكوفة . ثم يعيّر الطالبين وأهل العراق صغارهم ، وخضوعهم لعبد الملك ، بعـد أن كانوا يصعّرون خدودهم تصعيراً ، وبعد أن كانوا يضمرون له في نفوسهم كل شر .

وواضح أن الاخطل خفيف اللهجة هنا في تعريضه ، فهو لا يقذع ولا يتشفى بل يحافظ على الاتزان والرصانة احتراماً لمكانة الممدوح ، ومسايرة لاريستوقراطية البلاط الأموي وجلاله .

على أن الاخطل لا يكتفي بامتـداح الامويين أفراداً ، بل يمتدحهم جملة كذلك ، فيجعلهم في نبعة من قريش يلتف الناس حولها ويلوذون باظلالها ، وهي مرتفعة مرتفعة ، تعلو الهضاب

حق لا يوازيها في علوها شجر ، وفي أرومتها قد حل فرع بني مروان أهل الرباء والعظمة واهل الفخر إن فخروا .

ولست أحسبك غافلاً عن قوله «في نبعة من قريش يعصبون بها ، فلقد استعار لفظة النبعة للفرع الأموي ، والنبع شجر متين الاغصان طويلها ، جميلها، هو احسن ما يؤخذ منه الرماح وبنو أمية شجرة ، أغصانها رجال أقوياء ، أذكياء ، ذوو رفعة ووقار ووسام وحسن محتد ، وكما تخرج النبعة رماحاً ، كذلك بنو أمية يخرجون خلفاء وامراء وحكاماً ، وكما يفيء الناس الى ظل شجرة النبع ، كذلك يفيئون الى ظل بني أمية . والنبع يحيا في الأعالي ، والأعالي مواطن الأمويين.

والحق أن شاعرية الأخطل ، وإن تجلت في كثير من أقواله، إلا أنها أكثر ما تتجلى في مثل هذا المديح . وما نظن أن شاعراً قبل الاخطل أضفى من العظمة على ممدوح ما اضفاه الاخطل على الاسرة الاموية في أبياته الواقعة بين قوله «حشد على الحق ...» وقوله : «تمت فلا منة فيها ولا كدر» .

فهل يستطاع أن يقال في قوم أكثر من أنهم حماة للحق ، عيّافون للذل ، يصبرون على المكاره ، ويخرجون من كل ضائقة والنصر يكلل رؤوسهم ؟

إذا كان بنو أمية خلفاء ، فبإرادة الله . هو الذي نصرهم ، وهو الذي اختارهم قادة للامة . كل قوم شأنهم دون شأن أمية. ومع ذلك فانك لا تراهم يأشرون ولا يعتريهم غرور أو بطر ، ولا يتسرب الى نفوسهم الصلف لرجحان في عقولهم ، واتزان في

شخصياتهم .

جاء في كتاب الاغاني [1] أن أبا العباس السفاح قد قيل له : ان رجلا شاعراً قد مدحك ، فتسمع شعره ؟ قال : «وما عسى أن يقول فيّ بعد قول ابن النصرانية في بني أمية :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
واعظم الناس أحلاما اذا قدروا

والحق أنه بيت من أمدح الشعر وأفخره ؛ فيه جمع بين الشدة واتساع السطوة من ناح ، وبين الحلم من ناح ثان ، وهذا جلّ ما يرتجيه الحاكم .

ومن المعاني التي مدح بها الاخطل بني امية الكرم . ولكنه كرم مثالي يجعلهم يبارون الرياح الى العطاء حتى في أعصب الايام وأشدها جفافاً .

وجودهم لا يقتصر على فئة من الناس ، بل يشمل الجميع ويجلّلهم ولا يعكّره منّة او كدر .

بعد هذا المديح ، ينبري الأخطل لأغراض سياسية خاصة تهمّه بالذات وتهم قومه التغلبيين ، فيتحدث عن مكانته من بني أمية ومنافحته عنهم ، ووقوف تغلب بجانبهم في كل حين ،وهو يعرض باعداء قبيلته، ويظهر معاداتهم للخلافة ، آملاً أن تتوثق العلاقات بين الامويين والتغلبيين ، وأن يبعد الأمويون في الوقت نفسه قيس عيلان ، وبني عامر بن صعصعة وبني سليم ، ويهجو

---

١ – ج ٧ – ص ١٧٩ .

جريراً من بني كليب بن يربوع وقومه ، وسواهم ممن كانوا يناوئون قبيلة الاخطل .

من يرسل النظر في هذه القصيدة ، وفي قصائد اخرى للأخطل ، لا بد من أن يلاحظ الامور الآتية :

١ – إن الأخطل بدوي توافرت فيه طباع البدو ودارت على لسانه ألفاظهم واستمد معانيه من حياتهم .. فمن مظاهر البداوة في شعره : خفّ القطين ، وحثّ المطايا ، وعصر البارح للعيدان ، وانقضاب القافلة كانقضاب الحبل ، وهبوط القوم لغضبة الوادي ، والعوج من النجائب ، وجميع الفضائل التي ينسبها الى الممدوح والى بني أمية جملة . ولم يقف مظهر البداوة عند المعاني ، بل تعداها الى الألفاظ ، فانفرطت في قصيدته هنا وهناك ، منها القطين ، ومجرى السنة ، وركن القصيم ، والخائض الغمر ، ومنها مسحنفر ، وأشاطوا ويوم ذكر ، والقتر ، والمعتصر ، والعافين ، والجشر ، والحصاء ، والعيارات والهداجون ، والسؤر ... الخ

٢ – انه كان ذا مركز سياسي هام في بلاط امية ، مستجاب الطلب ، مسموع الكلمة ، كثير الدل ، يقدم اليهم النصائح كأنه مستشار سياسي لهم .

٣ – إن الاخطل كان سفيراً لبني تغلب في البلاط الأموي ، يدبر شؤون قبيلته ويرعى مصالحها ويجعل بينها وبين أمية وحدة في الهدف وودّاً .

٤ – إنه كان في مديحه يلحّ على قضية الخلافة ، وكان يروّج

لرأي بني أمية الذي أرادوا اقراره في خلد العالمين ، وهو أن الخلافة قد جاءتهم من الله وإرادة الله لا مرد لها . فلو كان جلّ جلاله راضياً عن خلافة علي لجعل علياً ينتصر ، ولو أرادها لغير الامويين لنفذت ارادته .

تمت جـــدودهم والله فضّلهم
وجد قوم سواهم خامل نكد .
هم الذين أجـــاب الله دعوتهم
لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
ويوم صفين والأبصار خـــاشعة
أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد
على الأولى قتلوا عثمان مظلمة
لم ينههم نشد عنه وقـــد نشدوا
وأنتم أهــــل بيت لا يوازنهم
بيت إذا عدت الاحساب والعدد

ولعلك قد لاحظت كيف أن الاخطل يردد لفظة الله ويجعل كل شيء منه ، ضرباً على وتر العاطفة الدينية وإفحاماً لكل مكابر .

وما من أحد يستطيع أن يشك في قدرة الله وقضائه . ولم يعد الخليفة الأموي خليفة للنبي وخلفاء النبي ، بل هو خليفة الله مرة واحدة . هو ظله على الارض وحامي كلمته ومنفذ إرادته .

الى امرىء لا تعدينا نوافـــله
أظفره الله فليهنيء له الظفـــر

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى بـه المطر

والأخطل هنا ينسجم كل الانسجام مع زياد بن أبيـه في سياسة بني أمية . ويروّج لما كان يروج له زياد في قوله : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة في ما أحببنا ولكم علينا العدل في ما ولينا» . ولكن زياداً لم يضع نفسه تحت شروط كتلك التي وضع ابوبكر نفسه تحتها حين قال : «اطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم» . بل عقب على كلامه بقوله :

«فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس» .

٥ ـ في مديح الأخطل انعكاس لكثير من المعتقدات الاسلامية ، وتعظيم للأمويين وتحليل لسياستهم من داخل التعاليم المحمدية ، مما يدل على أنه قد ألم بالدين ومعطياته على الرغم من كونه نصرانياً .

وفي مديحه أيضاً ، صورة للنزاع القبلي بين القيسية واليمنية وارتباط هذا النزاع بعجلة الخلافة ، وصورة للصراع الحزبي السياسي على أوسع نطاق ، وكيف كان ينظر اليه من نوافذ بني أمية .

٧ ـ كان الاخطل تلميذاً للنابغة ، يتبع خطاه في شعره ،

ويعارضه ويكتسب منه . فمعاني النابغة كثيراً ما شاعت في شعر الاخطل ، وصوره كثيراً ما طابت لشاعر أمية فضمنها أشعاره كذلك الوصف للفرات الذي لا يختلف إلا في بضع كلمات عما قاله النابغة في تشبيه الممدوح به . ولم تقتصر تلمذته على الشعر ، بل تعدته الى الحياة الشخصية . فكما ترك النابغة الصحراء الى القصور في الحيرة وفي الشام ، كذلك ترك الاخطل البادية الى العيش في بلاط دمشق إبان عزه وأبهته . فتلون شعره بألوان الحضارة مثلما تلون شعر النابغة من قبل .

غير أن المركز الذي أحرزه الأخطل لدى الامويين ، كان أقوى بكثير من المركز الذي ناله النابغة لدى أيّ من الدولتين ، اللخمية ، أو الغسانية . وقد يكون السبب في ذلك ، أن الامويين علقوا أهمية كبرى على وجود الأخطل في صفهم لا لأنه شاعر ينافح عنهم فحسب ، بل لأن وراءه قوة مادية ايضاً هي قبيلة تغلب العاتية ، فهم محتاجون اليه أكثر من حاجته اليهم ، بينما كان النابغة أكثر حاجة الى الغساسنة ، والمناذرة منهم اليه ، وكان مضطراً الى مراعاة الطرفين خدمة لقبيلته ، مما اضطره أيضاً الى اللعب على حبلين ، وهذا الترجح هو الذي أضعف مركزه أيضاً ؛ في حين كان الأخطل ، مخلصاً كل الاخلاص للامويين وقف شعره عليهم وتصدى لاعدائهم بكل عنف ومقدرة .

ناهيك بأن سياسة الاخطل ، كانت أكثر تعقيداً ورقياً من سياسة النابغـة . هي سياسة الحزب في الدرجة الاولى ، وإن كانت مظاهر القبيلة ما تزال عالقة بها .

## من مديح جرير

كان جرير بن عطية بن الخطفي ينتسب الى قبيلة كليب بن يربوع التميمية . وكان مولده في عهد عثمان بن عفان بأرض اليمامة .

نشأ هذا الشاعر قليل ذات اليد ، وترعرع في ضعة من قومه ، ببيت والد فقير الحال حقير الشأن ، شحيح جـــاهل ، فرعى المواشي في صباه . ولقي من شظف العيش وقسوته شيئاً كثيراً . . غير إن جده الخطفي كان شاعراً عالماً بأنساب العرب ، فاكتسب منه حفيده شاعرية ومعارف وفناً . وتشبّع جرير بطباع البدو ، وأخذ عنهم صفاء اللغة ، وبساطة العيش ، كما أخذ عنهم النزق وسرعة الانفعال والخشونة والأنفة ، ومقابلة الشر بمثله ، والتعصب الشديد للقبيلة . ثم إنه دان بالاسلام على نحو ما كان كل بدوي يدين به ، من غير ما تعمق أو تغلغل الى داخل القلب .

التف حوله قومه منذ أن كان في صباه ، حين هجا غسان السليطي لأن السليطي هجا قوم الشاعر . ووجدوا فيه رجـــلا عبقرياً لايجود الزمان بمثله إلا نادراً ، ودار التهاجي بين الشاعرين ، فما لبث جريرأن ظهر على خصمه مما اضطر بني سليط الى الاستعانة بشعراء آخرين يهجون جريرا .

ما إن أصاب جرير الشهرة ، حتى أخذ الشعراء يتحرشون به ، متخذين من هجائه وسيلة لشهرتهم . غير أن أعظمهم في ذلك وأكثرهم ثباتاً أمام أبي حزرة كان الفرزدق . فلقد استمر التهاجي بينهما سنين طوالاً ، ولم تنطفىء جذوته الا بموت الفرزدق .

والذي يستفاد من روايات الأغاني : أن نحواً من أربعين شاعراً كانوا ينهشون جريراً ، وأن الحجاج قال له ذات يوم [1] إيه يا عدو الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلني الله فداء الأمير ، والله إني ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فانتصر » ثم راح يعدد له الشعراء الذين هاجاهم وأسباب مهاجاته لهم حتى قال الحجاج : «قاتله الله اعرابياً انه لجرو هراش» .

أما أبرز هؤلاء الشعراء ؛ فالأخطل التغلبي ، والراعي النميري ، فضلاً عن الفرزدق . وما حكاية جرير مع الراعي بمجهولة ، وما هي مجهولة كذلك قصيدة جرير الدامغة التي حطم فيها الراعي وبني نمير أجمعين حين قال :

أنا البازي المطل على نمير أتحت من السماء لها انصبابا
ولو وضعت حلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا
فصبراً يا تيوس بني نمير فان الحرب موقدة شهابا
وغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ويذكرون أن كل امرىء من نمير ، قد أصبح بعد هذه القصيدة يخجل من الانتساب الى قبيلته ، فينتسب الى غيرها هرباً من الوصمة التي وصمهم بها جرير .

على أن الهجاء ليس الفن الوحيد الذي أتقنه ابن عطية . بل إن له مديحاً لا يقل جودة عن هجائه ، فيه شاعرية سمحة دفّاقة ، وفيه بلاغة وصفاء وشدة أسر . قال جرير هذا المديح تكسباً .

---

١ – الاغاني ج ٨ – ص ١٥

فلقد اتصل ببلاط بني أمية إبان حكم يزيد بن معاوية . ولما شبت نار الفتنة بين ابن الزبير ومروان بن الحكم اختار جرير جانب الزبيريين لما بدا من عداوة أمية للقيسية التي كان جرير يتعصب لها ، ومن تقريب لليمانية أعداء قومه ، حتى اذا قضى الأمويون على ابن الزبير ، عاد جرير يتلمس طريق العودة الى أمية فاتصل ببشر بن مروان شقيق عبد الملك ، وكان والياً من قبل أخيه على العراق فمدحه . ثم اتصل بالحجاج خليفته ، فقال فيه مدائح رائعات . وقد رضي الحجاج عن جرير كثيراً وحاول مساعدته لدى عبد الملك كي يكون شاعراً للبلاط الأموي . ولكن عبد الملك على تقديره لجرير وشعره كان يحفظ له انحيازه الى الزبيريين من ناح وانصرافه الى الحجاج من ناح ثان، ليقول فيه خير مدائحه . لذلك لم يأذن له بالدخول عليه إلا بعد لأي ، وأنشد جرير عبد الملك قصيدته الشهيرة ومنها قوله :

سأمتاح البحور فجنّبيني ... أداة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأُمي ... بغيث منك إنك ذو ارتياح
فاني قد رأيت علي حقاً ... زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت علي ريشي ... وأنبتَّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح ؟

فرضي عبد الملك عنه، وكافأه بجائزة كبرى ، وراق له أن يكون فحل من فحول الشعراء كجرير في جانبه . ومنذ ذلك الحين

كثرت مدائح جرير في الأمويين الى ان توفي سنة ١١٠ هـ بعد ان مات الأخطل والفرزدق قبله .

**مدح الحجاج :**

سئمتُ من المواصلةِ العِتابا
وأمسى الشّيبُ قد وَرث الشّبابا
غـدت هوجُ الرياحِ مبشراتٍ
الى بـينٍ نزلتِ به السّحابا ١
لقـد أقرَرْتِ غيبتنا لِواشٍ
وكنا لا نُقرُّ لـكِ اغتيابا ٢
أناةٌ لا النّموم لهـا خدينٌ
ولا تُهـدي لِجارَتها السِّبابا ٣
تطيبُ الأرضُ إن نَزلَت بأرضٍ
وتُسقى حين تنزلها الرّبابا . ٤
كأنَّ المسكَ خالطَ طَعم فيها
بماءِ المُزنِ يَطّردُ الحَبابا ٥

---

١ — الهوج : جمع هوجاء وهي الرياح الشديدة . البين : الناحية من الأرض.
٢ — الغيبة : ذكر المرء بما يسوءه اثناء غيابه .
٣ — الأناة : الرزينة الوقور . النموم : المفسدة بين الناس بالكذب . الخدين : الصديق .
٤ — الرباب : السحاب الأبيض .
٥ — المزن : السحاب . حباب الماء : نفاضاته التي تعلوه.

أَلا تَجزينني وهُمومُ نفسي
بذكرك قد أُطيلَ لها اكتئابا [1]
سُقيتِ الغيثَ حيثُ نأيتِ عنّا
فما نهوى لغيركُمُ سِقابا [2]
أهذا البخلُ زادَكِ نأيَ دارٍ
فليت الحبَّ زادكمُ اقترابا .
لقد نامَ الخلِيُّ وطال ليلي
بحبّكِ ما أَبيتُ له انتحابا .
أرى الهِجران يُحدِثُ كل يومٍ
لِقلبي حينَ أهجُركم عتابا .
وكائن بالأباطح من صديقٍ
يراني لو أصبتُ له المصابا [3]
ومسرورٍ بأوبَتنا اليه
وآخر لا يحبُّ لنا إيابا
دَعا الحجّاجُ مثلَ دُعاء نوحٍ
فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا [4]

---

١ — الا تجزيني : يريد بها ان يقول الا تصليني .
٢ — النأي : البعد . السقاب : القرب والجوار .
٣ — كائن : من كنايات العدد بمعنى كم الخبرية التي تفيد التكثير . وهي تفترق باقتران تمييزها بمن. الاباطح : جمع ابطح وبطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
٤ — دعا نوح ربه فقال : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . » ذو المعارج : هو الله والمعارج : السموات .

صبرتَ النفس يا ابن أبي عَقيلٍ
مُحافظةً فكيفَ ترى الثّوابا ؟

ولو لم يرضَ ربُّكَ لم يُنزّلْ
مع النّصرِ الملائكةِ الغضابا

إذا سَعَرَ الخليفةُ نار حربٍ
رأى الحجاجَ أثقبها شِهابا [1]

ترى نَصْرَ الإمامِ عليكَ حقاً
إذا لَبَسوا بدينهِمُ ارتيابا [2]

تشدُّ فلا تكذّبُ يومَ زحفٍ
اذا الغَمراتُ زعزعتِ العُقابا [3]

عفاريت العراقِ شفيتَ منهم
فأمسوْا خاضعين لك الرّقابا

وقالوا لن يُجامِعَنا أميرٌ
أقام الحدَّ واتّبع الكتابا

إذا أخذوا ، وكيدُهمُ ضعيفٌ
ببابٍ يمكرونَ فتحتَ بابا

---

١ — سعر ؛ أشعل . ثقبت النار ؛ اتقدت ، والكواكب، اضاءت . والشهاب ؛ الكوكب .

٢ — الامام ؛ امير المؤمنين عبدالملك . اللبس ؛ الاتصال والاختلاط والاشتباه .

٣ — تشد ؛ تحمل على الاعداء . الغمرات : الشدائد . العقاب . الراية .

وأشمطَ قد تردّدَ في عمـــاهُ
جعلت لِشيبِ لحيتهِ خضابا[1]
إذا علِقت حِبالُكَ حبلَ عاصٍ
رأى العاصي من الأجل اقترابا
بـــأنّ السيف ليس له مَرَدٌّ
إذا أفرى عن الرِّئةِ الحجابا[2]
كأنك قد رأيتَ مُقـــدّماتٍ
بصينستانَ قـــد رَفعوا القِبابا[3]
جعلتَ لكلِّ مُحترِسٍ مَخوفٍ
صفوفاً دارِعين بهِ وغَـابا .[4]

في هذه القصيدة يقدم الشاعر بين يدي مديحه أبياتـــاً في النسيب . ولكنه نسيب رقيق يستمد رقته من حساسية جرير وعواطفه وسعة شعوره ، فيتحدث عـن الهجران ، والتوق الى المواصلة والعتب الشديد الذي يبعث به الشاعر الى حبيبته ، ثم يستسقي الغمام لكل أرض تطأها الحبيبة . والذي كان يؤلمه ، هو استماعها الى الوشاة وتصديق اقوالهم ، في حين انه ما كان يوماً ليصغي الى واش . . والحبيبة في شعر جرير امرأة رصينة

---

١ – الاشمط ؛ الذي وخطه الشيب.
٢ – مردّ : مصرف . أفرى : شق وقطع .
٣ – مقدمة الجيش ؛ الطائفة المتقدمة منه . صينستان ؛ بلاد الصين .
٤ – المحترس : المكان الخطر . دارعـين : لابسين دروعهم . الغاب ؛ جمع غابة .

عاقلة ، حسنة السيرة ، عـــالية الخلق ، لا تنم ولا تشتم ، ولا يكرهها جيرانها . اذا نزلت بارض بوركت هذه الارض ، ونما فيها الخير ، وكثر الرزق . والملاحظ ، أن جريراً يهتم بأخلاق المرأة أكثر من اهتمامه بمحاسنها الجسدية ، وان كان لا يهمل هذه المحاسن كل الاهمال . وهو يعنى بإظهار لوعته وما يسبب لهحبه من هموم ومع ذلك فانه لا يقلع عن صبابته ، بل يزداد تعلقاً بمن يحب . والناس بين عاذل يلوم ، وهو يضحك في سره وصديق يرثي لحال صديقه ويشاركه بعض وجده .

فاذا انتهى جرير من النسيب ، وثب الى المدح ، فبـــدا له الحجاج كنوح نبي الله ، يبيد الكفر ، ويستأصل جذور الفساد، ويقضي على كل شر في ولايته . وهو حرب على أعـــداء الدين وأعداء الخلافة ، يأتيه نصر من الله ذي المعارج ، وتستجـــاب دعواته . هو رجل صبور يحمل النفس على الشدة فيحارب أعداءه بمعونة من ملائكة الله المكرمين . لذا ، كان الحجاج درعاً تقي الخلافة الأموية كل سوء وتكفيها كل حرب ، وما كان الحجاج في يوم من الايام نصيراً للخلافة إلا في الحق ، وذوداً عن الدين بنوع أخصّ .

ويستمر جرير في إضفاء البطولة على صاحب العراق ، ويتغنى بفوزه ، وكسره شوكة كل من سولت له نفسه معارضة الطاغية الثقفي ، فويل لمن يغضب الحجاج عليه ولا . ينسى جرير المناسبة التي أرسل فيها الحجاج أول جيش الى الصين ، فيذكر ذلك ويتغنى به كمأثرة من مآثر الرجل ، كما يتغنى بحكم الحجاج عامة ، ونشره

الأمن في كل ربـع من ربوع البلاد ..

**خصائص جرير في هذه القصيدة**

١ – إن أول ما يسترعي انتباه الدارس لهـذه القصيدة هو المطلع الغزلي ، وجميـع قصائد جرير كانت تستهل بالغزل على سنة الشعراء في ذلك العصر ، وفي عصر الجاهلية .

غير أن هنالك شيئاً تمتاز به مطالع هذا الشاعر الغزلية هو الاطالة فيها إطالة ملحوظـة حتى تستغرق هنا بضعة عشر بيتاً وقد تتجاوز العشرين في غير هذا الموضع .

٢ – والنسيب في شعر جرير رقيق شفاف عذب الاصوات منسجم النغم ، صادق العاطفة رزين ينساب هادئاً ليناً وقـد أودع من رهافة الحس وصقل الذوق شيئاً كثيراً . تناقل عنـه الرواة أنه كان يقول : « مـا عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها .

والواقع أن جريراً لم يتح له أن يتفرغ الى الحب كما تفرغ ابن ابي ربيعة وابن الرقيات وكثير . فلقد شغل بالشعراء ينهشونه وهو يقارعهم ويرد عليهم واحداً واحداً . ولو تيسر له أن يحيا حياة هادئة ، لكان قد أعطى الكثير من الشعر الجيد الذي لا عهـد للناس به .

٣– في شعر جرير طبعية وسهولة وتعابير أنيقة ، لا في غزله فحسب ، بل في مديحه وفي هجائه وفي رثائه وفي كل فن نظم فيه هذا الرجل . فهو من هذا القبيل لا يعتمد الا على فطرته الشعرية

ولا يفهم الشعر الا عمليــة غنائية ، عاطفيه وجدانية على النحو العربي الأصيل. واذا كان عمود الشعر العربي قد حوفظ عليه لدى رهط كثير من شعراء العرب فإن جريراً والبحتري هما أبين من حافظ عليه وعلى الديباجة العربية الحقيقية .

٤ ــ اذا أراد جرير أن ينتقل من النسيب الى المديح كان انتقاله مفاجئاً لا تلطف فيه ولا جسر يربط بين الجزئين . وأكبر الظن أن هذه الظاهرة هي وليدة التقليد المتبع منذ الجاهلية ، والذي لم يكن جرير ليشذ عنه أيما شذوذ .

٥ ــ كان جرير رجلاً بدوياً كما كان صاحبه الأخطل وكان لبداوته أثر بــيّن في شعره ، إن في قوة التركيب أو في جزالة الألفاظ أو في بساطة المعاني أو في الصور والأخيلة . وقد يكون عدم تحرجه من استخدام التعابير المكشوفة أثراً من آثار هــذه البداوة .

٦ ــ في شعر جرير أثر إسلامي واضح المعالم يدل على ايمان جرير أولاً ، ويدل على تأثره ببلاغة القرآن ثانياً ، وعلى أنه كان يدرك ما للدين من أهمية في النفوس ثالثاً ، وما يمكن أن يخلع من القداسة على أعمال رجل يربط بينها وبين أرادة الله. ولم يك جرير في ذلك شاذاً ، بل ان السياسة على اختلاف مذاهبها ورجالاتها، كانت تسعى الى تلقيح وجهة النظر لديها بلقاح ديني. والأمويون بنوع أخص ، وولاتهم كانوا يروجون أن الله هو الذي أعطاهم السلطان على نحو ما رأينا في شعر الأخطل .

ولقد ذهب جرير الى ابعد من ذلــك ، فضمن شعره أقوالاً

قرآنية أو معاني قرآنية فالحجاج يدعو كدعاء نوح حين قال : « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا ألا فاجراً كفّارا . » فاستجاب له الله «ذو المعارج» واذا مكر الكافرون رأيت الحجاج يأخذهم بمكر كمكرهم اقتباساً من الآية الكريمة : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون » .

وله في مديح عبدالملك أبيات توضح هذا النفس الديني أشد إيضاح منها قوله :

لولا الخليفة والقرآن تقرأه
ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرف
فيما وليت ولا هيّابة ورع
مثل المهند لم تبهر ضريبته
لم يغش غربيه تغليل ولا طبع .
أنت المبارك يهدي الله شيعته
اذا تفرقت الأهواء والشيع .
فكل أمر على يمن أمرت به
فينا مطاع ومهما قلت مستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلاً عظيماً على من دينه البدع
إن البرية ترضى ما رضيت لها
إن سرت ساروا وإن قلت اربعوا ربعوا

ونرانا في غنى عن تبيان العلاقة بين هذه الأبيات وبين السياسة الأموية ، فهي تنضح بما كان الامويون يسعون الى نشره بين الناس وإرساخه في أذهانهم .

٧ – إن الفضائل التي خلعها جرير على الحجاج هي الفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها كل وال . فهو اولاً مسموع الدعاء ، وهو صبور يلقى دائماً نتيجة صبره خيراً ولا غرابة ، فالله عن أعماله راض والخليفة يوكل اليه كل أمر جلل . والحجاج يدافع عن الدين ويرفع كلمة الله ، وهو شجاع حازم خواض للغمرات، مقيم لحدود الله ، متقيد بتعاليم كتابه . قادر على بسط سلطانه وعلى ضبط الشؤون في جميع مرافق ولايته . العصاة يرتعدون منه رهبة ، والسيف لا ينبو بكفه .

وما أغفل جرير عنصر الدهاء ، وما كان الحجاج ليعوزه هذا العنصر وهل بعد هذه الصفات من صفة تنقص الوالي المثالي؟

٨ – كان جرير يتكسب بمديحه ، ويلمح الى تكسبه بكلام يضمنه شعره . وإن لم نلمح مثل هذه الاشارات في القصيدة التي بين أيدينا ، ففي الأبيات السابقة التي مدح بها عبد الملك تصريح ظاهر وتزلف أيضاً .

أغثني يا فداك أبي وأمي
بسيب منك إنك ذو ارتياح
سأشكر إن رددت عليّ ريشي
وأنبتّ القوادم في جناحي

٩ – يختلف المديح لدى جرير عن المديح لدى الأخطل ، في أن جريراً لم يحتذ حذو إنسان في شعره كما فعل الأخطل إذ اتبع خطى النابغة الذبياني .

**من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات:**

هو شاعر من قريش ، لقب بالرقيات لانه شبب بثلاث نسوة كل منهن كان اسمها رقية . أما في السياسة فكان زبيري الهوى يناصر الحزب مناصرة فعالة ، ويتعصب كثيراً لصديقه مصعب ابن الزبير .

فلما خرج مصعب لقتال عبد الملك ، خرج الشاعر معه ، وظل في صحبته حتى قتل مصعب عام ٧٢ هـ . وما أشد ما كانت نقمة الأمويين عليه فراحوا يطلبونه، وهو يفر من مكان الى مكان حتى انتهى به المطاف عند عبدالله بن جعفر بن أبي طالب . فاستجار به فأجاره، وكتب حفيد أبي طالب الى أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، فوفد الشاعر عليه ، ومدحه بقصيدة جاء فيها :

يعتدل التاج فوق مفرقه    على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : « يا قيس ، تمدحني بالتاج كأني من العجم ، وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهابٌ من الله    تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزّة ليس فيه    جبروت ولا به كبرياء؟

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين

عطاء ابداً . »

عندها ترك عبيد الله دمشق الى مصر حيث يوجد عبد العزيز ابن مروان ، شقيق عبد الملك . فلزمه حتى مات سنة ٧٥ هـ .

واليك واحدة من أشهر قصائده في امتداح مصعب بن الزبير :

قال بعد أن وصف الطلول وذكر الأحبة .

حبّذا العيشُ حين قومي جميعٌ  لم تُفرّق أمورَها الأهواءُ
قبلَ أن تطمعَ القبائلُ في ملك قريشٍ وتشمَتَ الأعداءُ
أيها المشتهي فناءَ قريشٍ  بيدِ الله عمرُها والفناءُ
إن تُوَدِّعْ من البلادِ قريشٌ  لا يَكنْ بعدَهمْ لحيٍّ بقاءُ
لم نزَلْ آمنين يحسدُنا الناسُ ويجري لنا بذاك الثَّراءُ
فرضينا فمُتْ بدائكَ غمّاً  لا تُميتنّ غيركَ الأدْواءُ
لو بَكتْ هذه السماء على قو  مٍ كرامٍ بَكت علينا السماءُ
إنما مُصعَبٌ شهابٌ من الله  تجلتْ عن وَجههِ الظلماءُ
مُلكُهُ ملكُ قوةٍ ليس فيه  جَبَروتٌ ولا به كبرياءُ
يتّقي الله في الامور وقد أفلحَ من كان همَّه الإتّقاءُ
عينِ فابكي على قريشٍ وهل يُر  جِعُ ما فات إن بكيتِ البكاءُ
معشرٌ حتفُهُمْ سيوفُ بني العـ  لاّتِ يخشونَ أن يَضيعَ اللواءُ
كيفَ نومي على الفِراش ولما  يَشمَلِ الشامَ غارةٌ شعْواءُ
تُذهِلُ الشيخَ عن بنيه وتبدي  عن بُراها العقيلةُ العذراءُ
أنا عنكم بني أمية مُزْوَرٌّ  وأنتمْ في نفسيَ الأعداءُ
إنّ قتْلى بالطّفّ قد أوجعتْني  كان منكمْ لئن قتِلتُمْ شِفاءُ

هكذا كان الرقيات يفكر ، وكان يعنيه كثيراً ان يجتمع شمل قريش ، فلا يكون هذا الانقسام بين هاشميين وأمويين وزبيريين يتطاحنون ويفني بعضهم بعضاً ، ويجعلون العداوة والبغضاء ، غرساً في نفوسهم .

كان يعتبر أن السبب في هذا التفكك يعود الى مطامع أمية ، وعليهم تقع التبعات في جميع الدماء الزكية التي أريقت على مذابح السياسة والذي يمضّ الشاعر أن تصبح القبائل التي لم يكن لها متنفس في يوم من الايام ذات مطامع في الخلافة وفي زحزحة قريش عن زعامة المسلمين .

أهكذا تريدون يا أيها القرشيون ؟ ان يشمت الناس بكم وأن يشتهوا فناءكم ؟ ثم يلتفت الشاعر الى الذين يتربصون الدوائر بقومه ، فيغيظهم ويكيد لهم كيداً ويبلغهم أن تمنياتهم ومساعيهم سوف تذهب هباء ، فقريش لن تذل ، ولن يكون لها وداع من البلاد ، هي في نعمة وستبقى ، فمت بدائك غمّا أيها المبغض اللدود. ولا يغفل الرقيات ما لقريش من قداسة وما لها في السماء من إكرام . ولكن الرجل الذي هو اكرم من في قريش وأعظمها شأناً وأحقها بالسيادة ليس إلا مصعب بن الزبير .

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

يهديه يجب ان يهتدي الناس ، وعلى نوره فليسيروا ، ملكه ملك قوة وهو الحليم الذي لا يسمو اليه جبر ولا كبرياء . أما ترى أن في هذه الصفات ما يذكرنا دائماً بشيخ القبيلة العربية ؟ ولكنه شيخ قد أصاب رقياً ، فدان بالاسلام ، واكتسب منه خلقاً وأدباً

وفضيلة وطهارة وأضفى عليه التقى هيبة لم تكن قبل الاسلام معروفة عند العرب .

وإنها لدمعة حرّى يذرفها عبيدالله على أولئك القرشيين الذين لقوا حتفهم على أيدي قرشيين من إخوانهم تحقيقاً للمطامع السياسية. وفي هذا المقام تشتد لوعته وتقوى نقمته على الذين كانوا السبب في كل هذه الجرائم؛ على بني أمية الذين هتكوا الحرمات واستخفوا بقوانين الدين والأخلاق ، ثم يرسلها صرخة مدوية في الثائرين يدعو بها الى الاغارة على بلاد الشام إغارة عنيفة عامة تذهل الشيخ عن بنيه وتملأ الارض هولاً وذعراً. ويختم الشاعر قصيدته بهجاء الأمويين ويكشف عن عداوته لهم، ثم يعرّض بقتلى الطف وفيهم الحسين بن علي ، ويتمنى لو كان الموت من نصيب الامويين وحدهم فبموتهم فقط شفاء نفسه .

والذي لا يسعنا إغفاله قبل أن نغادر هذه القصيدة هو أن ابن الرقيات كان قرشي الهوى أكثر منه زبيريا . وكانت نقمته على الأمويين متأتية في معظمها من تقريبهم لليمانية وابتعادهم عن قريش ، وعدم اعتمادهم عليها ، ومتأتية أيضاً من استبدالهم الشام بالحجاز عاصمة لهم . أما الخوارج فعداوته لهم ناجمة عن مناداتهم بجمهورية عربية تتساوى فيها القبائل. وابن الرقيات لا يريد إلا حكماً أريستوقراطياً تتزعمه قريش . وما نجد من تفسير لامتداحه الامويين بعد ذلك إلا في كونه قد وجد فيهم هذه الاريستوقراطية القرشية التي كان ينشدها والملاحظ أنه كان يعطف على الطالبيين ، وكان يندد بإيذاء بني أمية لهم بأعتبارهم

في لب قريش ، ومكان عظمة منها .

وإذا كان هذا الشاعر قــــد نظم في الشعر السياسي مدحاً وهجاء ، فان شهرته لم تقم على ذلك بمثل ما قامت على غزله . فهو من الغزلين المعدودين ، ينتمي الى مدرسة عمر بن أبي ربيعة الحضرية ، ان في معانيها وموضوعاتهــــا ، أو في رقتها ودماثة أسلوبها وغنائيتها . ولقد كانت الرقة طابعاً مميزاً لكل شعره ، فهي بارزة حتى في القصيدة التي بين أيدينا ، حيث تجد العاطفة الحزينة الصادقة تمدّ هذا الشعر بما يحتاج اليه من عذوبة ولين ، وحيث تجد الذوق الرهيف يركب الكلام ويختار مفرداته بطريقة لا تحس معها بأية خشونة أو اضطراب .

# المَديح في عصر بني العبّاس

## كيف انتقل الحكم من الامويين الى العباسيين ؟

لقد كان من نتائج الصراع السياسي الذي عرفه عصر بني أمية ، أن قتل الحسين بن علي في كربلاء ، ومات أخوه الحسن ، وتمت السيطرة للأمويين ، ولجأ الطالبيون الى التقيّة .

وكان لعلي امرأة اسمها حنيفة ، او الحنفية ، تركت منه ولداً هو محمد بن الحنفية كان تقياً ورعاً ذا فضل ، تسلّم إمامة الشيعة ، وقضى عمره في خدمة مصالحهم ، والدفاع عن حقوقهم . ولما مات خلفه في الامامة ابنه إبراهيم. والذي يؤثر ، أن عبد الملك بن مروان ، دعا إبراهيم الى دمشق ، ودسّ له سمّاً ، وفيما هو عائد مسموماً ، عرج على الحميمه ، وكان فيها رجل من أحفاد العباس عم النبي محمد وعمّ علي بن أبي طالب ، هو محمد ابن علي بن عبد الله بن عبّاس . فبايعه إبراهيم سرّاً ليؤم الشيعة ، وليتابع العمل على استنقاذ الخلافة من أيدي الأمويين ، وإعادتها الى الطالبيين أصحاب الحق الشرعي .

قام محمد العباسي يبث العيون في خراسان والعراق ، وكل منهما موطن للشيعة ، فأيّدته فرقة الكيسانية العلوية ، واشتدت دعوته في بلاد فارس أيضاً وفيها نصر بن سيّار ، فشعر هذا بأن البلاد تكادأن تفلت منه . فاستنجد بمروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين .

ولكن الخليفة لم يستطع نجدته ، لانه كان منصرفاً الى الانشقاقات القريبة منه، والتي شطرت البلاد الى شطرين كبيرين. القيسيَّة واليمنية . فتخاذل عن إمداد بن سيّار بما يحتاج اليه من جنود ، مما سهّل على أبي مسلم الخراساني ، الذي انضم الى المعارضة أن يبث الدعوة العباسية ، ولو سرّاً . عندها ، هرب نصر بن سيّار الى العراق ، ومات فيه ، وبايع الكيسانية السفاح بن محمد العباسي، الذي اكتسح مرو سنة ٧٤٧ م والكوفة سنة ٧٤٩ م وانساحت جيوشه في أقطار كثيرة ؛ عندها بدأ مروان بن محمد الأموي يستعد للمعركة الحاسمة . فجهز جيشاً يربي على خمسة عشر ألف مقاتل والتقى بالعباسيين على نهر الزاب، فكان النصر حليفاً للسفّاح ، وانهزم مروان بن محمد وجنوده ، ففرّ الى مصر حيث لحق به أعداؤه واحتزّوا رأسه ، ثم أرسلوه الى مقر رئاستهم مع شارات الخلافة. حاصر السفاح دمشق مدة اسبوع سقطت على أثره ، فتم له الأمر ، وأعلن انتهاء الحكم الأموي ، وبداية العهد العباسي .

**ما الذي يميز هذا العهد ؟**

أ - إنه طويل المدى ، قد تجاوز خمسة من القرون ؛ وانه لم يكن عصراً واحداً ، بل كان عصوراً أربعة متتابعة ؛ امتاز الأول منها بقوة الدولة وزهوها ، وباستقرار الحياة ، وغلبة النفوذ العربي وإن يكن الفرس قد نالوا بعض العطف والتقريب .

أما الثاني ، فميزته في أن امارات التصدّع والتفكّك قد بدأت تظهر في جهاز الدولة ؛ وأن الأتراك قد حلّوا محل الفرس في النفوذ والقرب من الحاكم ، وان السيادة العربية قد انهار جانب عظيم منها ، حتى اصبح الخليفة أُلعوبة في أيدي الجنود الأتراك .

إزاء هذا الوضع ، تفككت الأمبراطورية الاسلامية ، واستقل الولاة عن الخلافة ، فضربوا بسلطات « أمير المؤمنين » عرض الحائط ، اللهم إلا نفراً من العرب الخلّص كانوا بمثابة حماة للخليفة ، كبني حميد الطوسي ، وبني حمدان وسواهم .

وهنا دخلت الدولة العباسية في دورها الثالث ، دور الدويلات والصراع بين الحكّام ، واضطراب الحياة العامة .

وأما الدور الرابع ، فمن مزاياه أن السلاجقة الأتراك هم الذين أصبحوا أصحاب الأمر والنهي ، يحكمون البلاد حكماً فيه شيء كثير من الاعتباط والفوضى؛ الى أن جاء التتار بقيادة هولاكو المغولي فخربوا بغداد ، وسحقوا الخلافة العباسية . ثم كانت الحملات الصليبية فلم تعرف بلاد العرب بعد ذلك يوماً من العزّ إلاّ في العصر الحديث ، وإن يكن قد انتشلها بين الحين والحين

رجال أشداء من أمثال صلاح الدين الأيوبي .

ب – في العصر العباسي تكوّن ما نسميه القومية العربية وعوامل هذا التكوّن ترجع الى مظاهر ثلاثة :

١ – افتتاح العرب لبلدان كثيرة واستقرارهم فيها .

٢ – امتزاجهم بعناصر أجنبية ، وقيام نوع من الصراع الاجتماعي بينهم وبين تلك العناصر .

٣ – ذوبان الأمم المغلوبة في بوتقة العرب ديناً ولغة وأدباً وسياسة .

ج – كان العصر العباسي عصر عمران وازدهار في الحياة الاجتماعية ، فيه أُنشئت المدن ، وأُقيمت القصور والمساجد والمستشفيات والمدارس والمتنزهات ودور اللهو . وفيه تفنن العرب في اقتباسهم عن الروم والفرس كثيراً من مظاهر التمدن.

د – ولقد عرفت الحياة العباسية ثروات طائلة وترفاً ورغداً في العيش وإن لم تكن هذه الثروات موزعة توزيعاً عادلاً على مختلف طبقات المجتمع .

وانغمس الناس في اللذاذات ، وافتنوا في طلبها حتى بلغوا المفاسد ، وشاعت في المجتمع عادات وأساليب سيئة أدّت الى الانهيار الخلقي لدى نفر غير قليل من الشعب .

ومن نتائج الترف كثرة الجواري والغلمان والعبيد في ذلك المجتمع ، وانتشار الخمارات هنا وهناك على مرأى من الخلفاء والناس .

ه – لكن العصر العباسي كان عصر رقي في الفكر ،وازدهار

في العلوم ، واتساع في الأدب ، وتجريد في العقل ، وتشعب في مجاري المعرفة . فلقد كثرت فيه المدارس ، وأقبل الناس على اغتراف العلم ، واتسعت حركة الترجمة والتأليف ، فنقـــل الى العربية معظم التراث اليوناني والتراث الفارسي ، والتراث الهندي وغيرها ، من كتب في الرياضيات والفلك والطب وعلوم النبات والكيمياء والحيوان ، والهيئة والفلسفة والمنطق والتاريـــخ والجغرافية وما عدا ذلك من العلوم ، كما اتجه أهل الفكر الى التأليف في مختلف الحقول ، واكتشاف الكثير من أسرار الكون والسير بالمعرفة خطوات جبارة الى الأمام .

ومما شجع الحركة الفكرية على الازدهار ، الامور الآتية :

١ - انتشار النسخ والتدوين ، وازدياد عدد القراء .

٢ - إقامة المكتبات العمومية الكبرى كدار الحكمة في بغداد مثلاً .

٣ - تنافس الملوك والامراء في تشجيع العلم ، وسعي كل منهم الى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة في بلاطه .

٤ - الرحلات العلمية بين الاندلس والشرق .

٥ - تعقد الحياة وتطلبها لفكر غزير يعبر عنها ويعـــالج مشكلاتها .

٦ - كثرة المذاهب الدينية والفكرية ، ونشاط أصحابها في الدفاع عنها ونشرها بين الناس .

٧ - اختمار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية ،

والذي لم يكن منه بدّ ، هو أن تؤثر هذه الحركةالفكرية الواسعة تأثيراً عظيماً في شعر العرب وفي فن المديح بالذات ، كما لم يكن بدّ من أن تؤثر الحياة كلها في هذا المديح .

## خصائص المديح في العصر العباسي عموماً :

من يقبل على دراسة شعر المديح ، وينظر في تطوراته عبر العصور ، يلحظ أنه قد كان منذ الجاهلية يسير في اتجاهات ثلاثة :

● اتجاه أول ، قوامه الاعجاب بالفضيلة وبمن يتحلى بها من الناس ، والمساهمة في بلورة المثل العليا ، والدعوة الى اعتناقها ، والشد بالانسان نحو العلاء في أخلاقه وتصرفاته . وهذا الشعر لم تكن غايته الكسب الفردي ، بل الاصلاح الاجتماعي ، والتعبير عن اهتزاز في الضمير أمام الأعمال العظيمة .

● واتجاه ثان ، قوامه الشعور القبلي ، والعصبية الدموية ، وخدمة أغراض القبيلة التي ينتمي الشاعر اليها . وفي هذا الاتجاه بالذات ، نجد الشعر السياسي الذي يعرض نزعات القبائل وينافح عن مصالحها ، ويرعى كيانها ويذب عنها الاعداء ، ويحميها من التفكك ، ويجمع حولها الأحلاف وينشر مآثرها بين العرب ، ويمدح كل من والاها ، ويهجو من عاداها . أما الغاية من هذا الشعر ، فأداء واجب كان يفرضه نظام العيش في الجاهلية ؛ هو واجب الشاعر نحو قبيلته التي تحميه والتي تعتبر كلاً متماسكاً ، والشاعر جزء منها غير مستقل . وفي هذا النظام تجد القبيلة مسؤولة عن كل فرد من أفرادها ، وتجد الأفراد جميعاً مسؤولين

عن كل القبيلة .

● واما الاتجاه الثالث فهو اتجـــاه التكسب ، وبيع الشعر بالدينار . اتجاه أولئك الذين اتخذوا من المديح صنعة يتعيشون بها، وراحوا يتقربون الى الملوك والى العظماء، ويلفقون القول فيهم لينالوا مالاً ينفقونه في مختلف شؤون العيش .

وظهر الاسلام ، فبدّل في أحوال العرب كثيراً ، ولم يكن بدٌّ من أن يصيب شعر المديح شيء من هذا التبديل ، فخفت صوت الفئة الثالثة من المداحين، واقتصر هذا الفن على الاتجاهين الأولين . ولكن بديل أن تكون القبيـــلة هي محور المديح ، أصبح الدين الجديد محوراً له . وأصبحت الرابطة الاسلاميــة هي التي تحمل الشعراء على التمدّح بجماعة المؤمنين، وبنبيّهم محمد، وعقيدتهم القويمة . وجدير بالذكر،أن الحركة الجديدة التي أدت الى انقلاب عام في حياة العرب،قد شجعت الاتجاه الاول من اتجاهات المديح ، وزادت في الحث على الفضيلة والتمسك بها .

ثم جاء العصر الأموي،وحلت بحلوله المنازعات والاضطرابات والفتن ، فعاد العرب الى ما يشبه الفوضى الجاهلية ، واستيقظت في بلادهم تلك الخصومات القديمة والاهواء الفاسدة ، ونهض شعر المديح يخدم السياسة ويواكبهـا ، ويتأثر بمؤثراتها ، فضعف فيه الاتجاه الأول ليقوى الاتجاهان الآخران ، فاذا التكسب بالمديح يتسع ويرتحب مداه ، ويقبل عليه الشعراء نهمـين ، وقد اشتد في نفوسهم حب المادة ، لما جاءت به الحيــــاة من تطورات تستدعي كثرة الانفاق وازدياد مطالب العيش ؛ ويقبلون عليه

كذلك لان الخلفاء الامويين قد انتهجوا سياسة اصطناع الشعراء واستخدام ألسنتهم في الثناء على بني أمية ونشر آرائهم ، والدفاع عن حقهم بالحكم ، والرد على أعدائهم • وما الى ذلك من مآرب كان الأمويون يسعون الى تنفيذها .

هذا بالاضافة الى كون الشعر قد اتخذ سلاحاً جماعياً في الأحزاب ، وتجند الشعراء للدفاع عن أحزابهم كما كان الجاهليون يدافعون عن قبائلهم .

والذي قد أصاب هـذا الاتجاه من التبديـل ، هو تحوله من نطاق القبيلة الى نطاق الحزب ، ومن نطاق العاطفة الى نطاق العقيدة ، كما هي الحال في شعر الخوارج والطالبيين بنوع أخص .

وفي عهد بني العبـاس لم يمت شعر المديح ، بل ظـل ينمو باطراد الى جانب الفنون الأخرى ، ولكن الصبغة التي سيطرت عليه هي صبغة التكسب ، وأما الاتجاهان الآخران فقد ضعفا كثيراً وأوشكا أن يتلاشيا .

ولقد أصبح الشاعر العباسي بلبلاً في القصر ، يغرد بفضائـل الممدوح ويتغنى بعظمته وجاهه وسعة سلطانه ، واتخذه الملوك نديماً لهم ، يطربون لقوله ، ويخلعون عليه ، ويخصونه بالمال .

والذي يلاحـظ ، أن التطور الذي أصاب الشعر العربي في عصر بني العباس ، لم يتطرق الى الفنون بمثل ما تطرق الى داخل العملية الشعرية . وإنه ليندر أن تجد بين الشعراء العباسيين من ابتدع فناً جديداً ، ولكنك مع ذلك تحسّ بأن شعر أبي نواس ، وشعر بشار بن برد ، وابن الرومي ، ومسلم بن الوليد وأبي تمام ،

والمتنبي، والمعري،هو غير شعر الجاهليين وشعر الأمويين. حافظ المديح على كيانه ، وبقي يسير على تقاليده القديمة ، وخصائصه الاولى ، وعناصره الجوهرية، وشخصيته التي فرضها على أصحاب الجديد . ولكنه لم ينج من تبدل في معانيه ، وتعقد في أخيلته، وتجدد في أساليبه وتنميق في إخراجه ، وزخرفة في صياغته .

والذين نظموا في فن المديح هم كل الشعراء تقريباً ، فأكثروا منه إكثاراً لم يكن للعرب به عهد من قبل . والتفوا حول الملوك وحول الامراء والعظماء يستدرون أكفهم ، ويستغلون ميولهم ، ويستجدون منهم العطف والعطاء .

ولقد زاد في توجيههم نحو التكسب ذلك البذخ الذي عرفته البيئة العباسية ، والترف الذي شاع بين الناس ، وإقبال القوم على ملذات الدنيا ، وحب التنعم بالعيش والتزيّد من متعه . وساد العصر العباسي مادية مغرقة في تهالكها ، وعدم انتظام في توزيع الثروات ونشأ مقابل الفئة المترفة فئات أخرى يلفّها الشقاء ، فعظم الدرهم في أعين الشعراء ، وأراقوا ماء وجوههم في سبيله ، ووقفوا شعرهم عليه . والذي لا ريب فيه ، أن ذلك الشعر لم يكن من غير قيمة . وإذا كنا لا ننكر أن الشعراء قد ترسم بعضهم خطى بعض ، وصدحوا جميعاً بأصوات متشابهة وكثر في شعرهم التزوير والخداع والمنافقة والغلو الباطل ، فاننا لا نغفل أبداً كون المديح العباسي يحتوي على ثروة فنية جديرة بالدراسة والاكبار . هذه الثروة تتجلى في الغنى الفكري الذي بثوه أشعارهم ، والرؤى التي انكشفت لهم ، واللوحات المختلفة التي

عرضوها في مدائحهم. وإنك لتلمح في تضاعيف تلك المدائح وجوه الحياة العباسية بزهوها ونضارها ورقي أحوالها وتعقد مسالكها واتساع أرجائها، كما تلمح آثار العلوم والفنون والتقدم المحمود في مختلف الجوانب. وفي هذا الشعر أيضاً صورة لتطور الشخصية العربية مع الأيام وتبدل معادلتها، واكتمال مثلها ـ وفي ما يلي نماذج من مديح الأعصر العباسية لشعراء مختلفين زمناً وبيئة وظروفاً وجنساً وثقافة وتفكيراً.

## من مدائح العصر العباسي الاول :

### مديح أبي نواس

حمل أبو نواس على دعاة القديم في الأساليب الشعرية، ولكنه لم يحمل على فن المديح، ولم يخالف الشعراء في منحاهم المتكسب، واتخاذهم الشعر تجارة يتعيشون بها. فلقد وجد نفسه مضطراً الى الاقتداء بالسابقين من حيث الاتجاه نحو المدح وحسب، بل من حيث اللجوء الى مختلف الوسائل القديمة في مديحه، والى مجاراة الأقدمين في الشكل والمحتوى.

والذي قد حمل أبا نواس على ذلك، هو كون الفئة التي مدحها هي ممن يعود اليهم البت بشأن الشعر وقيمته. والحق أن مديح الرجل كان على نوعين، تبعاً لكون الممدوحين في الواقع فئتين ـ فئة الأريستوقراطية المترصنة التي لم تكن تربطها بالشاعر أية صلة من مجون أو تهتك أو صداقة متينة. وفئة الشبان من الأمراء

الذين توطدت بينهم وبين أبي نواس أواصر الالفة فوق مائدة للخمر ، او في مجلس من مجالس السمر .

أما النوع الأول من هذا الشعر ففيه وقوف على الأطلال ووصف للناقة ، وانتقال الى الغرض المقصود شبيه بانتقال الجاهليين والأمويين ، وفيه الى ذلك تخيّر لعسير اللفظ واستخدام لغريب الكلام وصيغه الشاذة، وعناية بالاخراج ، وكدّ وإعنات للروية، وقصد الى المعميات والالغاز، حتى يبذّ بذلك دعاة القديم ومتّبعيه، وحتى يرضي أذاوق الخلفاء والامراء وعلية القوم وجلّهم من العرب الأقحاح التواقين الى أساليب القدامى والمغرمين بكل ما هو عربي أصيل . وواقع الحال ، أن هذا المديح ذاته ، ليس قديماً بكل ما فيه ، بل هو قديم قد نسج بخيوط جديدة ؛ خيوط من البيئة العباسية بترفها ، ومن الفكر العباسي باتساع مراميه ، والعلوم العباسية بتشعبها وأعماقها ، ومن أبي نواس ، الشاعر العبقري ، الذي تأبى عبقريته مهما يحاول إخضاعها للتقليد إلا أن تلتمع في الحين بعد الحين ، لتحمل القراء على الالتفات اليها والنظر في مزاياها .

وأما النوع الثاني، فيمتاز بشيء من الحرية التي تركها الشاعر لنفسه وبخروج على الأساليب القديمة إن في اختيار المطالع أو في اختيار المعاني أو الألفاظ . ولكن المديح لدى أبي نواس ، هو على الغالب في حاليه مديح مصنوع ، سعي فيه صاحبه الى أن يثبت وجوده بين الشعراء كواحد من كبارهم ، فوعاه جزءاً جزءاً ، وتنخله في اللفظ والقافية وصب عليه كل ما عنده من جد

ليتناسب هذا الشعر ومراكز الأشخاص الذين رفع اليهم .

**مدح الرشيد :**

حَيِّ الديارَ ، إذ الزمانُ زمانُ
وإذ الشِّباكُ لنا حَرِي ومَعانُ[١]
يا حبذا سَفوانُ من مُتَرَبَّعٍ
ولَرُبَّما جَمعَ الهوى سَفوانُ[٢]
وإذا مررت على الديار مُسلِّماً
فلغيرِ دار أميمة الهجران .
إنَّا نسبنا والمناسبُ ظِنَّةٌ
حتى رُميتِ بنا وأنتِ حَصَانُ[٣]
لما نزعتُ عن الغِواية والصِّبا
وَخدَتْ بي الشَّدنية المذعانُ[٤]
سَبطٌ مشافرها دقيقٌ خَطْمها
وكأنَّ سائر خَلقها بُنيانُ[٥]

---

١ – الشباك : اسم ماء على طريق الكوفة . حري : جبل – معان : منزل يحل فيه القوم.

٢ – سفوان : اسم محل .

٣ – الظنة : التهمة . المرأة الحصان : العفيفة المحصنة من السوء .

٤ – وخدت الناقة : اسرعت في سيرها . الشدنيــة : المنسوبة الى شدن وهو موضع باليمن .

٥ – السبط: المسترسل الذي ليس فيه تجعيد . المشفر شفة البعير . الخطم: مقدم الانف والفم .

واحتازَها لونٌ جرى في جِلدها
يَققٌ كقرطاس الوليدِ هِجانُ [1]

وإلى أبي الأمناء هرون الذي
يحيا بصوبِ سمائهِ الحيوانُ [2]

ملكٌ تصور في القلوب مِثالهُ
فكأنما لم يخلُ منه مكانُ .

ما تنطوي عنه القلوب بفجرةٍ
إلا يكلمه بها اللحظَانُ [3]

فيظلُّ لاستنبائِه وكأنه
عينٌ على ما غيَّب الكتمانُ

هرونُ ألـَّفنا ائتلافَ مَودَّةٍ
ماتت لها الأحقاد والأضغانُ

في كل عامٍ غزوةٌ ووفادَةٌ
تنبتُّ بين نواهما الأقرانُ [4]

---

١ – اليقق : اللون الابيض ، والهجان من الابل ؛ ذوات اللون الابيض.

٢ – ابو الامناء : هرون الرشيد وابناؤه الأمين والمأمون والمؤتمن .

٣ – الفجرة ؛ المخالفة . اللحظان ؛ مصدر من لحظ اي نظر بمؤخر عينـه .

٤ – تنبتّ ؛ تنقطع – النوى ؛ الوجه الذي يذهب فيه . الاقران ؛ جمع قرن وهو الحبل يقرن به بعيران .

حجٌّ وغزوٌ مات بينهما الكرى
باليَعمُلاتِ شعارُها الوَخدانُ [1]

يرمي بهنّ نِياطَ كل تَنوفة
في الله رحّالٌ بها ظعّانُ . [2]

حتى إذا واجهنَ أقبالَ الصَّفا
حَنَّ الحطيمُ وأطَّت الأركانُ . [3]

لأغَرَّ ينفرج الدُّجى عن وجهه
عدلُ السياسةِ حبُّه إيمانُ .

يُصلِي الهجير بغرّةٍ مَهديَّةٍ
لو شاء صانَ أديمها الأكنانُ . [4]

لكنه في الله مبتذلٌ لها
إن التقيّ مسدّدٌ ومُعانُ .

ألِفت منادمة الدماء سيوفهُ
فلقلمّا تحتازها الأجفانُ

حتى الذي في الرّحم لم يك صورةً
لفؤادهِ من خوفهِ خفقانُ

---

١ – اليعملات؛ جمع يعملة وهي الناقة النجيبة – الوخدان السير السريع.
٢ – النياط من المفازة : بعد طريقها كأنها نيطت بمفازة اخرى . والتنوفة المفازة الخطرة .
٣ – أطّ ؛ صوّت .
٤ – الاكنان ؛ مفردها كن . وهو وقاء الشيء وستره .

حذرَ امرئٍ نصرت يداه على العدى
كالدّهرِ فيه شراسةٌ ولِيانُ
مُتبرّجُ المعروفِ عرِيضُ النّدى،
حَصِرٌ بلا، منه، فمٌ ولِسانُ
للجودِ مِن كلتا يَديهِ مُحرّكٌ
لا يستطيــعُ بلوغه الإسكانُ.

أرأيت كيف يعمد أبو نواس، وهو ابن البيئة العباسية، حامل لواء الثورة على القـديم الى استخدام الطريقة الجاهلية في المديح، فيحيي الديار، ويذكر أسمـــاء المرابـع في الصحراء كالشباك وحري ومعان وسفوان؟

والذي يستلفت الانتباه، نَفَس جريري، وضعه الشاعر نصب عينه وسعى الى تقليده، خصوصاً في بيته القائل:

يا حبذا سفوانُ من متربّعٍ
ولربما جمع الهوى سفوانُ.

فهو شبيه ببيت جرير:

يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريّان من كانا.

ونمضي مع الشاعر، فاذا هو ينسب كما كان القدماء ينسبون في مطالع شعرهم، ويختار اسم أميمة، وهو اسم قديم وبدوي خالص، ويتكلف الحب من غير أن يهزّه حب، ثم ينتقل من النسيب الى وصف الناقـــة وأنـّى له أن يعرف الناقة، فيستنجد بطرفة،

ويستمد منه بعض معانيه ، فترى ناقة أبي نواس ناقة شدنية مذعانا تخد به وخدا سريعا . هي ناقة «سبط مشافرها » دقيق خطمها» مشدودة الأوصال موثقة الخلق ، يققية اللون ، مالسة الجلد ، تحمل صاحبها الى بلاط أبي الامناء هرون الرشيد .

ولكن لا تظنن أن أبا نواس كان يقصد الى التقليد في مجموع القصيدة . فهو لم يحاول أن يخفي آثار العلوم التي تلقاها، والثقافة التي ثقفها ، والعقل الذي تشبع بمنطقه . لذلك ، فقد حشد الى جانب القديم ومضات من جديده ، تقع في قوله: « يحيا بصوب سمائه الحيوان »

« ملك تصور في القلوب مثاله
فكأنما لم يخل منه مكان » .

فنعم الممدوح على الناس شبيهة بنعم السماء ، وهو عظيم الى درجة الألوهة صورته في القلوب قد انطبعت وظله في كل مكان يخيم . أما ترى كيف خلع أبو نواس على الرشيد من صفات الله ؟ أما ترى كيف يستمد معانيه من علم الكلام وفلسفة الدين ؟ وإنها للمرة الاولى التي ينعت بها المادح خليفة بأنه ملك . وما ذاك بغريب ، لان نظام الخلافة قد أصابه تبديل كثير منذ عهد بني أمية ، فلم يعد الخلفاء دراويش على نحو ما كان عمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق وعلي ابن أبي طالب ؛ بل أصبحوا يعيشون عيش الترف ويتزيون بأزياء الملوك من أهل فارس، وبلادالروم. ولكن الأمويين كانوا يأنفون أن يدعوا ملوكا ، وكانوا يغضبون

إذا مدحوا بمــا يمدح به الملوك ، وما حكاية عبد الملك وابن الرقيات بمجهولة . أما خلفـــاء بني العباس ، فقد تمادوا في مظاهر الملك ، ولم يأنفوا أبدا من أن يدعوا مـــلوكا . ويعود الشاعر الى ألفاظ البدو ، والى مألوف دعاة القديم ، فيرى للرشيد غزوة في كل عام ، ووفادة الى الحج ، « تنبت بين نواهما الأقران » ويروق له الغريب فيلـح في استخدامه . ولكن في هذا الغريب معاني جديدة ، وصوراً جديدة ، ونفساً نواسيا واضحاً .

والممدوح في شعر أبي نواس ، ليس بدوي الطبع ، ولا هو بالظالم ولا المتكبر. بل إنه رجل أغرّ ينفرج الدجىعن وجهه ، « عدل السياسة حبه إيمان » أرأيت تعظيماً أكثر من هذا ، حتى يشترط الايمان بمحبة هرون الرشيد ؟ لا نقول إن أبا نواس هـو الذي ابتكر هذا التعظيم ، فلقـد جرى اليه الكميت من قبل ، ولكن المعنى لم يمت ، بل ظل يتألق مع الشاعر العباسي في ثوب جديد .

وفي هذا المديح، كما في سائر المدائحمبالغات وتهويلات تريك الرشيد شجاعاً، تنادم سيوفهالدماء من غير أن تتغمدها الأجفان ويهابه الولدان في أرحام أمهاتهم . وإنه لينـدر أن يهتـــدي شاعر الى هـــذه المنادمة ، كما يندر جداً أن يهتدي الى تشبيه الانسان بالدهر من حيث اتساع سلطتـــه على الناس ،وتصرفه بمقدراتهم وتقرير مصائرهم. كما أنه جديد كل الجدة قول الحسن بن

هانيء :

للجود من كلتا يديه محرك
لا يستطيع بلوغه الإسكان

هو يتضمن معنى فلسفياً ، مما كان الأقدمون ليلتفتوا اليه بفعل الحدود التي كانت تحد ثقافتهم ، وتقيد أذهانهم .

**مدح العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :**

لأبي نواس في هذا الرجل نوعان من المديح : أحدهما مترصّن مصنوع كمديحه الرشيد ولكنه يختلف عنه في نوعيته الفنية ، والثاني يعتمد فيه الشاعر على صداقته للممدوح ، ويعفي نفسه من القيود التي كانت تقيده بها أريستوقراطية البلاط . وسوف نمثل على ذلك بقصيدة من كل نوع .

**١ ـ الشعر المصنوع**

أيُّها المنتابُ من عُفُرِهْ
لستَ من ليلي ولا سَمَرِهْ
لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ
قد بلوتُ المرَّ من ثمرِهْ
فاتصلْ إنْ كنتَ متصلاً
بقوى من أنتَ من وطرِهْ
خفتَ مأثورَ الحديثِ غداً
وغدٌ أدنى لمنتظره

خـابَ من أسرى الى بلد
غيرِ معلومٍ مدى سفرهْ

وسـدّتـه ثـنيَ ساعـده
سِنـةٌ خلـّـتْ الى شُفـره

فامض لا تمنن عليّ يداً
منّك المعروفَ من كدره

ربّ فتيـان ربأتُهم
مسقطَ العيّوق من سحره

فاتقَوا بي ما يريبهم
إنّ تقوى الشرّ من حذره

وابنِ عمٍّ لا يكاشفنا
قد لبسناه على غمره

كمن الشنآنُ فيه لنا
ككمون النار في حجره

ورُضاب بتّ أرشفه
ينقع الظمآن من خصره

علّتنيه خوطُ إسحلة
لان متناهُ لمهتصره

ذا ومغبرٍّ مخارمه
تحسِرُ الأبصارُ عن قُطرُه

لا ترى عينُ البصيرِ بـــهِ
ما خلا الآجـالَ من بَقَـــره

خاض بي لُجَّيْـــهِ ذو جَزرٍ
يُفعِمُ الفضلين من ضُفــرِه

يَكتَسي عُثنونُــه زبَـــدا
فنَصيـــلاه الى نحـــرِهْ

ثم يعْـتمُّ الحجـاجُ بـــه
كاعـــتام الفُوفِ في عشـــره

ثم تـــذروه الرياحُ كما
طار قطنُ النَّدفِ عن وتره .

كلُّ حـاجـاتي تناولهـــا
وهو لم تُنقَـضْ قُوى أشره

ثم أدناني الى ملـــك
يأمن الجـــاني لدى حُجَـرهْ

تأخـــذ الأيـــدي مظالمهـا
ثم تَستَذْري الى عَصـرهْ

كيفَ لا يُدنيـكَ منْ أمـلٍ
من رسولُ اللهِ من نَفَـــرِهْ

فاسـلُ عن نوءٍ تُؤمِّـــلهُ
حسبُكَ العبـاسُ من مطـرِهْ

ملكٌ قلّ الشبيهُ له
لم تقعْ عينٌ على خطرهْ
ذُللّتْ تلك الفجاجُ له
فهو مختارٌ على بصرهْ
سبقَ التفريطَ رائدُه
وكفاه العينَ من أثره
واذا حجّ القنا علقاً
وتراءى الموتُ في صوره
راح في ثِني مفاضَتِهِ
اسدٌ يُدمي شبا ظُفُره
تتأبّى الطيرُ غدوته
ثقةً بالشّبْعِ من جزره
وترى الساداتِ ماثلةً
لسليلِ الشمسِ من قمرهْ
فهُمُ شتّى ظُنُونهُمُ
حَذَرَ المكنونِ من فكره
وكريمُ الخالِ مِن يمنٍ
وكريمُ العمّ من مُضره
قد لبستَ الدهرَ لبسَ فتىً
أخذَ الآدابَ عن غِيره .

مما يؤثر عن أبي نواس أنه قال: « إني اذا أردت الهزل نظمت في الخمرة ، فاذا أردت الجد قلت مثل قولي : « أيها المنتاب من عفره » .

والذي لا ريب فيه ، أن هذه القصيدة هي من خير ما قاله أبو نواس ، بل هي من روائع الشعر في ذلك العصر ، قصد فيها النواسي ما قصده في سابقتها التي مدح بها الرشيد . ولكن فيها من الالوان الجديدة ما يفوق تلك الألوان التي ضمنها مديحه لأمير المؤمنين .

فأنظر أولاً الى المطلع ، تجده مشتملا على خواطر النفس ، وعلى مناجاة داخلية يحاول فيها الشاعر أن يعبر عن كوامنه ، وأن يصور لنا حالة وجدانية محضة. فأين الطلل ، وأين الحبيبة الظاعنة ، بل أين النؤي والاحجار ؟ ليس في القصيدة شيء من ذلك.

ولكن لا تظن أن الشاعر قد خرج هنا كل الخروج عن معطيات البداوة بل لا تظننه قد خرج على أساليب القدماء . فألفاظه هنا ليست ألفاظ الشعب في بغداد. وتراكيبه ليست تراكيب أهل العصر. وأكبر الظن ، أن الشاعر قد جعل في وكده قبل كل شيء تحدّي اللغويين وأصحاب البلاغة العربية الأصيلة من غير أن يكون مقلداً .

فهو هنا مبدع ، قد وثب الى القمة في شعر العرب آنذاك ، حتى أن القارىء لا يجد كبير فرق بين هذه القصيدة ، وبين روائع

الشعر العباسي ، التي نظمها أبو تمام وأبو الطيب المتنبي ، وغيرهما من عمالقة الشعر .

ومن هنا كان أبو نواس سباقاً ، استطاع أن يتجاوز عصره بعض التجاوز وأن يكون من البارزين الذين خطوا للمذهب الثقافي في شعر العرب خطوطه الأولى ؛ كما أنه كان سباقاً لأهل التصنيع في الشعر ورائداً قبل أبي تمام لهذه الطريقة التي بلورها الحبيب مذهباً . فانظر الى أثر الثقافة في قصيدة أبي نواس، تجده واضحاً كل الوضوح في قوله :

خاب من أسرى الى بلد ... غير معلوم مدى سفره
فامض لا تمنن عليّ يداً ... منّك المعروف من كدره
رب فتيان ربأتهم ... مسقط العيوق من سحره
فاتقوا بي ما يريبهم ... أن تقوى الشر من حذره

ألست تلمح في هـذه الابيات ما يشبه حكمة المتنبي ؟ أو لست تلمح فيها أيضاً ، وفي القصيدة إجمالاً صناعة كصناعة أبي تمام ؟

وما بالك بالغريب يحشده ، وبالتراكيب يرصّها رصّاً ، وبالجزالة يوفرها لكل لفظة ؟ حتى أن النحاة وأهل اللغة ، قد أعياهم فهم جزء غير قليل مما جاء في هذه القصيدة ، وأعجبوا بها كل الاعجاب ، حتى قال بعضهم في أبي نواس . «لولا مجونه وفسقه لاحتججنا بشعره» .

أما معاني المديح فلن تخرج عن كونها تدور حول الفضائل

وإذا كانت الظروف السياسية قد تبدلت ، وتبدلت معها الظروف الاجتماعية والاقتصادية بعض التبدل ، فان المثل العليا لم يلحقها كبير تغيير زمن أبي نواس . لان هذا التغير في معادلة الشخصية المثالية لا يمكن أن يحدث إلا على أثر ثورات عنيفة جذرية تتناول جواهر الأشياء واصولها الراسخة فتطوّح بها لتُحلّ محلها جواهر جديدة وأصولاً جديدة .

والشخصية العربية لم تتبدل فعلا إلاّ بظهور الاسلام . وأما في العصر الأموي وفي العصر العباسي ، فقد تغيرت فيها مظاهر خارجية وحسب ، وبقي الجوهر هو هو . لهذا ، لن يكون أبو نواس قادراً على إيجاد فضائل جديدة ، ولكن هذه الفضائل نفسها ، يختلف الشعراء في مدى فهمها ، وفي طريقة تصويرها ، والافتنان في نسبتها الى الممدوح .

والذي لا ريب فيه ، أن أبا نواس لم يقصر في هذا المجال . فلقد جعل من حفيد المنصور ملاذ المستأمنين ، وموئل العدل ، ومستقر القداسة .

كيف لا يدنيك من أمل
من رسول الله من نفره ؟

والممدوح لدى النواسي ، كريم كالغيث يحيي الناس صوبه ، ووحيد في عظمته وجوده وسعة سلطانه ؛ ذللت له فجاج الارض ، وكشف حدسه عن عالم الغيوب ؛ وهو في شجاعته وشدة فتكه « أسد يدمي شبا ظفره » إذا خاض معركة ملأ

ميدانها من جثث أعدائه ، حتى أن الطيور لتتأبّى غدوته وتنتظرها ثقة منها بالشبع .

هذه معان قديمة من غير شك . شائعة بين الشعراء منذ الجاهلية . ولكن لباسها نواسي خالص .

على أن من المعاني الواردة في القصيدة ما هو جديد كل الجدة، مبتكر كل الابتكار ، وخاصة ما جاء في الابيات الأربعة الأخيرة حيث يبدو لك الممدوح ، سليلا للشمس ، والسادات أمامه ماثلون ، وهم في حيرة من أقواله وأعماله ، يذهبون في تأويلها مذاهب شتى ، وتتضارب عندهم الظنون ، لعجزهم عن فهم المكنون من أفكاره . وما نظن أن ممدوحاً قبل حفيد المنصور قد لبس الدهر لبس فتى أخذ الآداب عن غيره» وتقلبات أحواله .

**٢ ـ مديح مطبوع :**

ديارُ نوار ، مــــا ديار نوار ؟
كسوْنك شجواً هُن منه عوارِ

يقولون : في الشيب الوقار لأهله ؛
وشيبي ، بحمد الله ، غيرُ وقار

إذا كنت لا أنفكُّ عن طاعة الهوى
فان الهوى يرمي الفتى ببوار

فها إن قلبي لا محالة مائلٌ
الى رشأ يسعى بكأس عُقار [١]

---

١ ـ الرشأ : ولد الغزال . والعقار : الخمرة .

شمول ، اذا شجت ، تقول عقيقة
تنافس فيها السوم بين تجار [1]
كأنّ بقايا ما عفا من حبابهـــا
تفاريق شيب في سواد عذار
تردّت به ، ثم انفرى عن أديمها
تفرّي ليل عن بياض نهار [2]
تعاطيكها كفٌ كأن بنانهـــا
إذا اعترضتها العين صف مداري [3]
حلفت يمينـــاً برةً لا يشوبها
فجارٌ ، وما دهري يمـــينُ فجار
لقد قوم العباس للناس حجهم
وســاس برهبانيـــة ووقار
وعرّفهم أعـــلامهم وأراهمُ
منار الهوى موصولة بمنـــار
وأطعم حتى مـــا بمكة آكلٌ
وأعطى عطايا لم تكن بضمار [4]

---

١ – شج التراب بالماء : مزجه – السوم : محاولة تحديد الثمن في البيع والشراء .
٢ – تردت به :لبسته – انفرى: انشق وانكشف .
٣ – المداري : جمع مدرى : وهو المشط .
٤ – الضمار من المال : الذي لا يرجى رجوعه .

وحُملانُ أبناء السبيل تراهمُ
قطاراً إذا راحوا أمام قطار

أبت لك يا عباسُ نفس سخيـة
بزبرج دنيانا ، وعتق نجار [١]

وإنك للمنصور ، منصور هاشم
وما بعدهُ من غـاية لفخار

فجدك هذا خير قحطان واحداً
وهذا إذا ما عدّ خير نزار

إليك غدت بي حاجة لم أبح بها
أخافُ عليها شامتاً فأداري

فأرخ عليها ستر معروفك الذي
سترت بها قدماً عليّ عواري [٢]

لقد نسبنا هذه القصيدة الى الشعر المطبوع ، وما كنا نرمي بذلك إلى أنها عفوية التأليف ، فما كان الفن الجميل في يوم من الأيام وليد عفوية . ولكنها مطبوعة من حيث ابتعاد صاحبها عن طلب الغريب، ومن حيث تحلله من قيود التقليد، وخروجه بعض الشيء على طريقة القدماء .

---

٢ ـ الزبرج : الذهب أوكل شيء ذو قيمة. عتق النجار : خلوص **الأصل** وكرمه .

٣ ـ العوار : الخرق او الشق في الثوب ، ويستعمل بمعنى العيب .

والذي يمعن النظر في هذه القصيدة ، يتبين أن الشاعر لم يقصد من ذكره للديار في مطلعها الحفاظ على ما يرضي أهل القديم ، كما رأينا في مدحه للرشيد ، ولكنه يزري بالديار هنا وبنعتها بعض الازراء ؛ ويظهر دالته على الممدوح ، كأنه في هذه المدحة غير هيّاب لفئة المحافظين ؛ بل كأنه يعبر عن ثورته على وصف الطلول حين يتساءل ، والسخرية تملأ فاه وترتسم على وجهه ، ما ديار نوار ؟ ويرتحب مدى سخريته في عجز البيت حين يقول : « كسونك شجواً هن منه عوار » وكأنما يريد أن يحملك على تسآل نفسك : أليس من السخف والتفاهة أن تشجي الديار الخالية شاعراً ، فيكسو نفسه الهم ، والديار غير حافلة بهمه .

ويتمادى أبو نواس في دالته ، وفي تحرره من قيود الاريستوقراطية وآدابها ويهزأ بالناس القائلين : إن الشيب وقار لأهله ، ولا يخجل من أن يقول : أن شيبه لن يكون وقاراً له ، حامداً الله على ذلك . ولا غرابة فابو نواس رجل ماجن قد خلع العذار ، والمثل يقول : « إذا لم تكن تستحي فاصنع ما شئت » . ثم يمضي في حديث عن الحب وعن تشراب الخمور ، وكأنه يودّ أن يكرّس تكريساً جعل الخمريات في مطالع شعر المديح . على أن في هذا المقطع الخمري إبداعاً نواسياً تجاوز فيه كل ما قد قاله شعراء الخمرة ، ونفذ الى معان وصور لا تخطر إلا في بال المبدعين من أهل الفن . فتأمل قوله :

كأن بقايا ما عفا من حبابها
تفاريق شيب في سواد عذار

تردّت به ثم انفرى عن أديمها
تفري ليـل عن بياض نهـار

وتصور هذا الحباب الابيض المتلاشي ، يقع في جنبات الكأس وكأنما قد تعفـّى أكثره لطول ما مرّ عليه من سنيّ الدهر . وتتجسم الخمرة انساناً أمام ناظريه ، وفي سواد العذار من هذا الانسان ظهرت تفاريق شيب تدل على الهرم . ولكن الصورة لا تكتمل لدى أبي نواس بهذا البيت ، ولا يتم له ما أراد حتى يردفه ببيت آخر وقد شق طريقاً الى المطلق الذي لا لا ينتهي عند حد . وما أجمل هذا التفري لحباب الخمر حتى لكأنه انبلاج الصباح وتفري الليل عنه ! وما الليل في هذا المقام سوى حياة أبي نواس الواعية يكتنفها الشقاء من كل صوب ، ويلونها الهم بألوانه السوداء ، وما بياض النهار غير هذه الرؤى السحرية الجميلة ، وهذا العالم البهي الذي تنقله اليه جرعات الخمر .

في هذا المقطع فقط ، كان أبو نواس مجدداً ، وكان تجديده يستحق العناية والدرس . أما في سائر أبيات القصيدة ، فإنه لم يخرج على مألوف شعراء المديح، ولم يودعها ما يستلفت الانتباه . فهي شعر فصيح بليغ ، حسن الجرس ، حلو الايقاع يرتاح اليه الممدوح لما فيه من تعظيم له وتغن بأعماله وفضائله .

والممدوح في هذا الشعر قيّم على الدين ، يسوس الناس بوقار ، ويهديهم الى طرق الحق . وهو كريم ، يطعم الناس حتى لا يبقى في بلاده جائع ، وأبناء السبيل يتقاطرون اليه ، وهو كريم النجار ، يعلق الشاعر على زيارته له منتهى آماله ، ولطالما كفاه مؤونة العوز .

هكذا كان أبو نواس يمدح ، وما كان مدحه في الحقيقة سوى ائتلاف بين أساليب القدامى ، وبين منازع المجددين . فهو قديم بتعبيره وبجزء غير قليل من معانيه . وهو جديد بألوان من الافتنان التي خلعها ابو نواس عليه في التصوير والزخرف والتصرف بالألفاظ . وتجديد بالتفاتات معنوية هي من مبتكرات أبي نواس ، ومن طبيعة العيش في العصر العباسي الأول .

## المديح في العصر العباسي الثاني :

لم يكن فن المديح ليتبدل تبدلاً يذكر في هذا العصر ، فالشخصية المثالية بقيت هي هي . والبيئة أيضاً لم تتغير رغم ما توالى عليها من أحداث الزمان . والذي قد لحقه التبديل هو مناسبات المديح ، والأشخاص الذين توجه إليهم الشعراء بمدائحهم وما كان ذلك ليغير في جوهر الفن كثيراً .

ولكن الذي يسجل في هذه الفترة ، ان مدارس الشعر قد بدأت تتميز بعضها من بعض ، وهي مدارس أسلوبية أكثر منها مدارس فنون .

إن الحركة التي قام بها أبو نواس وأصحابه من دعاة التجديد، قد أدت الى صراع عنيف أسفر عن انشطار الشعراء الى شطرين: واحد يتبع الأصالة العربية في كل ما فيها، ويحافظ على ما يسمى بعمود الشعر العربي، وآخر يستسيغ الخروج على هذه الأصالة، ويعمد الى تلقيح الشعر بلقاح الفكر الجديد، والفن الجديد والحياة الجديدة المعقدة.

أما عمود الشعر العربي فيتلخص في ما حدده المرزوقي به، حين شرح كتاب الحماسة لأبي تمام، فقال: «لعمود الشعر سبع قواعد أساسية:

١ – شرف المعنى وصحته.

٢ – جزالة اللفظ واستقامته.

٣ – الاصابة في الوصف.

٤ – المقاربة في التشبيه.

٥ – التحام أجزاء النظم، واكتنافها على تخيُّر من لذيذ الوزن.

٦ – مناسبة المستعار منه للمستعار له.

٧ – مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائها للقافية.

والشعر المنظوم بحسب هذه القواعد، هو شعر غنائي محض، عماده الموسيقى اللفظية، وصفاء العبارة، والدقة في الاخراج الشكلي وعدم التعمق في اختيار المعاني، وللعفوية والطبع فيه نصيب وفير.

أما المذهب الآخر ، فعماده الصناعة والفكر الغزير ، والاغراب في اللفظ والتأنق في الصناعة وكثرة الاستخدام لمولدات الثقافة . والذي سنختاره لتمثيل هذا المذهب هو أبو تمام . أما المذهب الأصيل ، فخير من يمثله أبو عبادة البحتري .

**من شعر أبي تمام :**

ليس المديح في شعر أبي تمام فناً عارضاً ، ولا هو جزء على هامش الديوان ، فأكثر قصائد هذا الرجل قيلت في فن المديح ، حتى أنها تستغرق ثلثي ديوانه تقريباً جلّها من جيد الشعر وأنيقه . وأبو تمام مداحة من الطراز الأول تكسب بشعره كسائر المتكسبين ، ولكنه كان يعنى به ، ويتعهده بالصقل والتهذيب ، حتى غدا قمة بين الشعراء ، وأستاذاً لكل من عاصره ومن جاء بعده .

لم يدع أبو تمام حادثة مهمة من حوادث العالم الاسلامي في زمنه الا دوّنها في شعره . فمن معركة فاصلة ينتصر فيها العرب على الروم ، الى فتح جليل يحققه خليفة أو قائد ، الى احتفال بعيد ، الى عمل عظيم يتوخى فيه الخليفة تحسيناً لحال الناس وخدمة لمصالحهم ، الى كارثة تحل بالقوم الى أزمة تنفرج ، الى غير ذلك مما كان يثير قريحة الحبيب ويحرّك فؤاده ويهزّ مشاعره

أما أبرز ممدوحيه ، فالخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم بوجه أخصّ والخليفة الواثق ، وخالد بن يزيد الشيباني ، والحسن بن سهل الوزير ، وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ،

ومالك بن طوق ، وأحمد بن أبي دؤاد . وسوف نتحدث عن مديحه من خلال قصيدتين ؛ أولاهما في المأمون والثانيــة في المعتصم .

## مدح المأمون :

نظم أبو تمام هذه القصيــدة على أثر حرب قامت بين العرب والروم ، فقاد المأمون بن هرون الرشيد جيشه العربي ، وسجل على الروم نصراً مبيناً ، حــتى استسلموا له ، وآثروا الأسر على الموت فرفع عنهم السيف وساروا خاضعين .

دِمَنٌ ألمَّ بها ، فقــال : سلامُ!
كم حلَّ عقــدة صبره الإلمامُ [١]
نُحِرت ركاب القوم حتى يَعبروا
رجلاً ، لقد عنُفوا عليَّ ولاموا.
عشقوا، فلا رُزقوا،أيعذلُ عاشقٌ
رُزقت هواه معـــالمٌ وخيامُ [٢]
وقفوا عليَّ اللوم ، حــتى خُيِّلوا
أَنَّ الوقوفَ على الديار حـــرامُ
لا مرَّ يومٌ واحـــدٌ إلا وفي
أحشائه لمحلّتيكِ غمـــامُ

١ ــ الدمن : ما بقي من آثار القوم . ألم بها : نزل فيها .
٢ ــ العذل : هو اللوم .

حتى تعمّمَ صلعُ هامات الرّبى
من نوره وتــأزّر الإهضامُ ١

ولقد أراكِ ، فهــل أراك بغبطةٍ
والعيش غضٌّ والزمان غلامُ

أعوام وصلٍ كان ينسي طولها
ذكـرُ النـّوى فكأنهــا أيامُ ٢

ثم انبرت أيام هجـرٍ أردفتْ
نحوي أسىً فكأنهـا أعوامُ ٣

ثم انقضت تلك السنونُ وأهلها
فكأنهـــا ، وكأنهم أحـلامُ

أَتحدّرت عبرات عينك أن دعت
ورقاءُ حين تضعضعَ الإظلامُ ٤

لا تشجَينّ لها فانّ بكاءهـــا
ضَحِكٌ وإن بكاءك استغرامُ ٥

هنّ الحَمامُ ، فان كسرْتَ عِيافةً
من حائِهنّ فانّهنّ حِمــامُ

---

١ – النور : الزهر . الاهضام : المنخفضات .

٢ – النوى : الفراق .

٣ – الأسى : الحزن .

٤ – الورقاء : الحمامة البرية . الاظلام العتمة .

٥ – لا تشجين :لا تحزن . الاستغرام : المطالبة بالغرم .

اللهُ أكبرُ ؛ جاء أكبر من جَرتْ
فتعثرت في كُنهِهِ الأوهامُ
من لا يحيطُ الواصفون بوصفه
حتى يقولوا وصفُه إلهامُ
من شرّد الإعدامَ عن أوطانه
بالبذل حتى استُطرِفَ الإعدامُ [1]
وتكفّل الأيتام عن آبائهم
حتى وددنا أننا أيتامُ
يتجنّبُ الآثام ثم يخافها
فكأنما حسناته آثامُ
يا أيها الملك الهُمامُ وعدلهُ
ملكٌ عليه في القضاءِ هُمام
ما زالَ حكمُ الله يُشرقُ وجهه
في الأرض مذ نيطتْ به الأحكام [2]
أسرتْ لك الآفاق عزمة همةٍ
جُبلتْ على ان المسيرَ مُقامُ [3]
إن لا تكن أرواحها لك سُخّرت
فالحزم طوع يديك والإجذامُ [4]

١ — البذل : العطاء . استطرف : اصبح شيئاً طريفاً نادراً .
٢ — ناط به الشيء : اسنده اليه أو كلفه به .
٣ — أسرت : جعلته يسير في الليل .
٤ — الاجذام : الحزم .

الشرقُ غربٌ حين تلحظُ قصدهُ
وكخالفُ اليمنِ القصيِّ شآمُ [1]

بالشّدقميّاتِ العِتاقِ كأنما
أشباحها بين الإكامِ إكامُ [2]

والأعوجياتِ الجيادِ كأنها
تهوي، وقد دنت الرياح، سِهام [3]

لما رأيت الدينَ يخفق قلبهُ
والكفرَ فيه تغطرسٌ وعُرام [4]

أوْريتَ زندَ عزائمٍ تحت الدُّجى
أسرَجْنَ فكرك، والبلاد ظلام

فنهضتَ تسحب ذيلَ جيشٍ ساقهُ
حسنُ اليقينِ وقاده الإقدامُ

مُثعنجرٌ، لجبٌ، يُرَى سُلاَّفُهُ
وله بمنخرقِ الفضاءِ زِحام [5]

ملأ الملا عصَباً، فكاد بأن يُرَى
لا خلفَ فيه، ولا له قُدّام

---

١ – الشدقميات : النوق الكريمة .

٢ – الاعوجيات : الخيول الكريمة .

٣ – العرام : الشدة .

٤ – المثعنجر : الماء الكثير في وسط البحر .

بسواهمٍ لُحُقِ الأياطلِ شُزَّبٍ
تعليقها الأسراج والألجامُ . [1]

ومقابلين إذا انتموا لم تُخزِهِمْ
في نصرك الأخوالُ والأعمامُ

سَفعَ الدؤوبُ وجوهَهمْ فكأنهم
وأبوهُمُ سامٌ ، أبوهُمْ حامُ [2]

تَخِذُوا الحديدَ من الحديدِ معاقلاً
سُكانها الأرواحُ والآجامُ

مُسترسلينَ الى الحُتوفِ كأنما
بين الحتوفِ وبينهم أرحامُ

آسادُ موتٍ مُحذراتٌ ، ما لها
إلا الصوارمُ والقنا آجامُ [3]

حتى نقضتَ الرومَ منك بوقعةٍ
شنعاءَ ليس لنقضِها إبرامُ

في معركٍ ،أما الحِمامُ فمُفطِرٌ ،
في هَبْوتيهِ والكماةُ صِيامُ

ففصمتَ عروةَ جمعهم فيها وقد
جعلت تفصَّمُ من عُراها الهامُ

---

١ – السواهم : الضوامر ؛ الاياطل . الخواصر . الشزَّب : المضمرة
٢ – سفع : غير لون الوجه ، الدؤوب : العمل المستمر المتعب .
٣ – الاجام : الغابات .

أَلقوا دِلاءً في بحورك أسلمت
نزعاتِها الأكرابُ والأوذامُ [1]
ما كان للإشراكِ فورةَ مَشهدٍ
واللهُ فيهِ ، وأنتَ ، والإسلامُ
لما رأيتَهُمُ تُساقُ ملوكهُمْ
حِزَقاً إليكَ كأنهم أنعامُ [2]
جرحى الى جرحى كأنَّ جُلودهمْ
يُطلى بها الشيّان والعُلّامُ [3]
مُتساقطي ورقِ الثيابِ كأنهم
دانوا فأحدِثَ فيهمُ الإحرامُ
اكرمتَ سيفك ، غربَهُ وذُبابَهُ
عنهُمُ ، وحُقّ لسيفكَ الإكرامُ [4]
فردَدتَ حدّ الموت وهو مركّب
في حدّهِ فارتدّ وهو زُؤامُ
أيقظتَ هاجِعَهم وهل يُغنيهِم
سَهر النواظر والعقولُ نيامُ

---

١ — الاكراب : حبال تشد في وسط عراقي الدلو . الأوذام : سيور بين آذان الدلو وعراقيه .
٢ — الحزق : الجماعات .
٣ — الشيان : صباغ احمر — العلام : الحناء .
٤ — غرب السيف : حده ، وذبابه هو ما تطرف من شفرته .

تَجحدتْكَ منهم ألسنٌ لَجلاَجةٌ
أقررنَ أنك في القلوبِ إمام
فاسلم أمير المؤمنين لأمّةٍ
نتجَتْ رجاءك والرجاءُ عقام [1]
قضّى النبيّ ذِمامها مُذ حطّها
عنه، فليسَ لها عليه ذِمامُ
إنّ المكارمَ للخليفة لم تزلْ
واللهُ يعلمُ ذاكَ والأقوامُ
كُتِبت له ولأوّليه قبله
في اللّوحِ حتى جفّت الاقلامُ
فبنو أبيك على نفاسةِ قدرِهمْ
فيهم وإنّهم هُمُ الأعلامُ
متواطئو عقبيكَ في طلب العُلا
والمجدُ ثمّتَ تستوي الأقدامُ.

انظر الى هذا المديح، كيف يستهل بذكر الدمن أوديار الأحبة، يلم بها الشاعر ليحلّ من عقدة صبره، ولكن اللوم ينهال عليه من كل صوب، ويعذله القوم كأنهم ما عشقوا وما عرفوا طعم الحب. بالله، أيعذل عاشق، منح الهوى لمعالم الأحباب. ما أغرب الأمر في هؤلاء الناس. يغالون في تلومهم كأنما الوقوف على الديار حرام.

١ – العقام: ما لا يلد.

سقياً لأطلال الأحبة كي يرد لها الشباب ، فلعل مـا فيها من الربوات والمنخفضات يزدهي بالنور ، وتكلله الرياحين .

وتتوارد الى ذهن الشاعر خواطر وذكريات ، فيتراءى له زمن الوصال ثم أيام الهجر ، ويغص بالفراق ، ويشجيه صوت الحمائم . حتى اذا بلغت الاحزان منتهاها ، وثب الشاعر الى مدح الخليفة وثبة فيها كثير من البراعة والفن .

قد تقول إن هذا النهج قديم ، وقد يخيل اليك أن أبا تمام يقلد سابقيه ، ولكن الحقيقة غير ذلك. نعم ، أنه يقف على الاطلال ، وقوف السالفين ، ولكن حديثه عنها ، ومناجاته لها ، ونسيبه بالحبيبة أمور تختلف كل الاختلاف عما ألفه الشعراء من قبل .

إن أول ما يميز استهلال أبي تمام هو الفخامة في المطلع ، وهذا الجلال في التعبير والصورة ، والتصرف بالأصوات ، مما يدل على أن العملية الشعرية لم تعد شيئاً سهلاً ، ولم تعد كمألوفها تقوم على العاطفة والغناء وأنما هي وعي وإجهاد وحشد لمعطيات الفكر . ولا غرابة ؛ فأبو تمـام شاعر مثقف ، أكب على دراسة الفلسفة والعلوم في عصره ، واستفاد منها في تجاربه الفنية ، كما أنه أكب على بلاغة العرب ، وعلوم اللغة ، فتضلع منها ليستخدمهـا في شعره ؛ وإلا فكيف تفسر قوله :

عشقوا فلا رزقوا، أيعذل عاشق    رزقت هواه معالم وخيام
لا مر يوم واحـد إلا وفي    أحشائه لمحلتيك غمـام

وإنه لعلى جانب من الروعة أن يقول أبو تمام :

ولقد أراك فهل أراك بغبطة والعيش غض والزمان غلام

أرأيت قبله من الشعراء من عمد الى مثل هذا التجريد وجعل من الزمان شخصاً له طفولة وشباب وكهولة ؟

ولنمض الآن الى المديح – فأول ما نقع عليه ، هو هذا التخلص البديع الى الحديث عن الممدوح يحشد فيه الشاعر كل ما أوتي من لباقة وفن ، وما توصل اليه من خبرة في مجال التعبير ، ومقدرة على استنباط المعاني واستخراجها من أغوارها العميقة.

الله أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهام
من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفه إلهام

ما نظن أن إنساناً قبل المأمون قد توصل في مديحه الى هذه الحدود . وما نظن أن شاعراً قبل أبي تمام قد تيسر له أن يمدح بمثل هذه المعاني . هي مبالغات ولا ريب ، ولكنها مبالغات مستحبة . بل إنها لتهز كيان المتذوقين وتحرك منهم الأفئدة ، وتشغل الاذهان . أما الممدوح ، فيضحى اكثر من إنسان ، ويبلغ روعة المثالية .

كثيرون هم الشعراء الذين تحدثوا عن العظمة في الممدوح ، كما تحدثوا عن الجود والتقى والعدل والشجاعة ، وسعة السلطان ، ومضاء العزيمة ، والسهر على الدين ، والنصر على الأعداء ، والحلم والفضل ، وحسن الخلق ، وكرم النجار ، ولكنهم نادرون أولئك الذين صوروا هذه الامور بمثل ما صورها أبو تمام ، وخلعوها على الممدوحين كما خلعها هو على المأمون .

من شرّد الاعدام عن أوطانه
بالبذل حتى استطرف الاعدام
وتكفل الأيتام عن آبائه
حتى وددنا أننا أيتام
ما زال حكم الله يشرق وجهه
في الارض مذ نيطت به الاحكام
لما رأيت الدين يخفق قلبه
والكفر فيه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى
أسرجن فكرك والبلاد ظلام
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه
حسن اليقين وقاده الاقدام

هذه هي صفات الحاكم المثالي . هذا ما كان الممدوحون يتوقون الى سماعه منذ زمن طويل، ولكن الشعراء ماستطاعوا أن يبلغوه .

لمثل هذه الاقوال جعل أبو تمام أستاذ الشعر في زمنه ، ولمثلها أخذ الشعراء يقلدونه ويأخذون عنه ، وأخذ الاشراف يجلونه ويصدرونه في مجالسهم ، ويغدقون عليه الهبات .

على أن هذه المزايا ليست وحدها ما يسم الشعر الطائي . ففي قصائد الحبيب مقاطع ملحمية رائعة استمدها من حروب العباسيين ضد الروم ، والحق أن هذه الحروب لم تكن هينة ،

ولم تكن على هامش الحياة العربية في العصر العباسي ، بل كانت أهم ما يقض مضاجع الحكام . فالمأمون قد حسب حسابها ، والمعتصم جعلها في مقدمة أعماله ، كما جعلها الخلفاء اللاحقون ، وأمراء بني حمدان . ولكن أجمل الشعر الذي قيل في هذه الحروب هو لرجلين اثنين : أبي تمام ، وأبي الطيب المتنبي ، ذلك في حديثه عن حروب المعتصم ، وهذا في حديثه عن حروب سيف الدولة.

وسوف نعقد مقارنة بين الشاعرين لدى دراستنا لشعر أبي الطيب .

وفي القصيدة التي بين أيدينا لوحة لمعركة قادها المأمون ، وصف فيها الشاعر الجيش العربي، وقد ساقه حسن اليقين والايمان بالله وقاده الاقدام الى أرض العدو . ومع أن الابيات كلها من جيد الشعر ومتينه . فان هناك ما لا يسع القارىء إلا أن يبدي إعجابه ، ويلفت النظر اليه وخصوصاً قوله :

مسترسلين الى الحتوف كأنما  بين الحتوف وبينهم أرحام
في معرك ؛ أما الحمام فمفطر  في صبوتيه ، والكماة صيام
ما كان للاشراك فورة مشهد  والله فيه وأنت والاسلام
متساقطي ورق الثياب كأنهم  دانوا ؛ فأحدث فيهم الاحرام

ومن مزايا المديح لدى أبي تمام هذا الشعور القومي الذي حرص الشاعر على إبرازه في كثير من قصائده ؛ وهذه الصناعة التي يبلغ فيها بين الحين والحين حدّ الاسراف . فاذا التشابيه والاستعارات والكنايات والمجازات المرسلة ؛ والطباق والجناس

والترصيع وغيرها من معطيات البيان ؛ تنفرط في شعره حتى لا يكاد يخلو منها بيت واحد . وللشاعر ولع خاص بالغريب يقصد اليه قصداً متعمداً ؛ ويذروه في شعره . كما أنه مولع بالتشخيص واستخدام الرموز المتولدة من عميق الفكر. وسوف يثبت لك ذلك في ما سنورد له من مديح أيضاً .

## مدح المعتصم :

في سنة ٨٣٨ م ، أغار امبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل على بلدة تدعى زبطرة ؛ تقع على الخط الفاصل بين أرض العرب وارض الروم . فعاث جيشه في المدينة ، وأهلك أهلها وسبى نساءها ، ثم أحرق المدينة بكاملها . ووصلت أخبار الغزو الى سامراء وفيها المعتصم خليفة المسلمين ، ومن بينها خبر أقام الخليفة وأقعده مفاده أن امرأة عربية من أهل زبطرة قد لقيت من الغزاة شدة وتعذيباً ، فصاحت وهي تساق الى الاسر «وامعتصماه» . فتململ المعتصم فوق سريره وصاح : «لبيك ، لبيك» ثم جهز جيشاً وسار الى الثأر ، فغزا أنقرة ثم عمورية ، أمنع المدن الرومية وأقدسها ، فدك حصونها وقلاعها وأحرقها وخلص الاسرى العرب وعاد مظفراً . فمدحه أبو تمام بهذه القصيدة :

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ
في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ في
متونِهن جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

والعلمُ في شُهُبِ الارماحِ لامعةً
بين الخميسينِ لا في السبعةِ الشُّهُبِ [1]
أين الرواية بل أين النجومُ وما
صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذِبِ
تخرُّصاً وأحاديثاً مُلفّقةً
ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولا غَرَبِ [2]
عجائباً زعموا الايامَ مُجفلةً
عنهنّ في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجبِ
وخوّفوا الناس من دهياءَ مُظلمةٍ
إذا بدا الكوكَبُ الغربيُّ ذو الذّنبِ
وصيّروا الابرجَ العُليا مُرتبةً
ما كان منقلباً أو غير مُنقلبِ

---

١ – الخميسان : الجيشان كل منهما مؤلف من خمس فرق .

**ملحوظة** : روي أن المعتصم قد سأل قواده : أي بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل له عمورية لم يعرض لها احد من المسلمين منذ أن كان الاسلام وهي عين النصرانية وبنكهـا وهي أشرف عندهم من القسطنطينية فسأل المنجمين عما اذا كان في الامكان فتحها : فقالوا : إنها لا تفتح إلا بعد أشهر ، إبان نضج التين والعنب ، فلم يستمع لقولهم، ففتحها واخربها، ولذلك تحدث أبو تمام عن تخرصات المنجمين .

٢ – النبع : شجر صلب ينبت في الاعالي ومنه تؤخذ القسي . الغرب : شجر هش ركيك .

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
ما دار في فلكٍ منها وفي قطُبِ

لو بيّنَت قطّ أمراً قبل موقعه
لم تخفِ ما حلّ بالأوثانِ والصُّلبِ

فتح الفتوح تعالى أن يحيط بهِ
نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخُطبِ

فتحٌ تَفتّحُ ابوابُ السماء له
وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ

يا يومَ وقعةِ عمّوريّة انصرفت
منك المُنى حفّلا معسولة الحلبِ [1]

أبقيت جَدّ بني الاسلام في صُعُدٍ
والمشركين ودار الشركِ في صبَبِ [2]

أُمٌّ لهم لو رجوا أن تُفتدى جعلوا
فداءها كلّ أمٍّ بَرّةٍ وأبِ

وبرزة الوجهِ قد أعيت رياضتها
كسرى وصدت صدوداً عن أبي كربِ [3]

---

١ – الحفل : جمع حافل ، وهي الناقة التي امتلأ ضرعها لبنا .

٢ – الصبب : المنحدر من الطريق .

٣ – برزة الوجه : المرأة ذات الحسن . أبو كرب : ملك تبعي من أهل اليمن اسمه أسعد بن مالك الحميري .

من عهدِ إسكندرٍ أو قبلَ ذلك قد
شابت نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ

بكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثةٍ
ولا ترقّت اليها هِمّةُ النُّوَبِ

حتى إذا مخّض الله السنينَ لهـا
مخضَ البخيلةِ كانت زُبدةَ الحِقَبِ

أتتهُمُ الكربةُ السوداءُ سادرةً
منها وكان اسمُها فرّاجةَ الكربِ

جرى لها الفألُ نحساً يوم أنقرة
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

لما رأت أُختها بالأمسِ قد خربتْ
كان الخرابُ لها أعدى من الجربِ

كم بين حيطانها من فارسٍ بَطلٍ
قاني الذوائب من آني دمٍ سَرِبِ [1]

بسنّةِ السيفِ والخطّيِّ من دمهِ
لا سنّةِ الدينِ والاسلام مختضبِ

لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها
للنار يوماً ذليل الصخرِ والخشبِ

---

١ – القاني : الصافي الاحمرار . والآني الحار . السرب : السائل .

غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضُحىً
يَشُلُّه وسْطها صبحٌ من اللهَبِ

حتى كأنَّ جلابيب الدُّجى رغبت
عن لونها، أو كأنَّ الشمس لم تغِبِ

ضوءٌ من النار، والظلماءُ عاكفةٌ
وظلمةٌ من دخان في ضحىً شَحِبِ

فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أفلَتْ
والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تَجِبِ [1]

ما ربعُ مَيّة معموراً يطيفُ به
غيلانُ، أبهى ربىً من ربعها الخَرِبِ [2]

ولا الخدود وقد أُدمين من خَجلٍ
أشهى الى ناظري من خدِّها التَّرِبِ

سماجةٌ غنيت منا العيون بها
عن كل حُسنٍ بدا، أو منظرٍ عجبِ

وحسنُ مُنقلبٍ تبدو عواقبه
جاءت بشاشته عن سوء مُنقلبِ

لو يعلمُ الكفر كم من أعصرٍ كمنت
له المنيةُ بين السُّمر والقضُبِ

---

١ — وجبت الشمس : غابت .

٢ — غيلان: هو ذو الرمة الشاعر الأموي الشهير ـ مية : هي حبيبة الشاعر

تدبيـــر معتصمٍ ، بالله منتقمٍ ،
لله مرتقبٍ ، في الله مرتغبِ .

ومُطعِمُ النصلِ لم تكهَمْ أَسِنَّتُهُ
يوماً ولا حجِبت عن روح مُحتجب .[1]

لم يغزُ قوماً ولم ينهض الى بلدٍ
إلا تقدّمه جيشٌ من الرُّعُبِ .

لو لم يقد جحفلاً يومِ الوغى لغزا
من نفسه وحدها في جحفلٍ لجبِ .

رمى بك الله بُرجَيها فهدّمهـــا
ولو رمى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصِبِ

من بعد ما أشّبوها واثقين بهـــا
واللهُ مفتاحُ باب المعقلِ الأشبِ [2]

وقال ذو أمرِهمْ : لامرتعٌ صَددٌ
للسارحين وليس الوردُ من كثَبِ .

أمانياً سلبتهمْ نُجحُ هاجِسِها
ظُبي السيوف وأطراف القنا السُّلبِ .

ان الحمامَينِ من بيضٍ ومن سُمُرٍ
دلوا الحياتينِ من ماء ومن عشُبِ

١ – كهم السيف : كلّ ونبا .
٢ – التأشيب : شدة التفاف الشجر ، والأشب : المنيع المحصن .

لبّيتَ صوتاً زِبَطرياً هرَقتَ لهُ
كأسَ الكرى ورُضابِ الخرّد العربِ [1]

عَداكَ حرُّ الثغور المستضامةِ عن
بردِ الثغورِ وعن سَلسالها الحَصِبِ

أجبتَهُ معلناً بالسيفِ مُنصلتاً
ولو أجبتَ بغير السيفِ لم تُجِبِ

حتى تركتَ عمودَ الشّركِ منقعراً
ولم تعرّج على الأوتادِ والطُّنُبِ [2]

لما رأى الحربَ رأيَ العين تُوفِلِسٌ
والحربُ مشتقةُ المعنى من الحرَبِ [3]

غدا يصرّفُ بالأموال جزيَتها
فعزّه البحرُ ذو التيّار والعبَبِ

هيهاتَ زُعزِعتِ الارضُ الوقور به
عن غزو محتَسِبٍ لا غزو مُكتسبِ [4]

لم يُنفِقِ الذهبَ المربي بكثرتهِ
على الحصى وبه فقر الى الذّهبِ

---

١ – العرُب: جمع عَروب : وهي المرأة المتحببة لزوجها ،
٢ – منقعراً : منقطعاً من اصله .
٣ – الحرب : سلب امتعة الناس وتركهم بلا شيء .
٤ – المحتسب : من قدم الخير عند الله .

إن الأسودَ أسودُ الغاب همّتُها
يومَ الكريهة في المسلوب لا السلب
ولّى وقد ألجمَ الخطّيُّ منطِقهُ
لِسكتةٍ تحتها الأحشاءُ في صَخب
أحسى قرابينه صرف الردى ومضى
يحثُّ أنجى مطاياهُ من الهرب[1]
موكّلاً بيفاعِ الارض يُشرفُهُ
من خِفّةِ الخوف لا من خفة الطرب
إن يعدُ من حرِّها عدوَ الظليم فقد
أوسعتَ جاحِمَها من كثرة الحطبِ
تسعون ألفاً كآسادِ الشّرى نضجت
جُلودهمْ قبل نُضجِ التّين والعنبِ .
والحربُ قائمةٌ في مأزقٍ لَجِبٍ
تجثو الرجال به صُعراً على الرُّكبِ[2]
كم نِيلَ تحت سَناها من سَنى قمرٍ
وتحت عارِضِها من عارضٍ شَنِبِ .[3]

---

١ – القرابين : جمع قربان وهو جليس الملك .

٢ – المأزق : مضيق يقتتل فيه : الصعر : جمع الأصعر : وهو المعرض بوجهه كبراً .

٣ – سناها : أي سنى النار ، ضوءها . وأما سنى الثانية : فأراد بها نور الوجه الجميل . العارض : السحاب المعترض في الأفق . شبه به الحرب التي تمطر عارضاً من نار . والعارض الثانية مـا يعرض لك عندما تنظر إلى الثغر باسماً .

كم كان في قطع أسبابِ الرقاب بها
الى المخدّرة العـــذراء من سبَب

كم أحرزَت قُضُبُ الهنديّ مُصلتةً
تهتزّ من قُضُبٍ تهتزُّ في كُثُبِ.[1]

بيضٌ إذا انتضيت من حجْبِها رجعَت
أحقّ بالبيض أبداناً من الحجُبِ.[2]

خليفةَ الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحسَبِ.

بَصرتَ بالراحةِ الكبرى فلم ترَها
تنالُ إلا على جسرٍ من التّعبِ

إن كان بين صُروف الدهر من رحِمٍ
موصولةٍ أو ذمامٍ غير منقضبِ

فبين أيامكَ اللاتي نُصرتَ بهـا
وبين أيام بدرٍ أقرب النسبِ

أبقت بني الاصفرِ المصفرّ كاسمِهمُ
صُفر الوجوهِ وجلّت أوجه العرب

هذه عينة ثانية من مديح أبي تمام ، وهي من بين الروائــــع

---

١ – القضب الأولى : السيوف القليلة العرض. والقضب الثانية: جمع قضيب وهو الغصن .

٢ – البيض : السيوف – انتضيت من حجبها : سلّت من أغمادها .

البارزة في شعر العرب استهلها أبو تمام بغير ما تعود السابقون ان يستهلوا قصائدهم به ، وبغير ما نرى في مطالع عدد غير قليل من قصائد هذا الشاعر . وما كان هذا الاستهلال إلا نتيجة لتطور قد أصاب فن المديح على يدي حبيب بن أوس الطائي ، فزالت منه المنهجية القديمة بعض الزوال ، واستعيض عن مطالع الغزل ووصف الديار بمطالع جليلة في الحكمة ، وسوف نرى المتنبي يأخذ بهذه الطريقة ، ويبتعد فيها أكثر مما ابتعد أبو تمام . وفي ديوان الحبيب عدد غير قليل من القصائد التي تبدأ بدءاً غير تقليدي . ولعل الجلال الموقف الذي وقفه الشاعر يداً في تحويل المطلع نحو هذا اللون . فهل يسوغ لأبي تمام أن يقف على الأطلال ،ويتذكر الأحبة ، ويصف الناقة والربع والخيام والسفر وما الى ذلك في هذه الغمرة من غمرات البطولة العظمى ؟

والذي لا يحتاج الى كبير برهان ، هو أن أبا تمام شاعر أبّهة وأريستوقراطية يريد أن يرفع الناس الى مستواه ، بديل أن ينحدر هو في شعره الى مستوى الناس البسطاء . وفي هذه الطريقة فتح جديد في شعر العرب .

هيهات زعزعت الارض الوقور به
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
إن الاسود أسود الغاب ، همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ولـّى وقد الجم الخطّي منطقه
بسكتة تحتها الأحشاء في صخب

ولقد ذكرنا عنه في السابق أنه كان مولعاً بالتقصّي المعنوي، يقلب المعاني تقليباً ، ويبتعد في طلبها حتى يبلغ التعقيد أحياناً ، وما ذلك إلا نتيجة لتلك المفاهيم التي أقام الشعر على أسسها . وإذا وقعت في شعر أبي تمام على مبالغات لا تحدها حدود ، فلا تظن أنها من نوع المبالغات المعروفة عند السلف . بل هي مبالغات ولدتها الفلسفة ولوّنها العقل بألوانه ، وتوخى فيها أبو تمام بلوغ المستحيل لشدة توقه الى الخروج مما كان الناس يألفونه .

لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد
إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفل لجب

والحق يقال إنها لمبالغات مستحبة رغم خروج صاحبها عن المعقول . وإذا كان أبو تمام يتقصى المعاني ويعمد الى التوليد والاختراع ، فانه لم يهمل اللمح والايماءة السريعة ، وجعل الكلام موافقاً للمقام الذي قيل فيه :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
له المنية بين السمر والقضب
فبين أيامك اللائي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

ومما يميز شعر أبي تمام كذلك ، صناعة بلغت حد الإسراف في حشد الصور البيانية ، وتعمد الاتيان بما يثير إعجاب الناس ، ويشغل أذهانهم .

وعن ظاهرتين أساسيتين في شعر أبي تمام ، ظاهرة الفكر ، وظاهرة الصناعة، نشأ غموض اكتنف غير قليل من شعر الرجل، وألقى عليه ظلاً قاتماً ، حتى أخذ الناس يتساءلون حول هـذا الشعر ، ويقولون لأبي تمام : لماذا تقول مـا لا يفهم ؟ فيجيبهم هو : ولماذا لا تفهمون ما يقال ؟ وغير خفي ما قصده ذلـك الشاعر البدوي حين سمع شعر الحبيب فقال : «إذا ما كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل» .

أضف أن في شعر أبي تمام وحدة في القصيدة ، وتآلفاً وتماسكاً بين أجزاء النظم وعملاً فنياً راقياً ، واتجاهاً نحو التعقد .

نخرج من هذا كله ، الى أن شعر المديح قد لقي على يدي أبي تمام تجديداً بيّناً ، إن في طريقة النظم ، أو في محتوى الشعر ، أو في الصياغة ، بحيث أصبحت العملية الشعرية لديه عملية وعي وإجهاد وأناقة وإغراب وفلسفة وتعمل فني وجنوح في الخيـال نحو التعقيد والاتساع ، وفي المديح نحو الابهة والضجيج الملحمي وجلال العبارة ، وأريستوقراطية الشعر وفخامة المطالـع ، والاغراق في التعظيم والنفج ، مما كان يحرك أفئدة الامراء ويهز أريحيتهم ، ويقيمهم ويقعدهم ، ويملأ نفوسهم ابتهاجاً واطمئناناً وزهواً .

**البحتري :**

لم يكن البحتري ابن الحضارة في مولده ولا في نشأته ، وإنما هو بدوي منبجي ، انتقل الى الحاضرة فيما بعد ، عندما بلغت قصائده في بغداد نديم الخليفة علي بن يحيى المنجم ، وهو أديب وشاعر ؛ فقربه اليه ، ثم فتح أمامه باب المجد ، فعرف الوزراء والامراء ، ولقي حفاوة لدى الخليفة المتوكل ، وكان بينهما اتفاق في الأهداف السياسية وفي الذوق وفي الخلق .

كان البحتري رحّالة يضرب في الامصار ، فما ترك بلداً شهيراً ، ولا ثغراً من الثغور إلا زاره . ولقد مر شعره بمراحل ثلاث :

**١ - عهد الصحراء :**

ومنها قبس البحتري اللغة فانقادت له ، واستوى على الكلام الفصيح لسانه ، فنجا من مزالق أبي تمام اللغوية ، وإذا كانت الأجهزة اللغوية لدى حبيب بن أوس قد طلبت بالدرس ، وقصد اليها قصداً ، فانها لدى البحتري عفوية أخذها عن أهل منبج وفصاحة البدو في الصحراء كما تنشق النسيم في صباه ، وكما امتد بصره في صحراء اتسع باتساعها مرمى خياله .

حمل البحتري من الصحراء ألفاظه وأصالة التركيب لديه ، كما حمل الذوق البدوي في الشعر ، ومؤداه ؛ أن الشعر ليس فكراً وليس ثقافة ، وإنما هو عاطفة وخيال ، وموسيقى تجعل

منه عملاً غنائياً في الدرجة الاولى .

## ٢ ـ تلميذ أبي تمام :

لا نعرف من أهل الفن رجلاً واحداً لم يحتذ حذو أستاذ في حياته الفنية . ولقد كان أبو تمام أستاذاً للبحتري كما كان أستاذاً لغيره أيضاً ، وكانت شخصيته أقوى وأصلب من شخصية البحتري .

وفي الوقت الذي عرفه فيه أبو عبادة الناشيء ، كان اسم أبي تمام قد ملأ فضاء الشعر ، فضرب التلميذ على غرار أستاذه ، ولكنه قصر عنه كما يقصر المقلد عن المبدع دائماً .

فلم يكن البحتري صاحب ثقافة واسعة ، ولم يتوفر له التكوين الفلسفي الذي كان يتمتع به أبو تمام . وكأنما لم يدرك هذا الفتى أن معضلة الشعر لديه تختلف عنها لدى أبي تمام ، فقلده حيناً ثم ما لبث أن تخلص من سلطته شيئاً بعد شيء .

## ٣ ـ العمران الجديد :

وكان من الطبيعي أن تكتمل العملية الفنية في علاقة ما بين الشاعر والحياة يوم انتقل البحتري الى حاضرة بني العباس ، وأدرك الفوارق التي تفصل عالم منبج عن هذا العالم المكتنف بالبناء والزهر والخمر وأبهة الملك ورغد العيش والماء النمير والقيان واللهو على مختلف أنواعه . وأدرك أن العيش الرغيد السهل لا يعبر عنه إلا بشعر من طبيعتة ، سهل طيب الجرس حلو الأنغام،

تستسيغه الأذن ، ويطيب لها أن تسمعه في كل حـــين . فنظم قصائد ، هي من أجمل ما قيـــل في شعر العرب ديباجة ، ومن أكثرها موسيقيـــة وحلاوة في التعبير . والذي يهمنا من هذه القصائد هو المديـح .

## مدح المتوكل :

«وفيه ذكر موكبه يوم الفطر»

أُخفِي هوىً لكِ في الضلوع وأُظهِرُ
وأُلامُ في كَمَدٍ عليكِ وأُعذَرُ
وأراكِ خنتِ على النوى مَن لم يَخُن
عهدَ الهوى ، وهجرت من لا يهجرُ
وطلبتُ منكِ مودّةً لم أُعطَها
إنَّ المُعنّى طالبٌ لا يظفرُ
هل دَينُ علوَةَ يُستطاعُ فيُقتضى
أم ظُلمُ علوة يستفيقُ فيُقصِرُ
بيضاء يُعطيكَ القضيبُ قوامها
ويُريكَ عينيها الغزال الأحورُ
تمشي فتحكمُ في القلوبِ بدَلّها
وتميسُ في ظلّ الشّباب وتخطِرُ
إني وإن جانبتُ بعضَ بطالتي
وتوهّمَ الواشونَ أني مُقصرُ

لَيشوُقني سحرُ العيون المجتلى
ويروقني وردُ الخـدودِ الأحمرُ

الله مكّن للخليفــة جعفرٍ
ملكاً يحسّنه الخليفةُ جعفرُ

نعمى من الله اصطفاه بفضلهـــا
والله يرزقُ من يشاء ويقــدُرُ

فاسلم أميرَ المؤمنــين ولا تزلْ
تُعطى الزيادة في البقاء وَتشكرُ

عمّتْ فواضلُكَ البريّةَ فالتقى
فيها المُقِلُّ على الغنى والمُكثرُ

بالبرّ صمتَ وأنتَ أفضلُ صائمٍ
وبسنّة الله الرضيّــةِ تُفطِرُ

فانعَم بيوم الفطرِ عيناً إنـــه
يومٌ أغرُّ من الزمانِ مشهّرُ

أظهرتَ عزَّ الملكِ فيه بجحفلٍ
لَجِبٍ يُحاطُ الدينُ فيه ويُنصرُ

خلنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غدت
عُدداً يسير بها العديد الأكثر

فالخيلُ تصهلُ والفوارسُ تدّعي
والبيضُ تلمعُ والأسنّةُ تَزهرُ[1]

---

١ – تزهر : تلتمع .

والارض خاشعة تميد بثقلها
والجو معتكر الجوانب أغبر

والشمسُ ماتعةٌ توقّد بالضحى
طوراً ويطفئها العجاجُ الأكدرُ

حتى طلعتَ بضوءِ وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجابَ ذاك العِثْيرُ [1]

وافتنّ فيك الناظرون فاصبعٌ
يُولى اليكَ بها وعينٌ تنظُرُ

يجدونَ رؤيتك التي فازوا بها
منْ أنعُم الله التي لا تُكفَرُ

ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبّروا

حتى انتهيت الى المصلّى لابساً
نورَ الهُدى، يبدو عليك ويظهر

ومشيتَ مشيةَ خاشعٍ متواضعٍ
لله لا يُزهى ولا يتكبّرُ

فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما
في وسعه لسعى اليك المنبر

---

١ – العثير : الغبار الكثيف .

أيّدتَ من فصل الخطاب بحكمةٍ
تُنبي عن الحقِّ المبينِ وتُخبر
ووقفتَ في بُرد النبي مذكراً
بالله تُنـــذِر تارةً وتبشّرُ

ومواعظٌ شفتِ الصدور من الذي
يعتـــادُهـــا وشفاؤهـــا متعذّر
حتى لقد علمَ الجهولُ وأخلصت
نفس المروّي واهتدى المتحيّرُ
صدوا وراءك آخذين بعصمةٍ
من ربهـــم وبذمـــة لا تُخفرُ
فاسلمْ بمغفرة الاله فلم يزلْ
يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله أعطاك المحبة في الورى
وحَباكَ بالفضل الذي لا يُنكر
ولأنت أملأ للعيون لديهم
وأجلُّ قدراً في الصدور وأكبر

في هذه القصيدة كما في أمثالها من مدائح البحتري تظهر المزايا العامة التي تسم شعر هذا الرجل .

١ — إن الشاعر لم يشذ عن نهج القدماء في جعل الغزل فاتحة لشعره . ولكنه غزل رقيق ، استمد رقته من حياة الحواضر

العباسية ومن مظاهر التطور التي أصابت شعر العرب في القرن الثالث للهجرة ، كما استمدها بنوع أخصّ ، من ذوق البحتري ومن رفاهة حسّه ورقة طبعه ، وتمكّنه من استخدام الأجهزة اللغوية حسب مقتضى الحال .

٢ – إن غزله لم يتضمن وقوفاً على الأطلال ، ولا نعتاً للديار ، أو وصفاً للناقة أو حديثاً عن الظعن ، وترحل القوافل في فيافي الصحراء .

٣ – إن الانتقال من الغزل الى المديح شبيه جداً بانتقالات الشعراء القدامى ، فهو وثب مفاجىء ليس فيه ما رأيناه لدى أبي تمام وهو معاصر البحتري وأستاذه في مدرسة الشعر .

٤ – إن المعاني الواردة في المطلع الغزلي لتدل دلالة واضحة على ذوق البحتري البدوي في أصله ، المتدمث بمدمثات الحضارة .

٥ – إذا مدح البحتري كان مديحه استخداماً للمعاني الشائعة لدى الشعراء جميعاً ، حتى إنه ليندر أن يقع امرؤ على معنى بحتري خالص . فالمتوكل يسوس الملك ويحسّنه كما كان يسوسه يزيد وعبد الملك وهشام ابنه وكما كان يسوسه المنصور والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، ونعم الله عليه منهالة بكثرة ، وفواضله عمت البريه ، كممدوح النابغة الذبياني إذ قال فيه « إن له فضلاً على الناس في الادنى وفي البعد » . والمتوكل يصوم رمضان على سنة الله ، ويفطر على سنة الله ، وهو يذهب الى

الصلاة ويسير بخشوع وتواضع ، تشتاق العيون الى رؤيته والآذان الى سماعه . فاذا نطق فبالحكمة والهدى ونور الحق ،وإذا وقف بين الناس ، ذكّرهم بالنبي ؛ وحلّ فيهم بركة .

٦ – إن البحتري شاعر مبدع ؛ ولكن إبداعه ليس في معاني المديح التي يوردها بل في اللوحة الفنية التي يضمنها مديحه . وما من مدحة إلا وتجد فيها وصفاً لمحفل أو لقصر أو لبركة أو لحديقة أو أي شيء آخر مما يلائم مزاج هذا الشاعر . ولعل لتطور الحياة الحضرية الأثر الاكبر في تطوير المديح لديه نحو هذا اللون .

وفي القصيدة التي بين أيدينا وصف رائع لموكب المتوكل ؛ وهو خارج الى الصلاة يوم العيد ؛ وقد سار معه جيش عظيم ؛ في أبهة وعزّة وجلال ؛ فكأنما كانت الجبال تسير ، والناس وقوف في جماهير غفيرة ، والخيل تصهل والفوارس تدّعي . وسيوفها تلمع . وأسنتها تزهر . ويا لروعة ذلك المشهد . وقد انبسطت الارض بخشوع . ومادت بأثقالها . والجو قد اعتكر واغبرّ وجهه والشمس قد متعت توقد بالضحى . وفي هذه الغمرة طلع الخليفة بوجهه على الناس . فانجلى الدجى . وانجاب كدر الفضاء وتهافت الناس على رؤية المتوكل . وكأنها نعمة كانوا بها يفوزون . وتتعالى الأصوات من كل مكان تهليلاً وتكبيراً . ويمشي الخليفة بين الناس متواضعاً مستبشراً وكل ما في الوجود في شوق الى رؤيته والتبرك به .

وصف جميل ، ولا ريب ، لموكب الخليفة يوم الفطر . فيه دقة ملاحظة واتساع شعور . وبراعة في التصوير . ورهافة في الحس. وإدراك شامل للخصائص . ومعرفة بأحوال النفوس وبما يرضيها. والبحتري رسام بارع يختار من اللوحة خطوطها البارزة. فيثبتها . حتى تضحي هذه اللوحة غنية بالايحاء .

٧ — ليست القصيدة في مديح البحتري طويلة النفس ، وإنما هي دفق شعوري تستوعبه نفثة قصيرة ، فيكتفي بثلاثين بيتاً ، أو أربعين أو خمسين ، ولا يتجاوز ذلك كما تجاوزه ابن الرومي فبلغت مدحته أربعمئة بيت ونـّيفاً .

٨ — ليست المعاني في شعر أبي عبادة ، معاني فلسفية ، ولا هي من العمق بمثل ما كانت معاني أبي تمام ومعاني ابن الرومي والمتنبي ، ولكنها مع ذلك مستحبة ، ترتاح اليها النفس ، ولا تجد فيها تعقيداً ولا غموضاً ولا كدّا . فشعر البحتري يفهم للتلاوة الاولى ، ويبلغ منك النفس كما يبلغها العطر من غير ما إجهاد أو معاناة .

٩ — ولا تظن أن البحتري كان يأتي بالسخيف المرذول . فواقع الحال أن السخيف المرذول من طبيعة التكلف ، ولم يكن البحتري متكلفاً ، بل كان الطبع أبرز ما يسم شعره . وإنك لتقع في هذا الشعر ، على البساطة والفطرة والالفة والراحة ، والوضوح الى أبعد حد ، وفي أجلى مظهر . وللبحتري التفاتات جميلة جداً على بساطتها وسهولتها كقوله في المطلع الغزلي من هذه القصيدة :

تمشي فتحكم في القلوب بدلها
وتميس في ظل الشباب وتخطر
إني وإن جانبت بعض بطالتي
وتوهم الواشون أني مقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى
ويروقني ورد الخدود الأحمر

وكقوله في وسطها :

خلت الجبال تسير فيه وقد غدت
عدداً يسير بها العديد الاكبر
والأرض خاشعة تميد بثقلها
والجو معتكر الجوانب أغبر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
فلو ان مشتاقاً تكلف غير ما
في وسعه لسعى اليك المنبر

١٠ – لم يكن البحتري يعمد الى المبالغة في مديحه ، كما كان يفعل أبو تمام والمتنبي وغيرهما ولم يكن يبلغ المحال في تصوراته ومغالياته .

١١ – ثم إن الصناعة لديه صناعة موعية مهذبة ، فهو لا يسرف فيها إسراف أستاذه ، ولا يتكلفها ، بل تنساق في شعره انسياقاً هيناً سهلاً ، كقوله :

وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى وهجرت من لم يهجر

الله مكـن للخليفـــة جعفر
ملكاً يحسنه الخليفـــة جعفر

نعمى من الله اصطفاه بفضلهـا
والله يرزق من يشاء ويقـــدر

والذي يلفت النظر ، تضمينه للقول القرآني في البيت الأخير تضميناً فيه كثير من اللباقة والعفوية .

إذا كان شعر البحتري جميلاً مستحباً ، فجماله في موسيقاه ، وفي إيقاعه العذب الذي يولد لدى القارىء لذة مريحة وطرباً . ومـا كان عبثاً أن يقول ابن الأثير في هذا الرجل : «إنه أراد أن يشعر فغنى» فواقع الحال أن البحتري إذا لفت نظر النـــاس واهتمامهم فلأنه قد شغل مسامعهم وأذواقهم ولم يشغل عقولهم . شغلهم باستواء شعره حتى لكأنــه «سلاسل من ذهب» وشغلهم بأصواته المتآلفة وأنغامه الجميلة وخياله الفسيح الذي يجعل منه مصوراً فناناً ، وبالايحاء الصوتي الذي قد بلغ فيه غاية ما يمكن أن يبلغه شاعر عربي . لذلك أضحى البحتري صاحب أجمـــل ديباجة شعرية عند العرب .

وجدير بالملاحظة ، ان شعر البحتري هو أبرز شعر تمثلت فيه الاصالة العربية على حقيقتها ، وتوافرت فيه العناصر كلهـا التي يتكون منها عمود الشعر العربي .

لكل هذه الخصائص ، تألق نجم البحتري في سماء الشعر واصابته الشهرة ، وأجزل له الممدوحون العطاء ، فبلغ الثراء الجم ، وتحدث عنه الناس في المجالس ، وحسده ابن الرومي وأمثاله ، لأنه لقي النجاح من دونهم . وشهد له النقاد بالفضل والتقدم ، وتفننوا بشعره .

## المديح في العصر العباسي الثالث

مر بنا أن العصر العباسي الثالث هو عصر الازدهار الفكري عند العرب في العلم والفلسفة والأدب والفنون . ولكنه عصر انحطاط سياسي وفوضى ، وتمزق لكيان الدولة . وعصر جشع مادي وتحارب عنيف من أجل السلطة والغنى . وفي هذا العصر بالذات ، نشأت ثورات عارمة شنها الزنج والقرامطة والفاطميون والشعوبيون ، واستقل الولاة بولاياتهم ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم ويحارب بعضهم بعضاً .

أمام هذا الوضع ، كان الشعراء ينتقلون من والٍ الى والٍ ، وكانوا يجدون أمامهم سبلاً للتعيش بشعرهم . وقد زاد في هذه الحركة ، كون الامراء الذين أوجدتهم الظروف السياسية كانوا يحرصون على تكريم الشعراء والعلماء وأهل الأدب والفن ؛ ويتنافسون في ذلك ، فيجعلون من بلاطاتهم ندوات أدبية وفكرية . وأشهرهم آنذاك على الاطلاق سيف الدولة الحمداني الذي جعل بلاطه محجّة للشعراء والأدباء وأهل المعرفة . قال صاحب اليتيمة [1] في معرض

---

١ – الثعالبي – يتيمة الدهر . ج ١ ص ٦ وص ١٠٦

حديثه عن شعراء الشام : «وقد رزقوا ملوكاً وامراء من آل حمدان وبني ورقاء ، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم . وما منهم إلا أديب جواد ، يحب الشعر وينقده ويثيب على الجيّد منه فيجزل ويفضل . وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم . وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . » .

والحق، أن فحول الشعر في العصر العباسي الثالث قد قصدوا بلاط حلب ومن بينهم أبو إسحاق الصابي ، والقاضي النيسابوري ، وابو بكر الخوارزمي وابو الطيب المتنبي ، والوأواء الدمشقي وأبو العباس النامي ، والسريّ الرفاء ، وأبو الفرج الببغاء ، وغيرهم كثير . ولعل أشهرهم على الاطلاق واجودهم شعراً واعرفهم بالمديح ، هو أبو الطيب المتنبي . ولهذا فاننا سنكتفي باتخاذ شعره نموذجاً للمدائح في ذلك للعصر .

## من مديح المتنبي

أنشد المتنبي هذه القصيدة سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة هجرية ، وقد مدح فيها سيف الدولة الحمداني في ميدانه بحلب ، وهنأه بعيد الأضحى .

لكل امرىء من دهره مـا تعوّدَا
وعادة سيف الدولة الطعن في العدى
وأن يكذب الارجافَ عنه بضده
ويمسي بما تنوي أعـاديه أسعدا
وربّ مريـدٍ ضرّه ضرّ نفسَه
وهادٍ اليه الجيش أهدى وما هدى
ومستكبر لم يعرف الله ساعـة
رأى سيفَه في كفّـه فتشهّدا
هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا
على الدرّ واحضره إذا كان مزبدا
فاني رأيت البحر يعثر بالفـتى
وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا .
تظل ملوك الأرض خاشعـة له
تفـارقه هلكى وتلقاه سجّدا
وتحيي له المـال الصوارم والقنا
ويقتل ما تحيي التبسم والجـدا
ذكيّ تظنّيه طليعـةُ عينه
يرى قلبه في يومه ما ترى غدا
وَصولٌ الى المستصعبات بخيـله
فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

لذلك سمّى ابن الدمستق يومه
مماتاً وسمـــاه الدمستق مولدا

سريت الى جيحان من أرض آمد
ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

فولّى وأعطاك ابنه وجيوشه
جميعاً ولم يعط الجميـع ليحمدا .

عرضت له دون الحياة وطرفـــه
وأبصر سيف الله منـك مجرّدا

وما طلبت زرق الأسنة غيره
ولكن قسطنطين كان له الفدى

فأصبح يجتاب المسوح مخافـــة
وقد كان يجتاب الدلاص المسرّدا

ويمشي به العكاز في الدير تائبـــاً
وما كان يرضى مشي أشقر أجردا

وما تاب حتى غادر الكرُّ وجهه
جريحاً وخلّى جفنه النقع أرمدا

فلو كان ينجي من علـيّ ترهب
ترهبت الاملاك مثنى وموحـــدا

وكل امرىء في الشرق والغرب بعده
يعدُّ له ثوبـاً من الشعر أسودا .

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده
وعيد لمن سمّى وضحّى وعيّدا
ولا زالت الأعياد لبسك بعده
تسلم مخروقاً وتعطى مجدّدا
فذا اليوم في الايام مثلك في الورى
كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا
هو الجدُّ حتى تفضل العين أختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيدا
فيا عجباً من دائل أنت سيفه
أما يتوقّى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيّده الضرغام فيما تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا .
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولكن تفوق الناس رأياً وحكمة
كما فقتهم حــالاً ونفساً ومحتدا
يدق على الأفكار مــا أنت فاعل
فيترك ما يَخفى ويؤخـذ ما بدا
أزل حسـد الحسّاد عني بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسّدا
إذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم
ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمدا
وما أنا إلا سمهريّ حملته
فزيّن معروضاً وراع مسدّدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسـير مشمّراً
وغنى به من لا يغـني مغردا .
أجزني إذا أُنشدتَ شعـراً فانما
بشعري أتاك المـادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فانني
أنا الطائر المحكيّ والآخر الصدى
تركت السرى خلفي لمن قل ماله
وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

وقيدت نفسي في ذراك محبة
ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

إذا سأل الانسان أيامه الغنى
وكنت على بعد جعلناك موعدا .

هكذا كان أبو الطيب يمتدح سيف الدولة . وما من شاعر في عصره استطاع أن يقول مثل هذا المديح . ولعلنا لا نكون مبالغين ، إذا اعتبرنا أبا الطيب الشاعر الأول في المديح عند العرب . فمن لك بهذه العظمة يطل بها الشاعر من بعيد وعلى لسانه تزهو حكمة الدهور ويختال شعر المديح في اجمل وأبهى مظاهره . من لك بهذا الحزم الذي لا يعتريه وهن ولا يتسرب اليه الريب في شأن سيف الدولة رجل الحرب والطعان حتى لكأن الحرب هوايته الأولى ولعبته المفضلة . لله دره من بطل ، يعفر جباه أعدائه ويمرغ أنوفهم في الرغام واليه تساق الجيوش هدايا سائغة ، والذاهبون الى ضرره هم الى حتفهم سائرون .

ومستكبر لم يعرف الله ساعة
رأى سيفه في كفه متشهّدا

ترى هل وصف إنسان بمثل هذا الوصف قبل سيف الدولة ؟ لقد قال أبو تمام في مديح المعتصم :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
له المنية بين السمر والقضب

تدبـــير معتصم بالله منتقـــم
لله مرتقب في الله ـــرتغب

فأبدع أبو تمام ، ولكن بيت المتنبي أرحب مدى ، وأكثر ماوية لأنه أقل تكلفاً .

ويعرج المتنبي على الجود في خلق سيف الدولة فما يراه مماثلا لجود الآخرين .

هو جود العظيم الذي بيده نفع الناس وبيده مضرتهم . فمن أتاه موادعاً فاز باحسانه ، ومن أتاه مغاضباً لم يأمن الهلكـــة ؛ كالبحر إذا سكن ، أمكن إتيانه ، والغوص على ما فيـــه من جوهر ، وإن ماج وأزبد وجب التحذر منه .

والذي ينظر في هذا المديح ، يتبين أن المتنبي قد خرج فيه على المنهجية القديمة ، وأنه قد تتبع خطى أستـاذه أبي تمام ، ولكنه تجاوزه حتى بزه في فخامة المطلع وصفـــاء التعبير ، ووضوح المعاني ، وصدق الشعور .

كان المتنبي طماحاً الى الملك ، مثالياً في نزعاته وأهدافـه ، مغرماً بالعظيم من الامور ، تواقاً الى المحال ، والعظمة التي مـــا بعدها عظمة . ولما أبى الزمان أن ينيله شيئاً من مطامحه ، راح ينشد تحقق هـــذه المطامح في رجل يجمع المثالية والعظمة في كف واحدة ، فكان سيف الدولة .

وواقع الحال أن سيف الدولة ، وإن أمد المتنبي بكثير من معاني شعره ، فانه كان يقصر عن الرجل الخيالي الذي كان يضعه

أبو الطيب نصب عينيه ، فيعمد الشاعر الى أتمام ما ينقص الامير من عنده ، حتى غدا سيف الدولة في شعر أبي الطيب الرجل المثالي الذي لا ينقصه مظهر من مظاهر الكمال .

تظل ملوك الأرض خاضعة له    تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا

وهو في هذه القصائد، لا كما كان في واقعه ، بل كما أراده المتنبي أن يكون. غنائمه كثيرة، وعطاياه للاصحاب والمحتاجين كثيرة أيضاً وذكاؤه يفوق حد الذكاء ، حتى أن فؤاده ليرى اليوم ما ستراه عينه في يوم غد . أما الإرادة والعزم فلا حدود لهما ، ولا عائق يستطيع أن يعوقها عن بلوغ المستصعبات ، فلو كان قرن الشمس ماء لأورد خيله أياه . ويعرّض المتنبي بالدمستق وابنه وقد خاضا ضد سيف الدولة حرباً ، فأسر فيها الابن وفر الأب ، فكان الابن يائساً من حياته كأنه في يد الموت ، وأما الأب فكأنه خلق خلقاً جديداً بعد أن رأى المنية بعينه .

ويمضي الشاعر في امتداح الأمير ، فيتحدث عن معاركه واختصاره للبعاد، وعن هزيمة أعدائه وفرار الدمستق، واجتيابه للمسوح تنكّرا ، وقبوعه بالدير وترهّبه .

ولو كان ينجي من علي ترهّب
ترهّبت الأملاك مثنى وموحدا
وكل امرىء في الشرق والغرب بعده
يعدّ له ثوباً من الشعر أسودا .

ولعلك قد التفتّ الى المبالغات الواردة في هذا الشعر ، والى

التهويل والتعظيم والأبهة والضجيج ، يعمد اليها المتنبي ، ليلخلع على شعره إيحاء بالمواقف التي كان يقفها ، والصخب الذي كان يدور في صدره. والمتبني نزاع الى المبالغات كلف بالصور المهولة، وذلك لسببين : أولها ، أن المبالغات مستحسنة في الشعر ؛ وقديماً قيل : أجود الشعر أكـذبه ؛ وثانيهما أن الشاعر طموح واسع الخيال كبير الآمال لا يروق له إلا المشهد العظيم كآماله ، المتوقد كأحلامه ، الصاخب صخب الحياة في صدر هذا الرجل، من هنا كان اهتمامه بالصور الملحمية ، وحبه لتصوير المعـــارك الحروب والبطولات والأهوال ، حتى أنك لا تجد قصيدة من قصائده في سيف الدولة الحمداني الا وفيها ومضة ملحمية . وما ننكر أبداًبأن سيف الدولة في بطولاته وأعماله الكبار هو الذي أوحى الى الشاعربمثل هذا الوصف الملحمي . فلقد كانت الحروب لديه نزهة أو هواية كلما أراد أن يروّح عن نفسه ، ركب جواده، وقاد كوكبة من الفرسان الى حدود الروم ليحاربهم .

ويستمر الشاعر في مديحه ؛ فيهنىء الامير بعيد الأضحى ، وفي الوقت نفسه يهنىء الناس بسيف الدولة ، فهو عيدهم الدائم ، يبتهجون به ابتهاجهم بالأعياد بل أكثر ، وسيف الدولة في الناس كيوم العيد في الأيام ، أغرّ محبوب ، مفضل . ويعجب الشاعر، كيف كان الخليفة يتخذ من ابن أبي الهيجاء سيفاً لدولته . أفما يخشى ان يكون سيفاً عليه . وكأنمـا يريد المتنبي بهذا القول ان يؤلب الأمير الحمداني على الخليفة وأن يطمعه بخلافة المسلمـين . والذي نراه ، أن المتنبي يخلع على سيف الدولة مطامحه . ويعطيه من آماله وأهوائه . فهو ثائر على الحكم وعلى الحـــاكم ولكنه لا

يستطيع أن يحقق ثورته . وقد وجد في أمير حلب . الرجل القدير الذي يصلح لأن يتبنى أحلام المتنبي . فراح يخلعها عليه .

والذي يمتاز به شعر هذا الرجل ، ومديحه بنوع خاص ، أنه يشتمل على الحكمة يبثها المتنبي هنا وهناك ، وهو مغرم بها غرامه بالعظمة والتضخيم والمبالغات يضمنها مذهبه في الحياة ، وآراءه في الناس وأنظمتهم وأعمالهم ، ويلونها بألوان من نفسه الأبية المتمردة ، ومن طموحه وثورته وتشاؤمه وفشله ، والمرارة الأليمة التي كانت تحز في ذاته . انظر اليه وهو يمدح سيف الدولة كيف يمهد للحكمة تمهيداً لبقاً رائعاً ، فاذا كل ما قبلها طرق اليها تقود ؛ وكل ما بعدها هو عنها ناتج .

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام فيما تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدره
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

والممدوح في شعر المتنبي حليم ؛ ذكي ؛ أبيّ ؛ شجاع . يدق ما يفعله على الافكار وحكمته تفوق حكمة الناس كما فاقهم حالاً ونفساً ومحتداً .

والملاحظ أن المتنبي ما مدح أنساناً إلا مدح نفسه معه. وما قبل الارض بين أيـدي الممدوحين ولا هو تزلف لهم أو تذلل فقد كان فيه من الاباء والانفة ما جعله يترفع عن كل إنسان؛ حتى عن الامراء الذين مدحهم. وها هو في مديح سيف الدولة يدل بنفسه عليـه؛ ويعرّض بفضـله، ويفخر بشعره واعياً أن هذا الشعر هو خير ما أخرج للناس في فن المديـح. وإنه لمن الروعة على جانب وفير قول هذا الرجل:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار بـه من لا يسير مشمراً
وغنى بـه من لا يغني مغردا.

والحق أن الدهر سيظل ينشد للمتنبي أشعاره. وسيظل الناس يرددونها في سعادتهم وشقائهم. وفي حلهم وترحالهم.

وإذا فخر أبو الطيب، بلغ أقصى درجات العنجهية، وتكبر وتعجرف وأعجب بنفسه إعجاباً لا نجد له مثيلا إلا لدى المرضى من أصحاب الغرور. وماهمنا في هذا المقام أن نبحث ذلـك ونعلله. ولكن همنا أن نبين خصائص المديح لدى هذا الرجل. ومدى تطوره على يديه. والذي يتدبر هذا الشعر يجد الى جانب ما ذكرنا من مزاياه سابقاً، المزايا الآتية:

١ — في شعر الصبا، وفي قسم من قصائد الشباب. كان المتنبي يقلد السابقين. فيقف على الاطلال، ويصف الناقـة.

وينسب بمحبوبته . وكان يقلد أبا تمام بصورة خاصة . لأنه رأى فيه الاستاذ المفضل الذي يحسن بشاعر ناشيء يطلب الشهرة أن يتخرج على يديه . وعندمـــا قوي ساعده استقل عن أستاذه وأصبـح ينظم شعراً متنبئياً خالصاً . هو أكثر جودة من شعر أبي تمام . وأصبح يتوخى المطالع الفخمة الجليلة ؛ التي كثيراً ما كان يستهلها بحكمة إنسانية خالدة .

٢ — في مديح إبي الطيب جمع بين المذهبين اللذين تحدثنـا عنهما في الفصل السابق . وكان يمثلهما أبو تمام والبحتري . أمـا مذهب أبي تمام فيتجلى في الصناعة والوعي الكثير ، وإدخـال الفلسفة في الشعر . وفي أريستوقراطية العبارة وأناقتها . وامـا مذهب البحتري ؛ فمداره الديباجة الحسنة والغناء الشعري . والعواطف الرقيقة ؛ وموسيقى اللفظ . وما من أحد مثل أبي الطيب ؛ استطاع أن يحقق هذه المعجزة . ويحشد في شعره أجمل المعاني واعمقها في أجمل الاشكال الشعرية وآنقها وأكثرها صفاء. وما كان عبثاً أن يقال : « وكأنما كانت غـاية الشعر العربي ان يبلغ ابا الطيب المتنبي ليقف عنده» .

٣ — في مديح أبي الطيب تتجلى المثالية العربية في جميـع مظاهرها . وتبرز معالم الشخصية الكاملة في ما كان يضفيه الشاعر على نفسه ويضفيه على ممدوحه . وكأننا بشخصية العربي كانت تتطور وتتسامى لتبلغ في كمالها مـــا بلغه سيف الدولة في شعر المتنبي .

٤ – لقد تكسب أبو الطيب ولكنه ما تذلل . مدح أناساً كثيرين وماحنى رأسه لأحد منهم . وطلب المال بالشعر ؛ بل طلب الملك بشعره أيضاً . ومع ذلك . فانك لا تجد في هـذا الشعر ما يشين المتنبي وما يحط من قدره . اللهم إلا تلك الكبرياء التي لم تحدها حدود .

ورب قائل يقول : أما تذلل لـكافور ؟ إما نرى في قوله : « ابا المسك هل في الكأس فضل أنا له » شيئاً من الذلة ؟

بلى ؛ ولكن كم هي الأبيات في ديوان المتنبي التي تحتوي على مثل هذا المعنى ؟ وما مدى التذلل فيه ؟ لو رجعنا الى الظروف التي قيل فيها هذا القول لوجـدنا أن الدافع الحقيقي اليه ليس تذللاً بقدر ما هو انسحاق أمام الفشل الذريـع الذي مني بـه الشاعر . وأمام المرارة الأليمة التي كان يعانيها . وخيبة الآمال التي طالما دغدغت فؤاده . وعاشت معه نحواً من نصف قرن .

٥ – ما مدح المتنبي أميراً إلا مدح نفسه . حتى بلغ به الأمر مبلغ التعـالي على الممدوحين . وها هو في مـدح أبي العشائر الحمداني يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث
والنجل بعض من نجله .
وليفخر الفخر إذ غدوت به
مرتدياً خـيره ومنتعله .

وفي مدح سيف الدولة ، يصرح على مسمع من الناس جميعاً .

وعلى مرأى منهم :

سيعلم الجمع ممن ضم مجالسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاها ويختصم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
وما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم

ويبلغ هذا التعالي أقصاه ، في مديح أبي الحسن الانطاكي حيث يقول :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
أن النفيس غريب حيثما كانا

٦ - كان المتنبي ذا ثقافة واسعة . واطلاع على معطيات الفلسفة والعلوم فاراد أن يدخل بعضاً من مظاهر هذه الثقافة في شعره وأتى المعاني العميقة من بعيد . فتناولها تناولاً لبقا . مبنيّاً على اللمح ولكنه يغني عن كل تفصيل .

٧ — في مديح المتنبي نزعة دينية قومية تتجلى في حديث الشاعر عن معارك سيف الدولة وحروبه ضد الروم ؛ حيث يجعله بطلاً عربياً وبطلاً إسلامياً في آن معاً . فهو حامي الدين . وهو حامي ملك العرب .

٨ — وفي مديحه أيضاً ، عامل منطقي واضح . حتى ليغدو المنطق ظاهرة دائمة في شعر هذا الرجل .

٩ — لقد نجح المتنبي كثيراً في فرض شعره على الناس . وفي جعلهم يقفون حياله متأملين متحيرين ؛ يتساءلون عما أراده في أبياته ؛ ويعجبون بما يجدون طيها من صور ومعان ؛ ومبالغات وبراعة في استعمال الكلام العربي .

١٠ — لقد وثب المتنبي في فن المديح الى الذروة ، ولوّن المدائح بالوان الاباء والعزّة والعظمة ، وصفاء التعبير ، والمثالية الخيرّة ، والشيم العربيــة الأصيلة ، والفكر الانساني الرحيب ، والثورة العارمة على الفساد والطغيان والضعف والتذلل .

# انحدار فن المديح

لم يكن الشعراء المداحون ، الذين تعاقبوا عبر السنين الطويلة . منذ الجاهلية حتى أواخر العصر العباسي من مستوى واحد . ولم يكونوا جميعاً من المبدعين . ولكن شعر المديح كان على الرغم من ذلك يسير نحو الرقي حتى بلـغ ذروته في منتصف العصر العباسي الثالث أيام المتنبي والسريّ الرفـــاء والوأواء الدمشقي وغيرهم ؛ وكان المتنبي أبرعهم في ذلك جميعاً . فما ان ولـّى هذا العهـــد . حتى بـدأ شعر المديـح ينحط شيئاً بعد شيء . فلا تلتمع فيه إلا أسماء صغيرة ليس بين عطائها وعطاء العمالقة السابقين أية نسبة للمقارنة . فما أسباب ذلك ؟ من يتدبر شعر المديح. يجد أن ازدهاره يعود الى عوامل عديدة . هو يعود الى الشعراء الذين ينظمونه . فإن كانوا من العباقرة جاد ، وإن لم يكونوا كذلك أتى غثاً تافهاً .

ويعود الى الحياة الفكـرية عامة ، والأدبية بنوع أخص فعهد الرقي الفكري هو إجمـالاً عهد ازدهار ورقيّ في الأدب . شعره ونثره . ومنه شعر المديح .

على أن ظروف العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها أيضاً أثرها في توجيه شعر المديح . فالصراع السياسي ، ونشاط الحركات الحزبية يقويان هذا المديح . وازدهار الحياة السياسية في بلد من البلدان ينفح المديح ببعض نفحاته . وكذلك قل عن الحياة الاقتصادية . فهي منذ البدء حتى النهاية ، كانت دافعاً قوياً من الدوافع التي وجهت الشعراء نحو المديح .

أما النظم الاجتماعية والعادات ، وتقاليد القوم ؛ فواضحة آثارها في ما تدور المدائح حوله . وواضحة أيضاً في تكريس المديح تقليداً عربياً أصيلاً . وفي جعله ديواناً لفضائل القوم . وأخلاقهم الحميدة ، ومثلهم العليا ، وغاياتهم في الحياة . والذي لا ريب فيه ، أن تشجيع أولي الامر للشعر . وإقبالهم على المدائح ، ورعايتهم لأصحابها ، أمور من شأنها أن تحقق للمديح ازدهاره . وكلما كان الممدوحون أفهم للشعر ، وأكثر تذوقاً له ، كان المديح أفضل وأرقى ، ناهيك باخلاص الشاعر لممدوحه ، وصدق شعوره وعاطفته نحوه ، وحبه الصحيح له وإعجابه به . فهذه الامور جميعاً تزيد الشعر روعة ، وتبث فيه ماوية الحياة ، وتساعد على إقامة المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين القراء والسامعين .

بقي أن نذكر من عوامل ازدهار المديح ورقيه ، جود الحياة بالرجال العظماء الذين يستحقون المديح ، ويثيرون قرائح الشعراء وإعجابهم بهم . ففي العهود التي يكثر فيها العظماء والرجال الماجدون ، اصحاب الاعمال المدهشة ، والبطولات

الرائعة ،والمآثر الخيّرة والخدمات الجلّى ، يزدهر فن المديح ويبلغ رقيّه .

أما العهود التي تضن بالأبطال، وبالمتفوقين من البشر، فمدائحها غثة متكلفة ضئيلة القيمة . وهذا ما حدث في أواخر الأعصر العباسية . فلقد نضبت القرائح ، ونضبت المروءات ، وفقد المجتمع الشعراء اللامعين ، والامراء الفاضلين . فما عاد لأمثال المتنبي من وجود ، ولا لأمثال سيف الدولة أيضاً . وما عدت ترى سوى أقزام في الشعر ، وأقزام في السيادة . أولئك يتملقون ويتزلفون ، ويزورون القول ، فيسيئون تأليفه ، وهؤلاء يأتون الدنايا ، ويتمرغون في حمآت الجشع والظلم والاختلاس والرذيلة.

وهذه هي حال المديح في آخر الأعصر العباسية وفي عهد الانحطاط حتى مطلع العصر الحديث أضف الى ذلك ، ان هذا المديح قد سيطر عليه الجمود ، وشلت فيه إمكانات الابداع ، وعمه التقليد . فأصبح الشعراء يذرعون في محيط ضيق من المعاني والصور وفي معجم مرسوم من الالفاظ يدورون حوله ، وينتهون دائماً الى حيث يبدأون كما تدور الرحى . وإنه لينذر أن تقع في هذا الشعر على صورة مبتكرة ، أو على فكرة أصيلة ، واليك نماذج منه .

**من مديح ابن هانىء الاندلسي :**

قال ابن هانىء يمدح الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله ويتحدث عن مآتيه وحروبه :

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ
فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهارُ

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ
وكأنما أنصارُك الأنصار

أنت الذي كانت تبشرنا به
في كُتبها الأحبارُ والأخبار

هذا إمام المتقين ومَن به
قد دوّخ الطغيان والكفار

هذا الذي تُرجى النجاة بحبه
وبه يحطُّ الإصرُ والأوزار

هذا الذي تُجدي شفاعته غداً
حقاً وتَخمُد أن تراه النار[1]

من آل أحمدَ كلُّ فخرٍ لم يكن
يُنمى اليهم، ليس فيه فخار.

كالبدر تحت غمامة من قسطلٍ
ضَحيانُ لا يُخفيه عنك سِرار[2]

---

١ – النار : جهنم .

٢ – القسطل : غبار الحرب . ضحيان : بارز للشمس . سرار : آخر ليلة من الشهر .

في جحفلٍ هتَمَ الثنايا وقعُه
كالبحر فهو غُطامطٌ زخّار[1]
غمرَ الرِّعانَ الباذخاتِ واغرقَ
القُنن المنيعة ، ذلك التيّار[2]
زجِلٌ يبرِّح بالفضاء مضيقه
فالسهل يمٌّ والجبال بحار[3]
لله غزوتهم غداةَ فراقسٍ
وقد استُشِبَّتْ للكريهة نارُ[4]
والمستظل ، سماؤه من عِثْيرٍ
فيها الكواكبُ لهذَم وغِرار[5]
وكأنَّ غيضاتِ الرماح حدائقٌ
لمعُ الأسنَّة بينها أزهارُ
وثمارها من عِظْلمٍ أو أيدعٍ
يَنعٍ فليس لها سواه ثمار[6]
والخيل تمرح في الشكيم كأنها
عِقبانُ صارةَ شاقها الأوكار[7]

---

١ — هتم : كسر . الغطامط : الزخار
٢ — الرعان : جمع رعن : انف يتقدم الجبل
٣ — زجل : مصوت
٤ — فراقس : اسم مكان . الكريهة : الحرب
٥ — العثير : الغبار . اللهذم : القاطع .
٦ — العظلم : نبت يصبغ به . الأيدع : الزعفران .
٧ — الشكيم : حديد اللجام . الصارة : جبل في بلاد العرب .

من كلِّ يَعبوبٍ سبوحٍ سلهبٍ
حَصٌ السّياط عنـــانه الطيّار [1]

لا يطّبيه غـــيرُ كبّة معركٍ
أو هبوةٌ من مـــأقطٍ ومغار [2]

سلِطُ السنابـــك باللجين مخدّمٌ
وأُذيب منه على الأديم نضار [3]

وكأنّ وَفرَته غدائر غـــادةٍ
لم يلقها بؤسٌ ولا إفقـــارُ [4]

وأحمٌ حُلكوكٌ وأصفر فاقعٌ
منها وأشهبُ أمهقٌ زهّـــار [5]

يعقلن ذا العُقّال عن غـــاياته
وتقول أن لن يخطر الأخطار [6]

مرت لغايتها فلا والله مـــا
علقت بها في عَدوها الأبصار

---

١ – اليعبوب : السريع . السلهب : الطويـــل ، الحص : من سقط شعره .
٢ – يطبيه : يستميله. الكبة : دفعة من الخيل الهبوة : الغبار . المأقط: المضيق .
٣ – سلط : حاد ، المخدم : فيه بياض في اسفل قائمته .
٤ – الوفرة : شعر الرأس .
٥ – احم : اسود : أيهق : أبيض .
٦ – ذو العقال : فحل من خيول العرب .

وجرت فقلتُ أسابــح أم طائر
هلا استثار لوقعهن غبـــار

من آل أعوجِ والصريـح وداحسٍ
فيهن منهـــا مِيسم ونِجار [1]

وعلى مطاها فتية شيعيّـــة
ما إن لها إلا الولاءَ شِعارُ [2]

من كل أغلبَ باســلٍ متخمّطٍ
كالليث فهو لِقرنه هَصّار [3]

قلقٌ الى يوم الهياج مغـــامر
دمُ كلّ قيْلٍ في ظُباه جُبار [4]

إن تخبُ نار الحرب فهو بفتكه
مِيقادُها مِضرامهـــا المِغوار [5]

فأداته فضفاضـــةٌ وتريكةٌ
ومثقّـف ومهنـــد بتار [6]

أُسدٌ إذا زارت وِجارَ ثعالبٍ
ما إن لهـــا إلا القلوب وِجار

---

١ – اعوج والصريح وداحس : خيول عربية .
٢ – مطاها : ظهرها .
٣ – المتخمط : المتكبر .
٤ – القيل : الملك .
٥ – تخبو : تنطفيء .
٦ – فضفاضة : صفة للدرع – التريكة : بيضة الحديد .

حفـُّوا برايات المعزّ ومـن به
تستبشر الأملاك والأقطـار

هل للدمستق بعد ذلك رجعة
قُضِيتْ بسيفكَ منهمُ الأوطار

أضحوا حصيداً خامدين وأقفرت
عَرَصاتهم وتعطلت آثار

كانت جناناً أرضهم معروشةً
فأصابهـا من جيشه إعصـار [1]

أمسوا عشاءَ عروبـة في غبطة
فأناخ بالمـوتِ الزؤام شِيار [2]

واستقطع الخفقانَ حَبَّ قلوبهمْ
وجَلا الشرورَ وحُلّت الأدعار [3]

صدعت جيوشك في العجاج وغانشَتْ
ليلَ العجاج فورِدْها إصدار [4]

ملأوا البلاد رغائباً وكتائبـاً
وقواضباً وشوازباً إن سـاروا [5]

---

١ – معروشة : مرفوعة على الخشب .
٢ – العروبة : يوم الجمعة . شيار : يوم السبت .
٣ – الادعار : المفاسد .
٤ – عانشت : عانقت .
٥ – الشوازب : الخيول الضوامر .

وعواطفاً وعوارفاً وقواصفاً
وخوانفاً يشتاقُها المضمار [1]

وجداولاً وأجادلاً ومقاولاً
وعواملاً وذوابلاً واختاروا [2]

عكسوا الزمانَ عواثناً ودواخناً
فالصبح ليل والظلامُ نهار [3]

سَفَروا فأخلَتْ بالشموس جباهُهم
وتَمعْجَرت بغمامها الأقمار [4]

ورَسَوْا حِجىً حتى استُخِفَّ متالعٌ
وهمَوا ندىً فاستحيَتِ الأمطار [5]

وتبسَّموا فزَهَا وأخصَبَ ماحلٌ
وافترّ في روضاته النوّارُ

واستبسلوا فتخاضع الشُمُّ الذرّى
وسَطوْا فذلّ الضَّيغمُ الزءّار

أبناءَ فاطمَ هل لنا في حشرنا
لجأٌ سواكم عاصمٌ ومجار

---

١ — الخوانف : التي تميل برأسها نحو راكبها .
٢ — الاجادل : الصقور . المقاول : الملوك : العوامل : الرماح .
٣ العواثن : جمع عثان، وهو الغبار .
٤ — تمعجرت : التفت وتغطت .
٥ — الحجى : العقل . متالع : جبل .

أنتم أحبّاء الإله وآلـــه
ُخلفاؤه في أرضـــه الأبرار

أهل النبوّة والرسالة والهـدى
في البيّنات وسادة أطهـار

والوحيُ والتأويلُ والتحريم والتـ
حليلُ لا ُخلف ولا إنكـار

إن قيلَ مَن خير البرية ؟ لم يكن
إلا ّكمُ خلق إليـــه يشار

لو تلمسون الصخر لانبجست به
وتفجّرت وتدفقت أنهـــار

أو كان منكم للرّفات مخاطب
لبثّـوا وظنوا أنّـــه إنشار[1]

لستم كأبناءَ الطليقِ المرتـدي
بالكفر حتى عضّ فيـه إسار

أبناء نتلة مـا لكم ولمعشرٍ
همْ دوحةُ الله الذي يختـــار

رُدّوا اليهم حقّهم وتنكّبوا
وتحمّلوا فقد استحمّ بوارُ[2]

---

١ – انشار : احياء

٢ – تنكبوا : تجنبوا : ارتحلوا . استحم : اشتد .

وَدعوا الطريقَ لفضلهم فهم الألى
لهمُ بمَجْهُلةِ الطريق منـارُ

كم تنهضونَ بعبءِ عارٍ واصمٍ
والعارُ يأنفُ منكـُمُ والنـار

يُلهيهِـمُ زَمْرُ المثـاني كلـّما
ألهـاكـُمُ المثنيُّ والمِزمـارُ [1]

أمعزَّ دين الله إنـّ زمانـنـا
بِك فيه بَأوٌ جلَّ واستكبار [2]

ها إنّ مصرَ غداةَ صرتَ قطينها
أحرى لتحسُدها بك الأقطـار

والأرض كادت تفخرُ السبعَ العُلى
لولا يُظلـُّك سقفها الموّار [3]

والدهرُ لاذ بِحقوَتيكَ وصرفهُ
وملوكه ومـلائكٌ أطوارُ [4]

والدَّوُّ والظـّلمـان والذُّؤبانُ
والغزلانُ حتى خِرْنِقٌ وفُرار [5]

---

١ – الزمر: الة من قصب ينفخ فيها فتصدر اصواتاً موسيقية – المثاني: جمع مثني: وهو ما بعد الاول من اوتار العود.

٢ – بأو: فخر.

٣ – الموار: المتحرك.

٤ – الحقوة: الخصر. لاذ بحقوتيك: استجار بك.

٥ – الدو: الفلاة. الظلمان: جمع ظليم: وهو ذكر النعام. الذؤبان: جمع ذئب. الخرنق: الصغير من الارانب. الفرار: ولد النعجة أو المعزاة.

شرُفَتْ بكَ الآفاقُ وانقسمت بك
الأرزاقُ والآجالُ والاعمارُ

عطِرتْ بكَ الأفواهُ إذ عَذُبت لكَ
الأمواهُ حين صَفَت لكَ الأكدارُ

جلَّت صفاتك أن تُحَدَّ بمِقولٍ
ما يصنعُ المصداقُ والمِكثارُ

والله خصَّكَ بالقُرانِ وفضله
واخجْلتي ما تبلغ الأشعارُ .

أرأيت الى هذا الشعر كيف يعمد الى المبالغات الفجة حتى يصل الى حدٍّ يشمئز الناس منه ؟ فهو تارة يجعل الممدوح كالله في مشيئته ويستعير له صفات الله من القرآن ، فاذا هو الواحد القهار . وطوراً يجعله كالنبي محمد ، مرسلاً تدعمه الانصار وتخبر عنه كتب الاحبار والاخبار .

كذب وخداع وتلفيق للقول وتكسب خال من الضمير ومن كرامة النفس . إن مثل هذا الشعر ليسيء الى المجتمعات والى الأنظمة والى الأدب نفسه . يسيء الى المجتمعات لأنه يضللها ويخدعها ولا ينقد ما فيها من فساد ومن خضوع لحكام طغاة أخساء . ويسيء الى الانظمة لانه يتملق الممدوح ولا يظهر عيوبه ولا يدعوه الى نظام عادل في الحكم وان تغنى بذلك ونسبه اليه . والممدوح يطمع كلما سمع كلاماً من هذا النوع . فمن ذا الذي يوقفه عند حد اذا كان ابن هانيء يقول ، افعل ما شئت واحكم

كما تريد فانت ظل الله على الارض وإرادتك من مشيئته وإرادته؟

أما إساءته الى الأدب فتتجلى في وصم هذا الأدب والانصراف به عن حقيقته فما كان الأدب في يوم من الايام معيناً للفساد والطغيان ، ولكنه في جوهره حرب على ذلك ، وإصلاح لكل ما يحتاج الى إصلاح .

ويمضي الشاعر في تعداد الفضائل ملصقاً إياها بممدوحه ، مقلداً الفرزدق في مديحه لزين العابدين ، حفيد الامام علي حيث يقول :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا .. الخ

ولا يكتفي ابن هاني باقتباس الصورة من الفرزدق ، بل يقتبس المعاني أيضاً ، فاذا الممدوح إمام المتقين ، يقضي على الكفر والطغيان ، وبه يعتصم الناس ويتبركون ويرجون النجاة بحبه . ثم يجمع ابن هانىء كل ما قيل من أساطير حول أعمال الأولياء والصالحين فيسندها الى ممدوحه ، مغاليا ويسند اليه أعمال البطولات ، وصفات الفرسان الاماجد .

ويتحدث عن قيادته لجحافل كأنها البحار في عظمها وتحركاتها ،

ويصف اجتيازها للأعالي ، وضجيجها الذي يملأ الفضاء ،وبلاءها في الحرب ، وغبار المعارك التي خاضتها ، وأسلحتها وخيولها مسهباً في وصف الخيول حتى يبلغ حديثه عنها دزينة من الابيات . وينتقل بعد ذلك الى وصف المحاربين في جيش المعز ، فهم فتية متشيعون للامام علي مؤمنون بعقيدتهم ، شجعان أكفاء كأنهم الليوث ، يضرمون نار الوغى ، ويتدججون بالاسلحة ؛ ويكسرون شوكة الاعداء ويحاربون الروم ودمستقهم ؛ ويحصدون رؤوس الرجال حصدا .

ويسهب الشاعر في وصف هؤلاء الفرسان ، حتى يستغرق وصفهم نيّفاً وعشرين بيتاً ، ليتخلص الى مدح آل المعز من الفاطميين ، وهم آل الله ، ويتغنى بنسبهم وانحدارهم من نسل محمد خير البرية ، وبحقهم في الحكم وخلافة المسلمين . ويختم ابن هانىء حديثه ، مخاطباً المعز لدين الله فيجعله موطن الفخر ، به تباهي الأرض كواكب الكون ، وبه يلوذ الزمان ، والبحار تشهد له ، والجبال تشهد له أيضاً ، والآفاق تزهى به وتتيه ، وصفاته الحميدة لا يبلغها ظن ولا يستوعبها مديح . وهو ظل الله على الأرض اختاره ربه ليكون هدياً لهذه الامة .

ولعلك غير غافل عن الاسراف في استخدام الغريب طيّ هذه القصيدة . حتى لا يكاد يخلو بيت من لفظة غريبة ، مثل : غطامط وغمر الرعان ، والعثير ، واللهذم ، والعظلم ، والايدع ، ويعبوب ، والكبة ، والحصّ والمأمط والحلكوك ، والمخدّم ،

والمتخمط، والعروبة، والشيار، وعانشت ، وتمعجرت... الخ . أو لعلك أيضاً قد لاحظت إسرافه في الصناعة والبهلوانية اللفظية. كقوله :

ملأوا البلاد رغائباً وكتائبـاً
وقواضباً وشوازباً أن ساروا
وعواطفاً وعوارفاً وقواصفـاً
وخوانفاً يشتاقها المضمار
وجداولاً وأجادلاً ومقـاولاً
وعواملاً وذوابلاً واحتـاروا

هذا بالاضافة الى الركاكة ، والسطحية ، واجترار المعاني القديمة ، وغثاثة الشعر وجفافه ، وخلوه من ماوية الصدق في الشعور وفي الاكبار . أو ليس هذا المديح انحداراً عما رأيناه عند جرير وأبي تمام والمتنبي وسواهم ؟

والذي يتتبع هذا الفن في عصر الانحطاط ، يجد انه قد استمر في انحداره وتحول الى ضرب من التقليد الذي لا أثر فيه لأي مظهر من مظاهر الخلق الأدبي . فابن الوردي مثلاً وابن نباته وابن حبيب الحلبي وصفاء الدين الحلي وبطرس كرامة ، لم يكن لهم هم في مدائحهم إلا أن يزحفوا وراء الاقدمين ، مستخدمين تعابيرهم وصورهم ومعانيهم استخداماً اعتباطياً إن دل على شيء فانما يدل على جدب القريحة وفقدان كل إمكان للعطاء الجميل . في هذا العصر أصبح الأدب رصفاً للكلام المزوّق ،

ولعباً بالالفاظ كلعب المشعوذين وأصبح فن المديح محشداً للتكلف والغثاثة والركة ، وللتملق الدنيء ورديء التكسب .

أما عصر النهضة، فانه لم يحفل بالمديح كما كان القدماء يحفلون به ، ولكنه لم يعدم شعراء قد تعاطوا هذا الفن ، منهم من سار على خطى الاقدمين في التقليد، فجاء شعره غير ذي قيمة، ومنهم من نفح مدائحه بنفحات تجديدية مستمدة من روح العصر ، ومن الاصالة الفردية في ذات الشاعر . وأبرز اسم في هذه المجموعة هو من غير ارتياب اسم أحمد شوقي .

# فهرس

٤١٢ – ٤ – ٦٢

# الفنون الأدبية عند العرب

سلسلة جديدة تتناول الأدب العربي، وتقسمه بحسب فنونه، مستوفية الكلام في كل فن على حدة من نشأته حتى اليوم.

وهي طريقة استقرائية حديثة اتبعت في البيئات الجامعية أولاً، ثم شاعت بين الدارسين، واصبحت داخلة في صلب المنهج المدرسي في لبنان مثلاً. وانّ دراسة الفنون وفق هذه الطريقة تفيد أكبر الفائدة إذ تتيح لنا أن نتتبع ظواهر نشأة كل فنّ ومراحل تطوّره بحسب تسلسله في الزمان وتنقله في المكان، كما تمكننا بطريقة جمعها للنماذج التي دارت حول فنّ ما من فنون الأدب أن نتصل بالنصوص ونتعرف طريقة معاناتها فندرك نقط الالتقاء، ونقط التباعد بين أديب وأديب وشاعر وشاعر. فضلاً عن فوائد أخرى كثيرة أهمّها معرفة ما إذا كان الأدب العربي قد استوفى الفنون الادبية المعروفة عند الغربيّين أم قصّر عنها...



منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

[redacted]

الثمن ٣٠٠ ق. ل
٣٥٠ ق. س